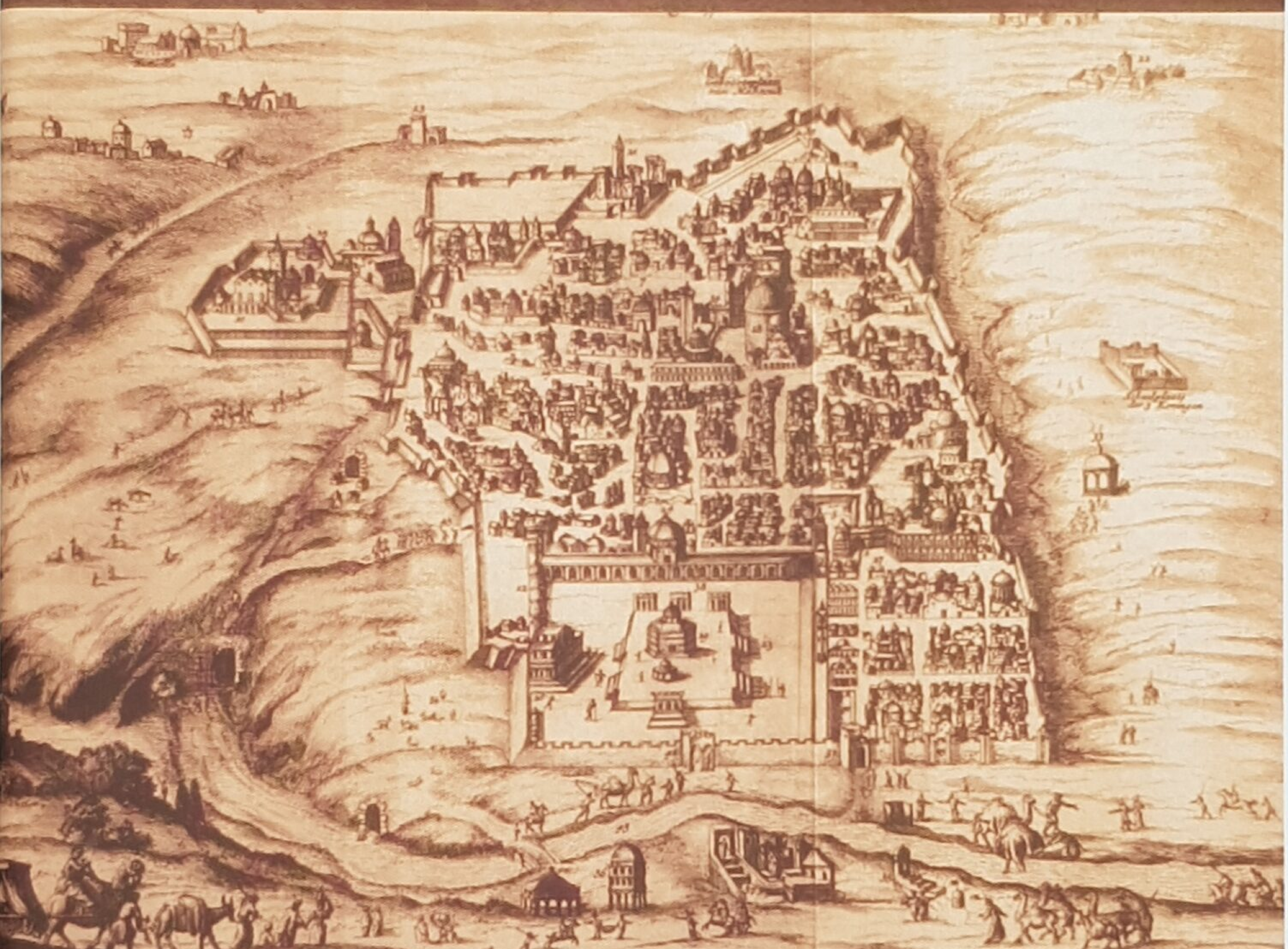


أسفار السّير جون ماندڤيل ورحلاته

تأليف: السير جون ماندڤيل

ترجمة: أنس الذّهبي

رنا جزائري

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

رواد المشرق العربي

أسفار السّير جون ماندڤيل ورحلاته

1322 - 1356 م

ترجمة

أنس الذّهبي

رنا جزائري

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

G370 .M2512 2012

Mandeville, John, Sir

[**The Voyages and travels of Sir Mandeville, Knight**]

أسفار السير جون ماندفيل ورحلاته 1322-1356م / ترجمة: أنس الذهبي، رنا جزائري؛ تحرير و تعليق: أحمد أيبش.

ط 1. - أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ؛ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : **The Voyages and travels of Sir Mandeville, Knight**

تدمك : 978-9948-17-059-4

1. الرحلات. أ. ذهبي، أنس. ب. جزائري، رنا. ج. إيبش، أحمد. د. العنوان. هـ. السلسلة

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

أسفار السّير جون ماندڤيل ورحلاته

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

جون ماندڤيل أشهر وأظرف رحّالي القرن الرّابع عشر، معاصر الرّحالة البندقي الشّهير ماركو پولو ورحّالتنا الكبير ابن بطّوطة الطّنجي، يعرّفنا بنفسه بقوله: «أنا جون ماندڤيل الفارس.. المولود في إنكلترا.. ركبتُ البحر في سنة 1322 م، في يوم القدّيس ميخائيل.. وزرتُ بلاداً مختلفةً وجُزراً كثيرة.. واجتزتُ بلاد التّتار وفارس وأرمينيا الصّغرى والكُبرى، وليبيا والعراق، وجزءاً كبيراً من أمازونيا والهند الكبرى والصّغرى، وجزراً كثيرة حول الهند.. حيث تقطن شعوب متباينة الأعراف والعادات والأشكال البشرية»[1].

يرد في المصادر الإنكليزية، كما في الموسوعة البريطانية مثلاً[2]: السّير «جون ماندڤيل» Sir John Mandeville مؤلّف إنكليزي، له مجموعة من روايات الرّحلات حول العالم، تُعرف بعنوان: «أسفار الفارس جون ماندڤيل ورحلاته»:

The Voyages and Travels of Sir John Mandeville, Knight.

وهي تضمّ مجموعة مختارات من روايات لرحّالين أصليين، قام بتحريرها وتزويقها ماندڤيل نفسه، ثم نسبها إليه كما لو كانت رحلاته الشّخصية.

وكلّ ما نعرفه عنه، هو ما جاء بقلمه في رحلاته، المكتوبة بلهجة أنكلوفرنسية كانت

---

(1) راجع رحلته، نشرة رايت بلندن:

.Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 129

(2) راجع:

.*Encyclopaedia Britannica, (Micropaedia)*, 1980 print, vol. VI, p. 559

شائعة في إنكلترا في القرن الرّابع عشر للميلاد. وأن اسمه جون ماندڤيل الفارس، ولد في بلدة سَنت آلبانز St. Albans التابعة لمقاطعة هِرتفوردشاير Hertfordshire وتعلّم بها. ولقد باشر رحلاته، كما يقول، في يوم 29 سبتمبر من عام 1322 م، ثم يروي أنه بعد 34 عاماً من التّرحال أرغمه داء النّقرس (التهاب المفاصل) على إلقاء عصا التّسيار مُرغماً، فمكث في موطنه عام 1356 م ليدوّن أخبار رحلاته من الذّاكرة.

ورغم أن ماندڤيل (أو موندڤيل Maundeville بصيغته الأنكلوفرنسية) كان اسماً شائعاً بإنكلترا في القرن الرّابع عشر، فلا شيء آخر يمكن لنا معرفته عن المؤلّف. غير أن هنالك روايةً من ابتداع الخيال، تقول إنه أضحى طبيباً، مارس المهنة بمدينة لييج (في بلجيكا اليوم)، تحت اسم «جان دي بُورغونْيْ» Jean de Bourgogne وأنه قام بتدوين أخبار رحلاته هناك، حيث مات ودُفن.

يذكر هذه الرّواية جان دُوترُموز Jean d'Outremeuse de Liège أحد أبناء لييج، وهو مؤلف روايات رومانسية شعرية، وله تاريخ خيالي للعالم بعنوان: *Ly Myreur des histors* «مرآة التّواريخ»، مبني على روايات رحلات ماندڤيل. ويدّعي دوترُموز أن الطّبيب جان دي بورغونْيْ، وهو أصلاً شخصية معروفة تاريخياً، قد أقرّ على فراش موته بأنه كان هو بالفعل السّير جون ماندڤيل إيرل مونتفورت Earl of Montfort في إنكلترا. غير أن الوقائع تتضادّ مع مزاعمه تلك، على اعتبار أن نسخة لييج من رحلات ماندڤيل المكتوبة بالأنكلوفرنسية يعتورِها تحريفٌ بالغ، وبالتالي فإن رواية دوترُموز تُعدّ زائفة بشكل شبه أكيد، كما خلُص جمهور الباحثين.

وليس من المؤكد أن ماندڤيل نفسه قد قام بأيّة أسفار أصلاً، ذلك لأنه عمد إلى استقاء موادّه - بالكامل تقريباً - من الموسوعات وكتب الرّحلات المتوفّرة بين يديه آنذاك. فالقسم الأول من كتاب رحلاته، والذي يختصّ بذكر طرقات السّفر والعجائب الموجودة في كل من القسطنطينية وفلسطين ومصر، يتّبع بالواقع خط سير رحلة الرّحالة الألماني ڤلهلم فون بُولدِنزيلِه Wilhelm von Boldensele. أما القسم الآخر الأطول، فهو يأخذ القارئ صوب آسيا وأفريقيا، متّبعاً خط مسير رحلة أوديريكو دا

بوردينونه[1] Oderico da Pordenone، الموسومة باللاتينية بعنوان: *Itinerarius de rebus incognitis*، الذي يعني: «الرّحلة إلى الأشياء المجهولة».

ثم طفق ماندڤيل يزوّق نصوص هذه الرّحلات ويطعّمها، بأخبار تاريخية ومعلومات حول التقاليد والأديان والأساطير المتعلّقة بالمناطق المذكورة في رحلته المزعومة، ممّا استقاه من قراءاته واطّلاعاته الواسعة، فقام بتحوير النّصوص الأصلية وزيادة رونقها بمهارته الأدبية ومخيّلته الثّرّة المُبدعة. ثم قولَبَ هذه المواد بصيغة الرّواية الشّخصية، مصوّراً نفسه رحّالةً بسيطاً صادقاً مُنفتح الذّهن ذا تفهّم وتقبّل للشعوب المختلفة وعاداتها الغريبة، وذا ميل للبحث عن التفسيرات الطّبيعية للظواهر الغريبة بدلاً من عَزوها للمُعجزات.

على أنه برغم اشتهاره كأعظم رحّالي زمانه في عصر الاستكشاف بالقرون الوسطى، فإن ماندڤيل فيما بعد فَقَدَ سُمعته كراوية صادق، ونال محلّها صيت «أفّاق من الدّرجة الأولى». ولكن برغم ذلك كلّه، تبقى لكتابه شعبيّة كبيرة وما زال ينال حظاً وافراً من إقبال القرّاء. وإنْ جاز لنا التعبير، فإنّ كتابه كان في عصره بمثابة Best Seller وتمتّع بشهرة فائقة.

في عام 1954، قامت الكاتبة البريطانية جوزفين ووتَرز بِنِت بدراسة مخطوطات الكتاب، مع طبعاته العائدة للقرنين الخامس عشر والسّادس عشر، كما حلّلت مصداقيّة النّصّ، وفنّدت أسطورة ليبج، فضلاً عن القيمة الأدبية والتاريخية لكتاب رحلات ماندڤيل. وذلك في كتابها:

Josephine Waters Bennett: *The Rediscovery of Sir John Mandeville*, London, 1954.

* * *

وأقدم نشرات الكتاب المعروفة كانت باللاتينية والفرنسية، ثم بالإيطالية، صدرت

---

(1) مبشّر فرنسيسكاني ورحّالة إيطالي (1286-1331 م)، جال في بعض أنحاء آسيا كالهند.

إحداها في البندقية بطبعة جديدة ومصححة عام 1567:
Ioanne de Mandevilla, nel quale si contengono di molte cose marvigliose, con la tavola di tutti I capitoli che nella presente opera si contengono, novamente stampate & ricorretto. Venetia, 1567.

وبعدها، صدرت طبعة مترجمة بالألمانية عن أصل قديم مطبوع باللاتينية والفرنسية في كولن، ونُشرت بألمانيا (دون ذكر مكان الطّبع) في عام 1692:
Deß vortrefflich-Welt-erfahrnen, auch Hochweitberühmten Engelländischen Ritters Johannis de Montevilla curieuse Reiß-Besschreibung, wie derselbe ins gelobte Land Palästinam, Jerusalem, Egypten, Türckey, Judaeam, Indien, Chinam, Persien und andere... Von ihme selbst in latein und französischer Sprach beschrieben; nunmehr allen Teutschen... zu gutem übersetzt. Ehmals gedruckt zu Cölln, jetzt von neuem aufgelegt... im Jahr 1692.

أمـا أول طبعة باللغة الإنكليزية، فصـدرت في لندن عام 1725، تلتها أخرى في عام 1727:
The voiage and travaile of Sir John Maundeville, Kt. which treateth of the way to Hierusalem and of marvayles of Inde, with other Ilands and countryes, now publish'd entire from an original MS. in the Cotton Library. London, Woodman and Lyon, and C. Davis, 1727.

ثم تلتها طبعة هولندية، نشرها إرڤيه فان دِر پوتِه Erve van der Putte في أمستردام عام 1779:
De wonderlyke Reize van Jan Mandevyl, beschrivende eerst de Reize en Geschiedenigze van den L. Lande van Belosten, te voet, te Paard of ter Zee ende de Gestaltensze, ende Gelegenheid van den zelven Landen... Te Amsterdam, 1779.

وفـي عام 1864، صدرت بلندن طبعة. وتلتها أخرى عام 1883 مع مقدّمة وحواش

وفهـرس، أعدّها ج. هاليويل J. O. Halliwell، وصدرت عن دار نشـر Reeves and Turner. وهي تضمّ رسوماً ونُقيشات محفورة.

وفي عام 1887، صدرت أيضاً بلندن طبعة جديدة محقّقة ومصوّرة بطريقة النّقيشات المحفورة على الخشـب، بعناية جون آشـتون John Ashton، نشرتها دار Pickering and Chatto. ولم يصدر من هذه الطّبعة سوى 100 نسخة.

وفي عام 1888، صدرت طبعة ألمانية جديدة، بعناية آلبرت بوڤنشـن، عن دار نشـر ف. پورميتر في برلين:
Die Quellen für die Reisebeschreiben des Johann von Mandeville... Vorgelegt von Albert Bovenschen, Berlin, W. Pormetter, 1888.

كمـا نُشـرت الرّحلـة في لندن عـام 1848 ضمن مجموعـة: «الرّحـلات الباكرة في فلسطين»، بعناية توماس رايت، ص 282-127:
Thomas Wright *Early Travels in Palestine*, London, 1848.

* * *

أما السّبب في صدور طبعات عديدة للكتاب، وبلغات مختلفة، فهو عدا عن شهرته، أن مؤلفه نفسه كتبه أولاً باللاتينية، ثم قام بترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية، كما يقول في كتابه[1]:

«وقـد نقلـتُ هذا الكتاب مـن اللاتينية إلى الفرنسـية، ثـم من هذه إلـى الإنكليزية، ليفهمه كل فرد من بني قومي.. وليتمكن كل سـيّد وفارس وغيرهم من النّبلاء الذين لا يعرفون إلا القليل من اللاتينية من فهمه. وإذا أوقعني ضعف الذّاكرة في خطأ، استطاع كلّ الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يصحّحوا ذلك».

شـغلت أسـفار ماندڤيل ورواياته اهتمام معاصريه، ففيها أوصاف لبلاد الشّرق التي

(1) راجع رحلته، نشرة توماس رايت بلندن:
.Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 129

زارها: سوريا ومصر والعراق وفلسطين. هذا رغم أن الأساطير التي يحويها الكتاب، وأصناف البشر العجيبة التي يزعم أنه رآها ليس لها وجود. وبرغم ذلك، فثمّة من الباحثين من يحاول تقرير مسألتين هامتين حوله[1]:

الأولى: أن ماندڤيل وصل الشّرق العربي بالفعل في سياحاته، ووصف سوريا ومصر وجزءاً من العراق، وَصْفَ من رأى وسمع، لا كمن ينقل. وقد لاحظ توماس رايت أن المؤلّف كان بمصر حقاً سنة 1341 م (742 هـ)، بدليل ذكره السُّلطان الأشرف (الصغير)، أي علاء الدّين كُجُك ابن النّاصر محمّد[2]. وهذا هو التاريخ الوحيد الذي يدلّنا على أي شيء صحيح عن جون ماندڤيل.

والثانية: أنه نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة حشاها بكتابه. فقد أخذ عن ڤلهلم فون بُولدنزِلِه، والأمير هَيْتون الأرمني، وعن غِيّوم آدم[3] Guillaume Adam، وعن أوديريكو دا پوردينونِه[4]، وعن جُوڤانّي كارپيني Giovanni Carpini، وپْلينيوس Plinius وسُولّينوس[5] Sollinus.

ولذا، فإن أستاذنا د. نقولا زيادة في كتابه «روّاد الشّرق العربي»، يُعلن باطمئنان أننا نستطيع أن نعتمد الصّور التي أعطانا إياها عن مشرقنا العربي إلى درجة كبيرة! وأن نضمّ المؤلف إلى زُمرة الدُّعاة الذين حاولوا إيقاظ أوروپا لإعداد حملة صليبية جديدة لاسترجاع الأرض المقدّسة.

---

(1) راجع كتاب زيادة: روّاد الشّرق العربي، طبعة القاهرة 1943، ص 107.

(2) غير أن هناك شبهة في ذلك، والمرجّح أن ماندڤيل زار مصر في زمن الملك المظفّر حاجي 1346-1347 م / 747-748 هـ بدليل ذكره: Melechmadabron الذي كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد. والتسمية هذه تدلّ غالباً على المظفّر لا الأشرف.

(3) راجع كتاب الحروب الصّليبية لعزيز سوريال عطيّة: Atiya: *Crusades*, p. 162.

(4) الظاهر أن أخبار الهند وما إليها أخذها عن الرّاهب أوديريكو (ذكرناه فيما تقدّم)، ثم حشاها بالقصص المختلفة. راجع رحلات أوديريكو في طبعة Everyman's.

(5) يرى الباحث نيوتون أنه أخذ عن المؤرخين الرّومانيين پلينيوس وسولّينوس، عبر أعمال الأسقف الفرنسي ڤنسان دي بوڤيه Vincent de Beauvais. انظر:

Newton, P.: *Travels and Travellers in the Middle Ages*, London 1926, p. 160.

يبدأ ماندڤيل كتابه بذكر الطّريق من الغرب إلى القسطنطينية، مارّاً بألمانيا وهنغاريا وبلغاريا، ثم ينقلنا إلى القدس بطريقين: البرّي، مخترقاً آسيا الصّغرى مارّاً بنيقية. والبحري، ومراكزه رودُس وقبرص إلى صُور. ثم يتناول الطّرق المُوصلة من سوريا إلى مصر، ويحدّثنا عن المدن المصرية وعادات السّكّان وأخلاقهم، وقوّة المماليك الحربية[1].

وفي كتاب رحلات جون ماندڤيل وصفٌ ممتع لدمشق، التي زارها - كما يقول - أثناء حكم دولة المماليك البحرية، كما يبدو بأواخر بأيام السُّلطان النّاصر محمّد ابن قلاوون (1294 - 1341 م)، أو ربما بُعيده بقليل؟ وكانت دمشق تمرّ بأزهى عهودها خلال حكم نائب الشّام سيف الدّين تِنكِز[2]، فصارت في عهده من بعد القاهرة أرقى مدن الشّرق وأبهاها.

* * *

هذا ولم يُترجم من رحلات ماندڤيل إلى العربية أيّ شيء. ولقد رجعنا في ترجمتنا ودراستنا للنصّ إلى طبعة آرثر لايارد Arthur Layard الصّادرة عن دار نشر آپلتون Appleton بنيويورك عام 1901، وراجعتُها على طبعة رايت المذكورة أعلاه والصّادرة بلندن عام 1848، وطبعة جون آشتون John Ashton الصّادرة عن دار پيكرينغ أند چاتو Pickering & Chatto بلندن عام 1887، وطبعة داڤيد پرايس David Price الصّادرة عن دار مكميلان Mcmillan في نيويورك عام 1900.

ومؤخراً ظفرتُ في المكتبة الباڤاريّة الحكوميّة في ميونيخ بألمانيا Bayerische Staatsbibliothek بالرّجوع إلى نسخة نفيسة من الكتاب مزوّقة بنُقيشات بديعة منفذة على الخشب، وقد صدرت باللغة الألمانيّة مترجمة عن الفرنسيّة بقلم ميشيل ڤيلسر Michel Velser وطبعت بمدينة آوغسبورغ Augsburg عام 1481 م، وهي نادرة للغاية.

---

(1) راجع رحلته، نشرة رايت بلندن:
.Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 144

(2) اختتم عهده بإعدامه عام 740 هـ / 1340 م. ومن أجل المقارنة، راجع نصوص الرّحالين العربيين المعاصرين: ابن فضل الله العمري وابن بطّوطة الطّنجي.

في الختام، أشير إلى أنّ الانطباع الإجمالي الذي يخرج به القارئ هو أنّ ماندڤيل قد جمع في كتابه بين ثلاثة أمور: الأول السّفر بنفسه وكونه في بعض فصوله شاهد عيان، والثاني نقله عن مؤلفاته غيره من الرّحّالين الأوروبيين، والثالث جنوحه إلى تلفيق بعض الرّوايات الغريبة والمثيرة ليشدّ خيال القارئ. ويبدو الأمر الأول جليّاً عند ذكره لسلاطين مصر من المماليك، وخانات التّتار في غربي الصّين، وروايته حول حشيشيّة قلعة ألموت دون أن يسمّيها.

وستكون لنا عودة أكيدة إلى هذا الرّحّالة المهم والمثير للجدل، خاصة عندما نتناول رحلة رائدنا العربي الكبير أحمد بن فضلان إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة في عام 922 م، وكذلك لدى تقديم رحلات معاصر ماندڤيل الرّحّالة البندقي الكبير ماركو پولو في كتابه «المليون»، الذي أنجز ترجمته صديقي الباحث منذر نزهة عن أوسع طبعاته الإيطاليّة القديمة.

كان البحث في الكتاب صعباً، وضبط عباراته العتيقة وتسمياته الغريبة عملاً شاقاً أشبه ما يكون بالتّرحال مع المؤلف في مجاهله الوعرة. لكنني أعتقد أن الحصيلة تفي بالمطلوب إلى حدّ كافٍ، وقد بذلتُ ما أمكن من الجهد لتبيان غوامض النصّ في الحواشي.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 1 ديسمبر 2011

د. أحمد إيبش

* * *

المصادر:

خبايا الزّوايا من تاريخ صيدنايا، حبيب زيّات، 35، 62، 88.

روّاد الشّرق العربي، د. نقولا زيادة، 106-107.

Sir John Mandeville: *Voyages and Travels,* edited by Arthur Layard, D. Appleton & Co., New York 1901.

The Voiage and Travayle of Sir John Maundeville, Knight, edited, annotated and illustrated by John Ashton, Pickering & Chatto, London 1887.

Encyclopaedia Britannica, (Micropaedia), vol. VI, p. 559.

Grand Larousse Encyclopédique, tome 7.

Waters Bennett, Josephine: *The Rediscovery of Sir John Mandeville.*

Weber, S.H.: *Voyages and Travels in the Near East, etc.,* p. 19.

Wright, Thomas: *Early Travels in Palestine,* p. 190.

* * *

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والأسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الأسماء الفرنسيّة، أمّا في الأسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: chica, leche, mucho. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: Cesare, ciao, macinare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء الإنكليزيّة: چستر، چِڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحتچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3- أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: ڤوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، ويعرّبون لوحات الطرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كمبدئهم في تعريب أسماء: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: ڠ تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghibellini (غيبيلّيني). وهذا طبعاً في الأسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كيڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي

التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجي)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غيڤير)، وإن أرادوا رسم الأسماء الأجنبيّة لقوا في ذلك التباريح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراغون.

* * *

أما التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

Voyages and Travels

By

Sir John Mandeville

Edited by Arthur Layard

With a Critical and Biographical Introduction
by Jacques W. Redway

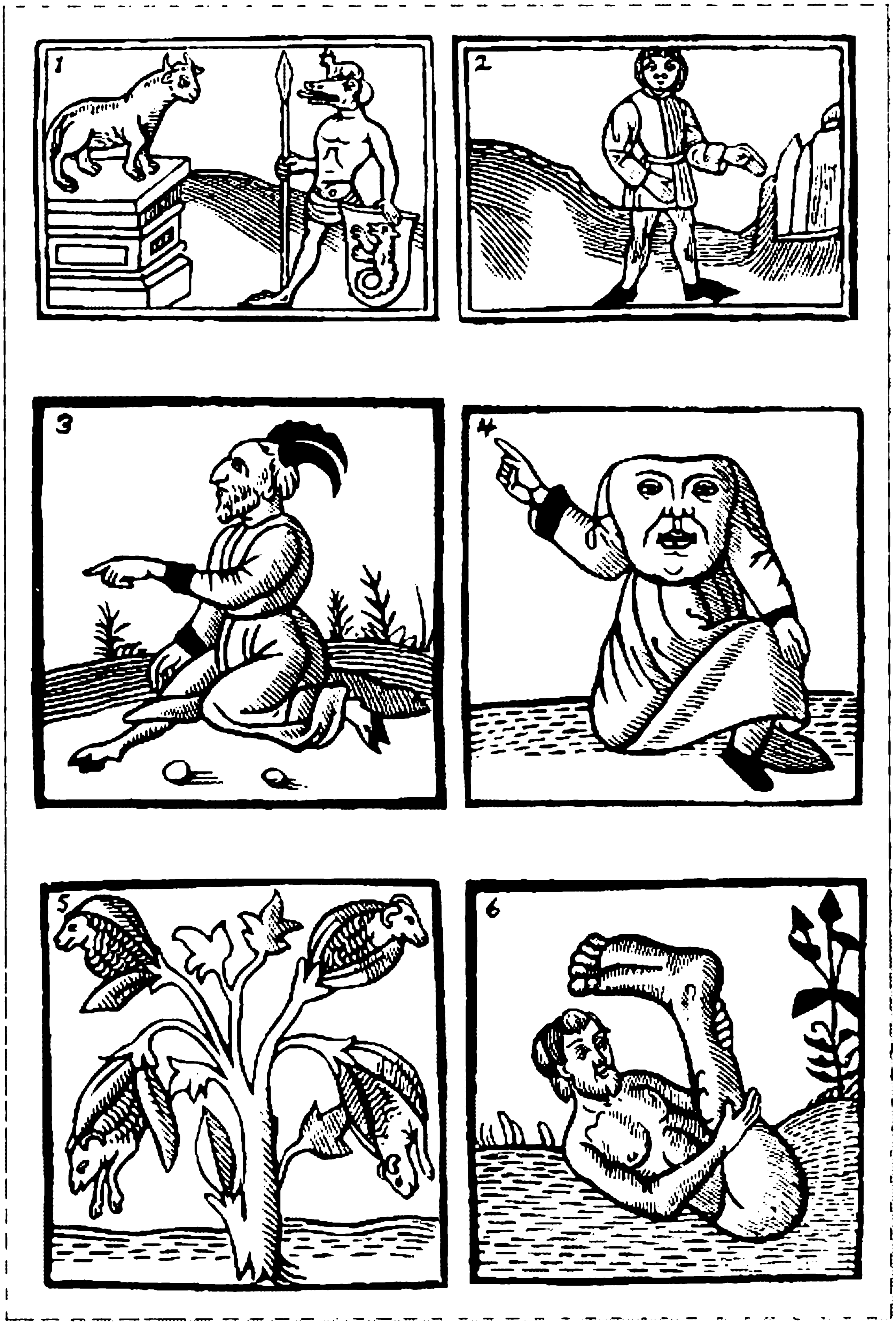
Illustrated

New York
D. Appleton and Company
1901

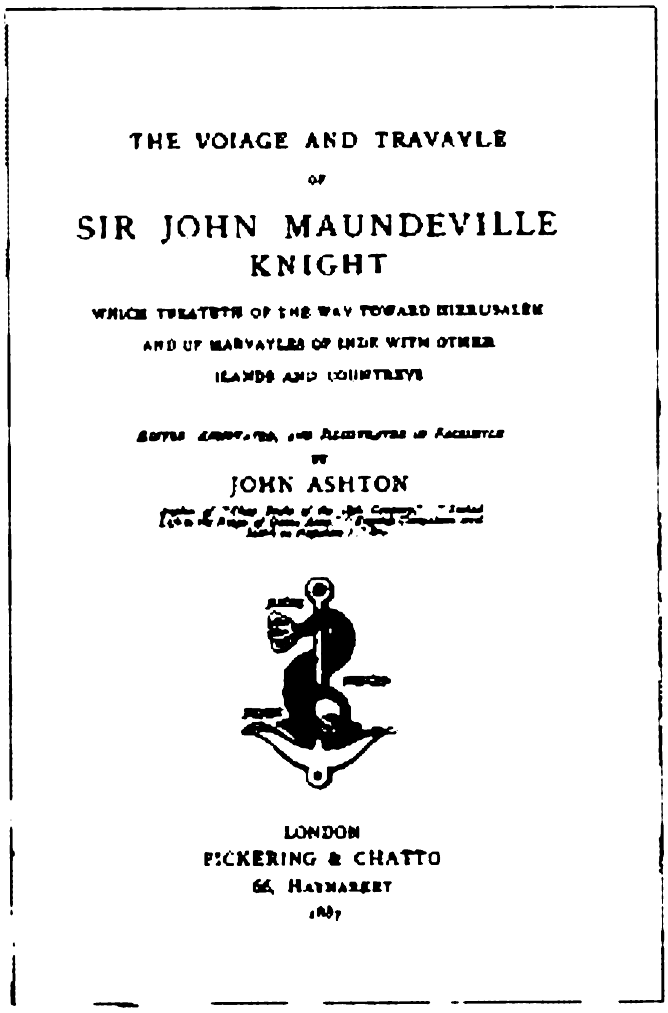
عنوان طبعة آبلتون، نيويورك 1901



رسم افتتاحية طبعة آبلتون، نيويورك 1901



بعض رسوم الكتاب من طبعة آبلتون، نيويورك 1901



THE VOIAGE AND TRAVAYLE

OF

SIR JOHN MAUNDEVILLE

KNIGHT

WHICH TREATETH OF THE WAY TOWARD HIERUSALEM

AND OF MARVAYLES OF INDE WITH OTHER

ILANDS AND COUNTREYS

JOHN ASHTON

LONDON

PICKERING & CHATTO

66, HAYMARKET

عنوان طبعة جون آشتون الصّادرة بلندن 1887



بعض رسوم طبعة جون آشتون



رسم يبيّن صناعة الزّجاج قديماً من طبعة فرنسيّة للرحلة، ليون 1508



الرّحالة السّير جون ماندفيل، رسم مؤرخ عام 1459 م



رسم من مخطوط لرحلات ماندڤيل يعود إلى القرن الرابع عشر

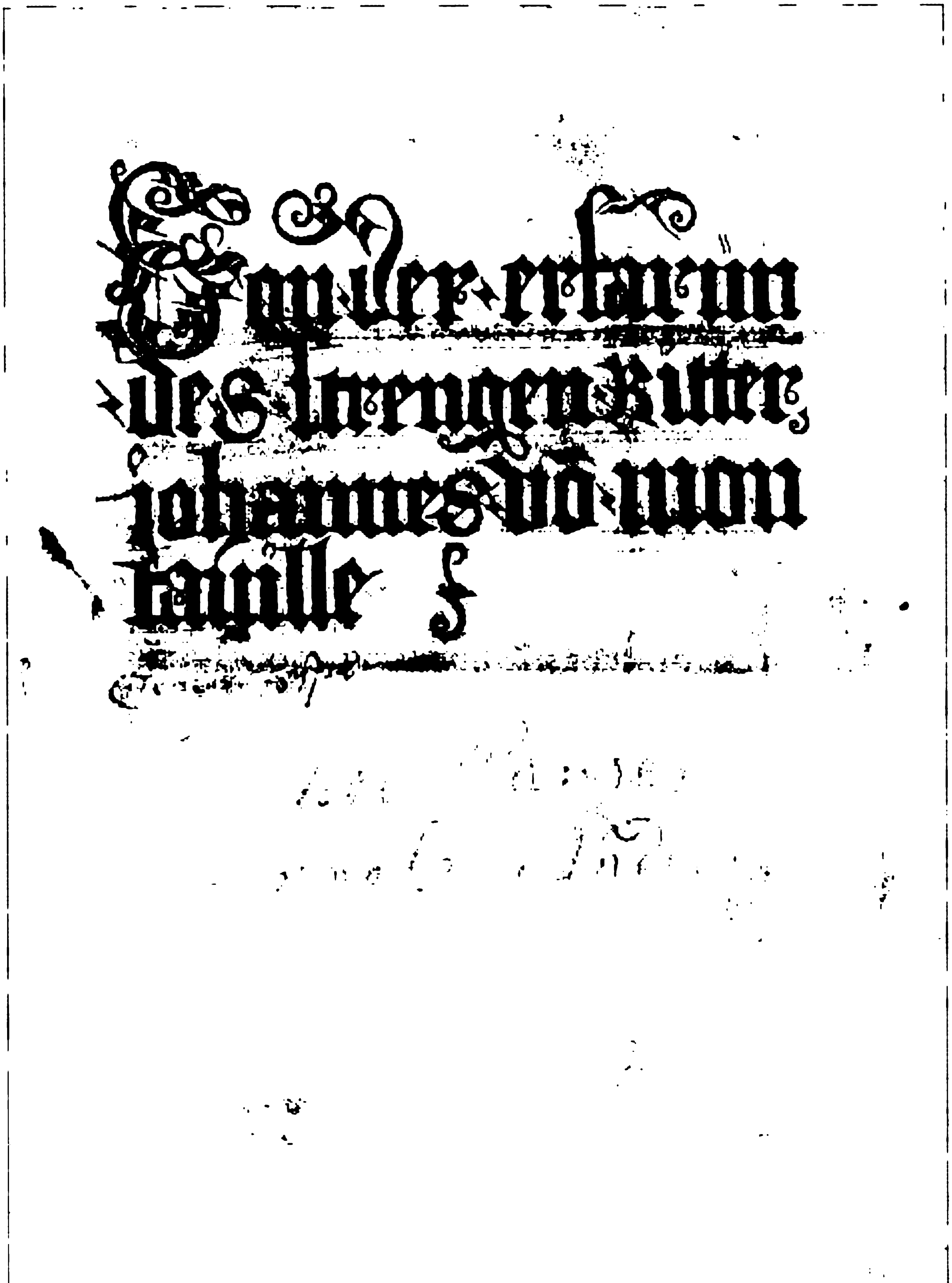


خارطة قديمة تبيّن حدود مملكة الملك الأسطوري يوحنّا الكاهن

(بريستر جون)، رسمها ماركيتي Marchetti عام 1598 م



انطلاقة ماندڤيل في رحلته، مخطوطة بالمتحف البريطاني رقم 24189



نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

Hie hebt sich an das büch des ritters her: hannsen von monte villa·

Ich Johanns von monte villa ritter geboren in Engellant in einer statt heÿßt sannt Alban. Für auß über mör do man zalt von Cristi geburt tausent drew hundert vnd zweÿvnddreÿssigtzig jar an sant Michels abent Vnd darnach pin ich gewesen über mör manig jar vnnd zeyt vnd pin vmbgefaren vñ hab gesehen manig wunderlich inseln· vñ manig wunderlich stat vñ künigreich· vnnd pin gefaren durch turggey durch armenia das groß vnd das klein.durch tartari·durch persia·durch syria durch arabia oben vñ vnden·durch libia·durch candia·durch ethiopia.das ist der moren land·durch amasones daz ist d̃ frawen land.durch kriechē·durch jnndia das groß vnd das klein·durch manig insel do manig wunderlich volck jnn wonet vñ manigē wunderlichen gelaubē habent als jr hernach werdent hörē Vnd von den lewten vnd inseln wil ich sagen wie sye gestalt seind nach dem als mir czewissen ist getan vnd ich von jnen vernōmen vnd gesehen hab·vnd das wil ich thün von der wegen die do habent müt die lannde zü versüchen vnd besunderlichen Iherusalem vnd die heÿligen stet die dar vmbligen· vnd wil in sagen welich weg sy ziehen söllen wan ich die fart oft versücht hab mit manigem güten gesellen des ich got danck/ vñ hab das büch in frantzosischer sprach gemacht/ darūb das nit ÿeder man teutsch verstet noch ÿeder man latein verstat.Vnnd ob etliche ding yetz vålent die ich hie sag darūb das sich nach langer zeit vil ding verkerent die vor langer zeit gewesen seind·Bit ich die leüt das sy das gerecht machen/ wān einer alle ding nicht als

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م



نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

altar/wann die selb stat was vormals der cristen dyē
habend die türcken yetz jnn vnd das gantz Asia · vnd
dauon ist wol halbes asia türcken genannt · Wissendt
auch dz sant Johannes d' ewāgelist machet sein grab
bey lebendigem leib vñ gieng lebendiger darein/dauon
maint man das er noch nit tod sey vnnd beleib piß an
den jungsten tag/vnd man sicht das erdtreich ob seinē
grab zitteren als ob sich etwas lebendigs darjñ rür · da
uon sich manig mensch wůndert dz es geschehen hat Dar
nach vert man von ephesi durch manig insel/so komt
man dann zů einer stat die heyßt patras/do ward sant
Niclaus geborē. darnach kompt man zů einer stat die
heyßt mirea · do ward er zů eine bischoff erwelt · Vnd
die selben stat wechßt als gůt wein als man in vinden
mag/vnnd den hayssent sy mach wein · Von der selben
stat kompt man in libia vñ komt zů einer stat die heis
set Tholas vnd eine heißt langedes/do was ypocras
herre jnn ·

¶ Von einer junckfrawen die wirt zů einē schlangen ·



¶ Man spricht daz
in d' insel langedes
sey noch ypocras
tochter in eines gros
sen tracken weyß d'
ist wol · xl · klaffter
lanng · als man do
saget. ich hab im a=
ber nit gesehen/ vñ
die in d' insel seind
die sprechent sy sey
fraw uber das selb
land/vñ ist in einer
alten purg vñ erzaigt sich zweymal od' dreymale in dē
jar · vñ thůt niemand kein laid · Vñ man spricht das
ein apgöttin die hieß Dyana hab sy dahin verflůcht

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م

Wie der soldan gebeüt in allem seinē land das
man all junckfrawen für in müß pringen vnd
auß den selbē erwelt er eine vñ gibt jr dē ring



Jr sölt wissen dz
der soldan hat vier
weib ein cristin vñ
drey heydnin. vnd
eine wonet zů Jhe
rusalem. vnd eine
zů damasg. allso
dz sy nit bey einan
der seind. vñ wenn
er wil so reit er zů
jnen. aber kebswei
ber vnd zůweiber
hatte er als vil er
wil. wann er gebeütet durch seine land das all junck-
frawen für in müssen kommen edel vnd vnedel. vnnd
welliche jm dann geuelt die heyst er jm dann behalten
vnd jr wol hütten in grossen eren. vnd wenn er eyne
wil haben do er bey wil schlaffen. so heist er sy all kom
men für in vnd beschauet sy / vnd welliche jm dañ ge-
uelt der würfft er ein fingerlin dar von seiner handt / so
fürt man sy bald in sein kamer vnd do badet man sye
vnd legt jr kostpere kleyder an. Vnd als offt der soldan
seiner schlafweiber eine wil haben der thůt er also als
ich yetz gesagt hab. Für den soldan getar nyemant kō
men er hab dann kostpere kleider von sammat võ gold
vnnd seyden oder in söllicher maß als die heyden do be
kleydet seind Vnd als bald sy den soldan sehent. er sey
an dem venster oder wo er ist so knyen sy gegen jm ny
der vnd küssen die erd / das ist jr gewonheit. vnnd das
müß ein yegklicher thůn der mit jm reden wil.

Hie wil ich sagen weñ frembd botten kōmen
zů dē soldan wie man mit plossen schwerten

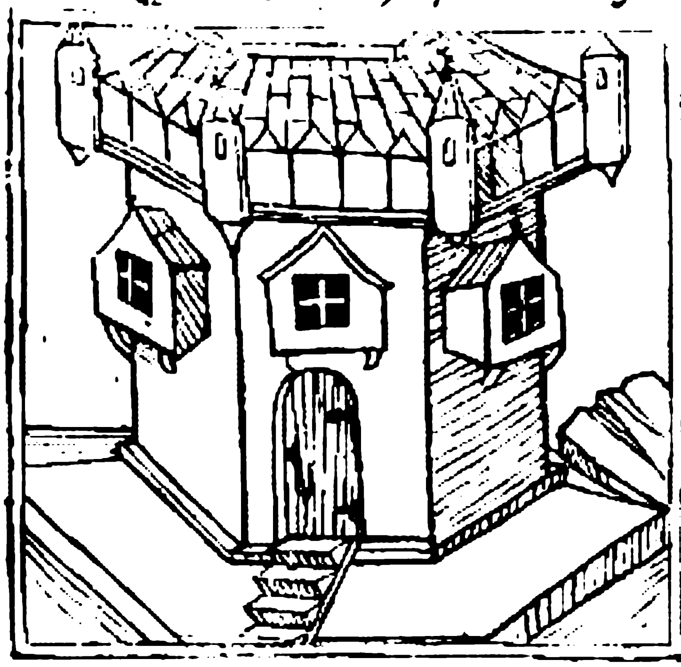
نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

ob dem botten stat. das er nichtz rede wider
jren gelauben oder wider den soldan.



¶ Jr söllet wissen
wenn frembd bot=
ten bei dem soldan
seind / die weyl sy
bei jm seind so stat
das volck das bey
dem soldan ist vm
in mit plossen sch=
werten / vñ hebent
die alle hoch ob d
bot nicht rede das
jm missuall das sy
in erschlagẽ. darnõ
rat ich einem yegklichen frembden das er witzig vnnd
weiß sey wenn er für in kumm vñ nichtz pit dañ das
zymlich sey vnd jm gevall. vnd besunderlichen das er
nicht rede das wider jren gelauben sey / vñ als ich euch
gesagt hab von dem soldan. also ist es auch võ den an/
dern künigen allen die enhalb des möres seind.

¶ Von dem hohen turen zů Babilonia.



¶ Seydt das ich
euch gesagt habe
von dem kleinẽ ba
biloni. nũ will ich
euch sagen võ dem
grossen babiloni.
do sich die sprache
verwandlotẽ als
gott wolte do sye
bawetten den gros/
sen thuren von ba
bel. Der turẽ ist in
der grossen wüste

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

dann gen kriechen an ein port die heyßt volonen oder
an ein port gen durns in die stat/vnd darnach gen Con
stantinopel vnd gen rodis·vnd durch ein insel die heis
set Greto vnd gen cippern·vnd also vert man auch von
venedig gen Constantinopel·Der aller rechtest vō ve·
nedig gen Constantinopel wil faren über möre so hat
er tausent achthundert vnd achtzig lampartischer mail
Von Constantinopel gen rodis ist hundert vnd drei
sig mail·Von rodis gen cippern ist fünffhundert meyl
vnd von cippern vert man denn über mör vnd laßt ihe
rusalem auff die glincken handt vnd vert in Egipten
vnd man kompt dann zü einer stat die heyßt damieth
do wachsent gar starck wein· vnnd ist die erst statt so
man in Egipten vert. Von damieth so vert man dann
gen allexandria vnd die stat ligt auff dem möre·

¶ Hie ist sant Katherina enthaupter worden.



¶ Zü Alexandria do ward sant Katherinen ir haupt abgeschlagen · vnd sanct Marcus der ewangelist d ward gemartert vnd begraben/seyn gebain prachte ein keyser über möre gen venedige · Sanctus Marcus hat zü alexandria eyn gar
schöne kirchen vnd die ist alle weyß vnd kein gemäl
darjnnen·als die kirchen all in der heydenschafft seind
wann sy lassend kein hystori in kein kirchen mit malen
Die stat zü allexandria ist on massen groß vnd langk
aber sy ist nit vast weyt/vnd do selben velt das wasser
nilus in dz mör·auch heyßt man das selb wasser gyon

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م

darjnn faren. darumb heyßt man es das rot möre· vnd
das möre stosset an arabia. Vnd von der stat die do hei
set Palestin mag man faren auff dem selben möre wol
vierhundert tagwaid. vnnd wenn man über das selbe
möre kompt das ist nit prait als ich euch vor gesagt
hab. So geet man durch die wüst biß an das tal helim
vnd dann auff den berg synai. Ir sölt wissen das nye-
mant mag geraysen durch die wüst mit pferdē. wann
die pferd vinden nichtz zů trincken noch zů essen vnnd
dauon mag man nit anders kummen durch die wüst
syna denn mit kemelthieren wann sy essend die rinden
von den bäumen vnd beliben wol zwen tag oder drey
vntruncken das mag kein roß nit gethůn·

¶ Sant Katherinen grab·



¶ Ir sölt wissen das von Babiloni vntz auff den berg synai seind zwelff tagwaid vnnd ist not das sich eyner bewar mit speyse· Den berg Synai heyssen sy die wü- ste von syna Sina ist als vil gespro- chen als eyn prin- nender berg· dar nō das vnser herr Moysi auff dem selbigen berg in eynem prinnenden pusch erschyne vnnd auch mit im redete· Ir sölt auch wissen dz vnden an dem berg ist ein aptey do seind münich jnn die seind gar vest vnd tragent all waffen von der wilden tier wegen wann der ist gar vil do· vñ die selben münich seind von arabia oder vō kric- chen vnd das ist ein grosser Conuent vnd seind als ob sy einsidel seyen· vnd trinckent nymer kein wein dann

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م

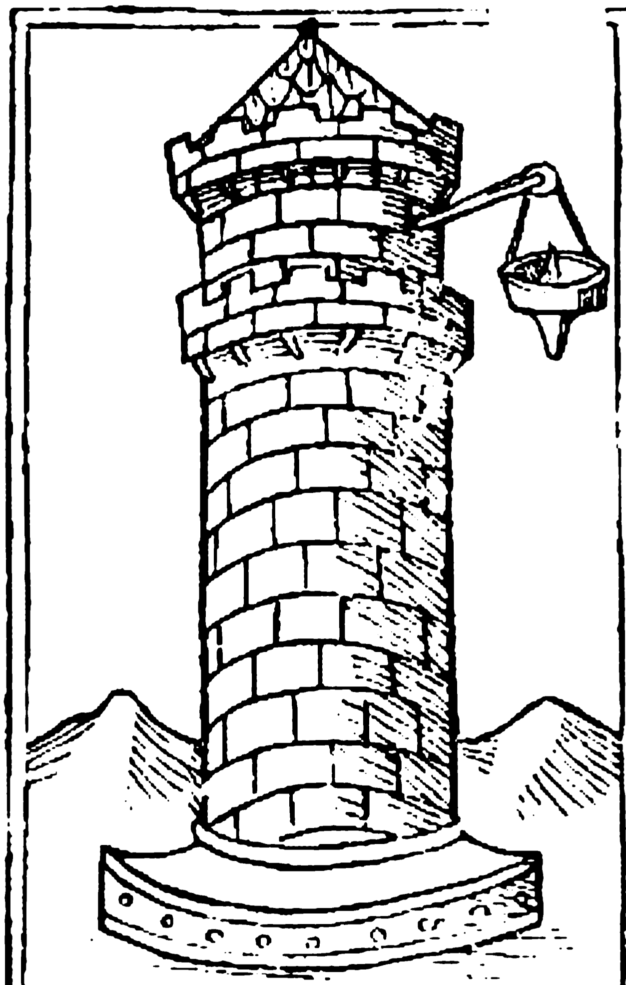


Darnach so zey
get er das haupte
von sant Katheri-
nen · vnd das tůch
das vmb sy gewū
den ward do jr daz
haupte warde ab-
geschlagen vñ das
ist aller ding plůt-
tig/ vnd in dem sel-
ben trůgen sye die
engel auff den berg
Synai vnd begrůbē
sy do · Darnach so zeyget man den pusch der do prant
do got mit moysi redt vnnd auch ander heyltumb · Jr
sölt wissen ein ander wunder als manger münch in dē
kloster ist als mange ampel ist do · vnd hat yegklicher
münich ein besundere ampel · vnnd darbey mügent sye
wissen wenn sy sterben söllen · wenn einer söl sterben so
vacht sein ampel an vinster ze werden / vñ wenn er stir
bet so erlischt sy gar · vñ wenn der apt do stirbt als ich
vernommē hab · wer das ampt do singet oder list nach
dem als er das ampt volpracht hat. so vindt er ein ge
schriben zedel auff dem altar · vnd in dem selben zedel so
vindt er geschriben des namen der do Apt vnder jnen
söll sein. vnd des selbē ampel entzündet sich selb vō den
genaden gots · vnd des geleichen einem yegklichen der
an ein ampt erwölt wirt · ist er des amptes wirdig so
entzündet sich die ampel selb. Jr sölt wissen das ich die
münch darūb fraget ob es also wär do woltē sy mirs
nit verjehen biß dz ich in für hůb vnsers herrn zeügk-
nuß wär wunderlich vñ mangerley · Als in dē psalter
stat · Mirabilia testimonia tua do mine · vñ do sprache
sy es wär geschehen · kein and antwurt mocht ich vō
jnen gehaben · Vnnd in der selben aptey so mag werder

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م

Iherusalem vndertänig gewesen·vnd der ist der vol-
ckes schuld die do waren vnd noch do seind·Es ist ge
wesen der juden vnnd der von chanaan. der von persia
der von syria·der von medi.der von bethania·der von
kriechen·der römer der cristen.der heyden. der barbari
en vñ vil volcks dz got wil dz sy lang herrn do sey
en von jr sünd wegē·Nun haben laider die vngelaubi
gen iherusalem jnn gehebt mer deñ hundert vñ zwein-
tzig jar·ich getraw aber got das sy es nit behebē·

Hie wil ich sagen von dem heyligen grab
wie es gestalt sey.vñ von etlichen zaichen
vñ wie das heylig grab gemacht sey.vñ
von einer prinnenden ampeln·



Item wer in pilge
rims weiß kommt gen
iherusalē der gert vō
ersten zů dem heyligē
grab dz ist vor d statt
zwischen orient vnd
occident auff die glin
ckē hand vñ ist schön
vmb mauret vnd ist
ein schöne simbele kir
ch vnnd ist mit pley
gedeckt vnd hat star
ck türen do man wol
glocken eyn möchte
hencken· in der selben
kirchen ist das heylig
grab· in der mitte do
ist ein tabernackel vñ
der ist mit weit vnnd
gar adenlich gmacht
mit silber vnd mit gold vnnd mit edlem gestein vnnd
lasur schon gemalet· Der tabernackel der ist eylff füß

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

auch vil des geschlechts zabulon vnd neptalim. dreis/
sig leg von saphat da ist ein stat die heyst cdan. etlich
die heyssent sy selm an vñ lygt vnder dem berg libano
vñ do selbs hebt sich an dz globt land vñ weret nach
der leng biß gen japha bersabe vnnd yst hundert vnnd
neünczig leg lang nach der prait von jericho byß gen
japha das ist xl. leg prait ein leg ist ei wälsche meil. dz
heylig land heyst die geschrifft terra promissionis vñ
das ist in dem künigreich von syria das wert von der
wüste von arabia vncz biß gen iberia vnnd stoßt an
das groß armenia vñ an dz grösser mörc. Das künig
reich von syria das hatt vyl künigreich vnder jm. es
hatt palestin. galilea vnd iudea vnd andere land einē
grossen teyl

¶ In dem land ist gewonheyt dz man taubē schick
et mit prieffen in botes weiß in verre land



¶ In dem land als
ich vecz gesagt hab
so yst gewonheyte
wann sy bald bott
schaft wöllent ha/
ben so habē sy tau/
ben die seind gewe
net vnd seind dar/
zů erzogen vnd ge
fürt. so schreibent
sy dann prief vnd
bindent die mit ein
em faden der taubē
an den halß vnd lassent sy fliegē vnd weñ sy dañ dört
hinkömpt so man des priefs gewar wirdt so nachet
man dann die tauben vnd vernympt die botschafte.

¶ Von der heyden beicht

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1481 م

Hie hebt sich an das půch des Ritters
herr Hannsen von Monte Villa·

ICh Johannes de monte Villa Ritter ge
poren in Engellant·jn einer Stat heysset
sant Alban·Für auß über mere·Do mã
zalt von Cristi gepurt/Tausent dreyhũ-
dert vnnd zweyundzweinczig jare an
sant Michels abent·Vnnd darnach pin
ich gewesen über mer manig jare vnnd
zeit·vnd pin vmbfaren vnd hab gesehen manig wunder
lich inseln·vñ manig wunderlich stat vñ künigreich·vñ
bin gefaren durch türgen durch Armenia·das groß vnd
dz klein·durch Tartari·durch Persia·durch Syria·durch
Arabia oben vñ vnten durch libia·durch Candia·durch
Ethiopia·das ist der moren landt·durch Amasones·daz
ist der frauen landt·durch kriechen·durch india·daz groß
vnnd daz klein/durch manig insel do manig wunderlich
volck innen wonet·vnd manigen wunderlichen gelaubẽ
habent·als ir hernach werdent hören··vnd von den leütẽ
vnnd inseln wil ich sagen wie sy gestalt seind·nach dẽ alz
mir ze wissen ist gethan·vnd ich von jnen vernõmen vnd
gesehen hab·vnd das wil ich thůn von der wegen dye do
můt haben die landt zů ersůchen vnd besunderlichen Jhe-
rusalem vnd dye heyligen stet·die darumb ligen·vnd wil
in sagen welch weg sy ziehen söllen/wann ich die fart oft
versůcht hab mit manigem gůten gesellẽ·des ich got dan
ke·vnd hab daz půch in franzosiger sprach gemacht·dar
umb das mit yedermã teütsch redet noch yederman latey
versteet·Vnnd ob etliche ding yecz felen die ich hye sage
darumb das sich nach langer zeit vil ding verkeren·dye
vor langer zeit gewesen seind·Bit ich die leüt das sy das
gerecht machen·wann einer alle ding nicht als eben gedẽ
ckẽ mag als es villeicht an im selbs ist·darumb straf mich
einer nach dem er vermaint recht zů haben·

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة أوغسبورغ عام 1482 م

مقدمة المؤلف(1)

من بين جميع الأراضي ما وراء البحار، لا شك أن الأراضي المقدّسة، التي يسمّيها النّـاس أرض الميعـاد، وبما يفوق جميـع الأراضي الأخرى، هي الأرض الأكثر شـأناً وقيمة، وذات السّـيادة الرّفيعة بين جميع البلدان، والمباركة والمقدّسـة بجسـد سـيّدنا يسوع المسيح ودمه الثّمينين؛ هذه الأرض التي قُدّر له فيها أن يتجسّد باللحم والدّم من مريم العذراء، ويطأ الأراضي المقدّسة بقدميه المباركتين؛ وهناك قُدّر له ببركته أن يولد مـن مريم العذراء المجيدة المباركة، وأن يغدو إنسـاناً، ويفعل العديد من المعجزات، ويعـظ ويعلّـم الدّين وشـريعة المسـيحيين لأبنائه، وهناك قُـدّر له أن يعانـي من الكثير مـن التجـارب والازدراء من أجلنا؛ ومَن كان ملك السّـماء، والهـواء والأرض والبحر وجميع الأشـياء التي توجد ضمنها، سـوف يُسمّى فقط ملك تلك الأرض، عندما قال: *Rex sum Judeorum*، أي ما معناه: «أنا ملك اليهود»، وهذه الأرض اختارها قبل كل الأراضي الأخرى، على اعتبارها الأرض الأفضل والأرفع شأناً، وأكثر الأراضي فضلاً في العالم أجمع: ذلك لأنها بمثابة القلب ووسط كل العالم، فتقف شاهدة على مقولة الفيلسوف الذي قال: *Virtus rerum in medio consistit* وهذا يعني: «أفضل الأشياء إنما يكمن في وسطها».

وفـي تلك الأرض سـوف يعيش حياتـه، ويعاني مـن العذاب والمـوت على أيدي اليهـود، مـن أجلنا نحن، لشـرائنا وتخليصنا مـن آلام الجحيم، ومن المـوت المخلّد،

(1) قمتُ بترجمة مقدمة ماندفيل هذه، إذ فات المترجمين تعريبها سهواً. وألفت الانتباه إلى أن ذكره لتاريخ انطلاقه في عام 1322 م يقابله في خاتمة كتابه ذكر تدوينه لأحداث الرّحلة في عام 1356 م، وإن كان لم يذكر تاريخ توقفه عن الترحال.

الـذي كان مقـدّراً علينا، عن خطيئة أبينـا آدم، وعن ذنوبنا نحن أيضا. وأما بالنسـبة إليه هو، فلم يكن لديه أيّ إثم يُذكر، لأنه لم يفكّر بالشّر ولا اقترف شيئاً من الشّر أبداً. وهو الـذي كان ملـك المجد والفرح، قد يكون من الحريّ أن يلاقي الموت في هذا المكان بالذات، لأنه اختار في تلك الأرض وليس في أيّ أرض أخرى، أن يعاني آلامه وموته. وذلـك لأن مَـن يذيع أي شـيء ليجعلـه معروفاً علنـاً، فعليه أن يصيح بـه على رؤوس الأشـهاد في المكان الأوسـط من المدينة؛ بحيث ينتشر الشّـيء المُصرّح به والمُعلن، بشـكل متساوٍ على جميع الجهات. وهكذا فإنّ مَن كان يشغل منصب العالم، قد عانى من أجلنا في القدس، التي هي وسـط العالم، لهـذه الغاية والقصد، وحتى يكون عذابه وموته، اللذان أُعلنا هناك، قد ذاع خبرهما بشكل متساوٍ في جميع أنحاء العالم.

فانظروا الآن، كم كان غالياً الثمن الذي به اشترى الإنسان، الذي صُنع على صورته، وكم كان غالياً الثمن الذي به اشـترانا مرة أخرى، من أجل الحب الكبير الذي يكنّه لنا، ونحن لا نستحقه منه. حيث أنه ليس ثمّة مُلك أغلى ولا فدية أكبر كان يمكن له بذلهما من أجلنا، من جسـده المبارك ودمه الثّمين، وحياته المقدّسـة، اللواتي بذلها من أجلنا، وكلّ ما قدّمه لنا لم يقترف ذنباً ولا خطيئة على الإطلاق.

يا سُبحان الله! يا له من حبّ كان لديه تجاهنا نحن رعاياه، فإنه هو الذي لم يأتِ إثماً قـد بـادر من أجل الخاطئين إلى الموت! ولذا ينبغي لنا أيضا لوجه المحبّة والعبادة، أن نخشى ونعبد مثل هذا الرّب وأنّ نجل ونوقّر مثل هذه الأراضي المقدّسة، التي أنجبت هذه الثّمرة، التي من خلال تم خلاص كل إنسان، ولكن على أن يكون ذلك دأبه. ومن الجديـر أيضـا بتلـك الأرض أن تُدعى أرضاً طيّبـة ومثمرة، وقد جُبلـت وخُضّبت بدم المسـيح الغالـي؛ وهـي الأرض ذاتها التي وعدنـا ربنا بها في العهـد القديم. وفي تلك الأرض سوف يموت الفادي، كما هو مُقدّر، ليتركها لنا نحن أبناءه.

ولهـذا السّـبب ينبغي لكل رجل مسـيحي صالح، إن كان ذا سـلطة واقتـدار، ولديه موارد، فعليه أن يبذل كلّ قواه لاسترداد تراثنا الحق، وطرد جميع الرّجال غير المؤمنين. وذلك لنكون مسـيحيين أحقاء، نسبة إلى أبينا المسيح. وإذا كنا حقاً أبناء المسيح، فعلينا

استرجاع التراث الذي تركه لنا أبونا، وانتزاعه من أيدي الوثنيين. ولكن نوازع الكبرياء، والشهوات، والحسد، تلهب الآن كثيراً قلوب حكّام العالم، لدرجة أنهم أكثر انشغالاً في الطمع بميراث جيرانهم، من بذل الجهود لاسترجاع تراثهم المذكور آنفاً. وعامة النّاس، الذين من شأنهم أن يبذلوا نفوسهم وما يملكون لاسترداد تراثنا، قد لا يفعلون ذلك من دون الحكّام. وإنّ جمعاً من النّاس من غير زعيم أو رئيس حاكم، لهو أشبه بقطيع من الغنم بلا راعٍ؛ وإن انطلق لتفرّق شذر مذر بلا طائل. ولكن إن شاء الله، يبادر الحكّام الزّمنيون والدّنيويون إلى الاتفاق، وبركابهم يمضي عامّة النّاس في هذه الرّحلة المقدّسة عبر البحر! وساعتها فأنا واثق أنه في غضون وقت قصير يتمّ لنا استرداد ميراثنا المذكور، ويوضع في أيدي ورثة المسيح الأحقاء.

وبقدر ما مضى من زمن طويل لم يجرِ فيه عبور عام للبحر ولا رحلة، ولكثرة الرّجال الرّاغبين في الاستماع إلى الحديث عن الأرض المقدّسة، وما فيه من كبير عزاء وراحة للصّدور، فإنني أنا، جون ماندڤيل الفارس، وقد لا أكون جديراً، المولود في إنكلترا، في بلدة سانت ألبانز، قد ركبتُ البحر في سنة 1322 للمسيح، في يوم القدّيس ميخائيل، ومنذ ذلك الحين مضى عليّ وقت طويل في البحر، وقد رأيتُ وعبرتُ بلاداً مختلفةً كثيرة، وعديداً من الأقاليم والممالك والجزر واجتزتُ في جميع أنحاء تركية، وأرمينيا الصّغرى والكبرى، واجتزتُ بلاد التّتار، وفارس، وسوريا، وجزيرة العرب، ومصر العليا والدّنيا، وعبر ليبيا وبلاد الكلدان، وجزءاً كبيراً من أمازونيا والهند الصّغرى والكبرى، بأجزاء كبيرة منها، وعبر العديد من الجزر حول الهند؛ حيث تقطن شعوب متباينة كثيرة، تختلف في أعرافها وعاداتها وأشكالها البشرية. وعن هذه البلدان والجزر سأتكلم بجلاء فيما يلي أدناه، وأقدّم لكم نبذاً عن الاشياء التي توجد هناك، في حينها، كما ترد قدر الإمكان في ذاكرتي. وخاصة بالنسبة لمَن ينوون الآن أو في المستقبل زيارة مدينة القدس الشّريف والأماكن المقدّسة التي حولها. وسأذكر الطّرق التي ينبغي سلوكها هناك. إذ أنني مراراً ما اجتزتُ وعبرتُ بتلك الجهة، مع صحبة طيبة لعديد من الأمراء، ولله الحمد!

وستدركون أنني قد نقلتُ هذا الكتاب من اللاتينية إلى الفرنسية، ثم منها إلى الإنكليزية، ليفهمه كل فرد من بني قومي. وليتمكن كل سيّد وفارس وغيرهم من النّبلاء الذين لا يعرفون إلا القليل من اللاتينية من فهمه. وإذا أوقعني ضعف الذّاكرة في خطأ، استطاع كلّ الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يعدّلوا ذلك. وذلك لأنّ الأشياء التي يمرّ عليها وقت طويل بعيداً عن عقل الإنسان أو بصره، يكون مصيرها أن تتلاشى في غياهب النّسيان، هذا لأنّ عقل الإنسان لا يمكن الحفاظ عليه ولا بقاؤه إلى ختام حياة البشرية.

* * *

الفصل الأول

لتعليمكم الطّريق للذهاب من إنكلترا إلى القسطنطينيّة

باسم الله المجيد والقادر!

هذا الطّريق الذي يعبر فوق البرّ والبحر (ويذهب الى مدينة القدس، من الممكن أن يسلك عدة طرق على البحر وعلى البرّ)، وفقاً للبلد الذي يأتي منه، والكثير منها تنتهي في مكان واحد، ولكني لن أذكر كل أسماء المدن أو القلاع التي سيمرّ بها الرّجال، لكي لا أجعل الحكاية طويلة جداً، باستثناء بعض البلاد والأماكن المهمة التي سيعبرها الرّجال على الطّريق الصّحيحة.

أولاً: إذا جاء أحدٌ من غرب العالم مثل إنكلترا أو ويلز أو إيرلندا أو اسكتلندا أو النّروج، فمن الممكن أن يعبر ألمانيا وعبر مملكة هنغاريا التي تصل إلى أرض پولاين Polayne وإلى أرض پانونيا Pannonia وصولاً الى سيليسيا Silesia.

وملك هنغاريا العظيم والقوي يملك الكثير من الأراضي التي من ضمنها مملكة هنغاريا، وسكلاڤونيا وجزء كبير من كومونيا وأيضاً بلغاريا التي يدعوها النّاس أرض البورجير Bourgiers وأيضاً جزء كبير من مملكة روسيا حيث أسّس دوقيّة تمتد حتى أرض نيفلاند Nyfland وصولاً إلى پروسيا.

يمرّ الرّجال عبر أراضي هذا العاهل مروراً بمدينة تدعى سيپرون Cypron ومروراً بقلعة نيسبورغ Neasburghe وبالمدينة الرّديئة التي تقع على نهاية حدود هنغاريا،

ويمرّ الرّجال أيضاً بنهر الدّانوب العظيم الذي يذهب إلى ألمانيا تحت هضاب لومبارديا والذي يردفه أربعون نهراً أخرى. يقطع هنغاريا ويعبر اليونان من خلال تراقيا ويصب شرقاً في البحر بشكل عنيف وضيق، بحيث يكون ماء البحر عذباً ويحتفظ بهذه العذوبة بحدود عشرين ميلاً داخل البحر.

وبعد ذلك يجتاز الرّجال ببلغراد ومن ثم بأرض البورجير ويعبرون فوق الجسر الحجري المشيّد على نهر ماروك Marrok.

كذلك يمرّ الرّجال بأرض پينسمارتز Pyncemartz وصولاً إلى مدينة Nye في اليونان ومن ثم إلى مدينة فينپاپ Fynepape، وبعد ذلك إلى مدينة داندرينوبل Dandrenoble ومن ثم إلى القسطنطينية التي كانت تدعى بيزانزون Bezanzon، حيث يعيش إمبراطور اليونان. حيث توجد كنيسة القدّيسة صوفيا، وهي من أكثر الكنائس نُبلاً وجمالاً في العالم.

وأمام هذه الكنيسة توجد صورة الإمبراطور جوستنيان المغطاة بالذهب وهو يمتطي فرساً متوّجاً. والمفترض أن يحمل في يده تفاحة ذهبية ولكنها قد سقطت منه.

يقول النّاس هنا إنها عبارة عن رمز فقدان الإمبراطور لجزء كبير من أرضه وملكه، حيث أنه كان إمبراطور رومانيا واليونان وكل آسيا الصّغرى وأيضاً أرض سوريا وبريّة اليهوديّة التي فيها القدس وأيضاً أرض مصر وفارس وجزيرة العرب، ولكنه فقد كل شيء عدا اليونان. ولقد وضع الرّجال التفاحة على يد الصّورة عدة مرات لكنها لم تثبت. هذه التفاحة تدلّ على ملكيته القديمة حول العالم الذي له شكل دائري، وفي يده الأخرى المرفوعة نحو الغرب، ترمز إلى التهديد لسوء التصرف. هذه الصّورة توجد فوق عمود من المرمر في القسطنطينيّة.

* * *

الفصل الثّاني

عن صليب وتاج سيّدنا المسيح

في القسطنطينية يوجد صليب سيّدنا المسيح ورداؤه الذي بغير خياطات والذي يسمّى *Tunica inconsutilis* والإسفنجة والقصبة اللتين استخدمه اليهود ليذيقوا مخلّصنا أنواع العذاب والمرارة على الصّليب. كما ويوجد واحد من المسامير التي ثُبّت بها المسيح على الصّليب.

يعتقد بعض النّاس أن نصف الصّليب الذي صُلب عليه المسيح موجود في قبرص، في دير للرهبان، على هضبة يدعونها هضبة الصّليب المقدّس، ولكن الأمر ليس كذلك، فالصّليب الموجود في قبرص ليس إلا الصّليب الذي عُلّق عليه ديسماس Dismas. ولكن لا أحد يعلم بذلك، إنما بنيّة سيئة تمّ الإدعاء بأن هذا هو صليب المسيح لجمع التبرعات والهبات.

من المهم أن تعرفوا بأن صليب مخلّصنا كان مصنوعاً من أربعة أنواع من الأشجار، كما هو وارد في هذه الآية:

In cruce fit palma, cedrus, cypressus, oliva.

فلتلك القطعة التي كانت متجهة مباشرة من الأرض إلى الأعلى كانت من السّرو، والقطعة التي كانت بالاتجاه المعاكس، والتي كانت يداه مسمّرتين عليها كانت من النّخيل، والجذع المنصوب في الأرض كان من شجر الأرز، والقطعة التي كان طولها

قدماً ونصف فوق رأسـه والتي كتب عليها بالعبريّة واليونانيّة واللاتينيّة كانت مصنوعة من خشب الزّيتون.

فاليهـود صنعـوا الصّليب من أنواع الشّـجر الأربعة هذه، لأنهم كانـوا يعتقدون بأن سـيّدنا المسـيح كان يجب أن يبقى معلقاً على الصّليب بقدر ما بقي الصّليب موجوداً، ولذلـك صنعـوا قاعدة الصّليب مـن الأرز، لأن الأرز لا يتعفن بسـهولة بوجود التراب والماء ولهذا كان ينبغي أن يبقى طويلاً، ولأنهم أرادوا أن يتفسّـخ جسـد المسـيح على الصّليـب فقد صنعوا القطعة من الخشـب المتجهة من الأرض إلى الأعلى من السّـرو وذلـك لكـي لا تفوح رائحة جسـده ويحـزن النّاس المـارّون بالقرب منه، أمـا القطعة المتجهـة بالاتجـاه المعاكس فكانت مصنوعة مـن النّخيل لأنه كان مذكـوراً في العهد القديم أنه عندما يحقق أحد النّصر يتم تتويجه بالنخيل، وبما أنهم كانوا يعتقدون بأنهم قد انتصروا على السّيد المسيح فقد قرّروا أن يجعلوا هذه القطعة من النّخيل، والقطعة التي كانت فوق رأسه كانت مصنوعة من خشب الزّيتون لأن الزّيتون يدلّ على السّلام، وكمـا في قصة نـوح عندما أتت الحمامـة بغصن زيتون كان هذا يدل على السّـلام بين الرّب والإنسـان، وكذلك اعتقدوا بأن يحل السّلام عند موت المسيح، لأنهم قالوا بأنه جعل الفتنة والاقتتال فيما بينهم.

كما يجب أن تعلموا بأنه عندما ثُبّت المسيح على الصّليب كان الصّليب ممدّداً على الأرض، ولهذا عانى أقسى أنواع العذاب.

والناس المسـيحيون في اليونان الذين يسـكنون ما وراء البحر، يقولون بأن شـجرة الصّليب التي ندعوها شـجرة السّـرو كانت نفس الشّجرة التي أكل آدم منها التفاحة من قبـل، كمـا أنهم كانوا يقولون بأنـه مكتوب عندهم أن آدم كان مريضاً وقال لابنه شـيث Seth بأنـه يجب أن يذهـب إلى ملاك الجنة ويجلـب من عنده زيت الرّحمة، ليمسـح به أعضـاء جسـده، حيث مـن الممكن أن يجلب لـه الصّحة، وبالفعل ذهب شـيث، لكن الملاك لـم يسمح له بالدخول وقال له إنه ليس لديه من زيت الرّحمة هذا، ولكنه أعطاه ثـلاث بـذور من نفس الشّـجرة التـي أكل أبوه منهـا التفاحة، وطلب منـه أن يضع هذه

البـذور الثّـلاث تحت لسـان أبيه فـور وفاته ثم يدفنـه، وعندما يفعل سـتخرج من هذه البذور الثّلاث شجرة وتطرح ثمرة مثل التي كان على آدم أن يحافظ عليها.

وعندمـا عاد شـيث Seth إلى والده وجده على وشـك المـوت، وعندما مات فعل تمامـاً كمـا قال له الملاك، ومن هذه الشـجرات الثّلاث التي نبتت كان الخشـب الذي صُنع منه الصّليب، والتي هي نفسـها كانت قد طرحت الثّمرة الطّيبة والمباركة وسـيّدنا يسـوع المسيح، التي كان يجب على آدم وعلى كل النّاس المنحدرين منه أن يحافظوا على هذه الثّمرات من رهبة الموت وإلى الأبد، ولكنها كانت غلطتهم.

وقد أخفى اليهود هذا الصّليب المقدّس في الأرض، تحت صخرة من جبل الجُلجُلة Calvary علـى مـا يزيد عـن المئتي عام، حتى زمن القدّيسـة هيلينا، التـي كانت والدة إمبراطور روما قسـطنيطين، وابنة الملك Coel، الذي ولد في كلوچستر Colchester وكان ملـك إنكلتـرا التي كانت تدعـى بريطانيا العظمى، وكان الإمبراطور كونسـتانس Constance قـد اقتـرن بزوجته لجمالهـا، وأنجب منها قسـطنطين، والذي أصبح فيما بعد إمبراطور روما وملك إنكلترا.

كمـا يجـب أن تعلموا بأن صليب سـيّدنا المسـيح كان طوله ثمانيـة أذرع، والقطعة العرضيـة كان طولهـا ثلاثة أذرع ونصف، وأن جزءاً من تاج سـيّدنا المسـيح الذي كان قد توّج به ومسمار من المسـامير ورأس الحربة والعديد من الآثار الأخرى موجودة في فرنسا في معبد الملك، وقد وضع هذا التاج في وعاء فاخر من الكريستال.

وكانت هذه الآثار قد ابتيعت في وقت مضى من اليهود من قبل ملك فرنسـا، حيث استبدلها آنذاك الإمبراطور بمبلغ كبير من الفضة.

وإذا كان الأمر كمـا يقول النّاس بأن هـذا التاج كان مصنوعاً من الشّـوك فيجب أن تعرفـوا بأنـه كان مصنوعاً مـن مخلّفات البحـر، وهي الأغصان التي تندفـع من البحر، والتـي تنخـز تماماً كالأشـواك، ذلك لأني كنت قـد رأيت جزئي التاج هـذا عدة مرات فـي پاريس والقسـطنطينيّة، حيث كانا في الماضي يشـكلان قطعة واحـدة صُنعت من

مخلفات البحر.

ولكن النّاس قسموها إلى جزئين أحدهما في باريس والثّاني في القسطنطينية، وعندي واحدة من هذه الأشواك الثّمينة التي تبدو كشوكة بيضاء وقد أعطيت لي سابقاً وهي باقتنائي لها جعلتني أتميّز تميزاً كبيراً، حيث أنه لم يعد العديد منها سليماً، فأغلب هذه الأشواك كانت قد كُسرت ورست في أسفل الإناء بسبب الجفاف ولأنهم كانوا يحركونها ليعرضوها على اللوردات والأمراء الذين يأتون إلى هناك.

وسوف تعرفون بأن سيّدنا المسيح في تلك الليلة التي أُخذ فيها كان قد اقتيد إلى حديقة وهناك عُذِّب لأول مرة بشدّة، وهناك سخر منه اليهود وجعلوا له تاجاً من أغصان عوسج albespine التي فيها أشواك بيضاء كانت قد نمت في نفس الحديقة، ووضعوها فوق رأسه، بشكل ضيّق وقاسي، وبسببها جرى الدم على أماكن عديدة في وجهه ورقبته وكتفيه، ولذلك لهذه الشّوكة البيضاء الكثير من الفضائل لأنه حملها على رأسه، فلا رعد ولا أي نوع من العواصف يمكن أن تؤذي البيت التي تكون فيه، ولا حتى من الممكن أن تدخل الى المكان التي هي فيه. وبنفس الحديقة أنكر القدّيس بطرس سيّدنا ثلاث مرات.

وبعدها ومن هنالك اقتيد سيّدنا أمام الأساقفة وأسياد الأمر إلى حديقة أخرى Annas وهناك حُكِم وشُتم وازدري وتُوّج بالشوكة الجميلة، التي يسميها النّاس barbarines والتي كانت قد نمت في تلك الحديقة، ولها الكثير من الفضائل أيضاً.

وبعد ذلك كان قد اقتيد الى حديقة قيافا Caiphas وهناك تُوِّج بالشوك eglantine.

وبعدها اقتيد الى غرفة بيلاطس Pilate وهناك حُكم وتوِّج، ثم أجلسه اليهود على كرسي وألبسوه قطعة قماش وهناك صنعوا له تاجاً من مخلّفات البحر، وهناك ركعوا له بسخرية قائلين:

Ave, Rex Judeorum!

وهذا يعني: السّلام يا ملك اليهود!

وهـذا هـو التاج الذي نصفه فـي پاريس ونصفه الآخـر في القسـطنطينية وهو التاج الذي كان على رأس سيّدنا المسيح عندما عُلّق على الصّليب، ولهذا وَجَب على النّاس أن يقدِّسوه ويحافظوا عليه دون أي شيء من الأشياء الأخرى.

أما الرّمح فيمتلكه إمبراطور ألمانيا ولكن سِنانه في پاريس، بالرغم من أن إمبراطور القسـطنطينية قال بأنه يمتلك سِنان الرّمح، وقد رأيتُه عدّة مرات ولكن الذي في پاريس أكبر.

* * *

الفصل الثّالث

عن مدينة القسطنطينيّة وعن إيمان شعب اليونان

في القسطنطينيّة ترقد القدّيسة حنّة والدة السّيدة العذراء، وقد جلبت جثمانها القدّيسة هيلينا من القدس. وهناك يرقد أيضاً جثمان يوحنّا فم الذّهب John Chrisostome الذي كان بطريرك القسطنطينيّة، وهناك أيضاً يرقد القدّيس لوقا الإنجيلي the Evangelist الذي جُلِبت عظامه من بيت عَنيا Bethany حيث كان دُفن. وكثير من الرّفات كان موجوداً هناك، كما يوجد إناء من حجر وكأنه كان من الرّخام حيث يسمّيه النّاس enydros وهو ينقط ماء دائماً ويعبئ نفسه كل عام حتى يمتلئ تماماً ويفيض دون أن يأخذ النّاس منه أبداً.

والقسطنطينية مدينة جميلة ومليئة ومسورة بشكل جيد جداً من جوانبها الثّلاثة، كما يوجد فيها امتداد من بحر Hellespont وبعض النّاس يسمّونه فم القسطنطينية، وبعضهم يسمّونها طوق القدّيس جورج (جرجس)Brace of Saint George وهذا الامتداد يقرّب جزئي المدينة، وفوق هذا البحر كانت توجد مدينة طروادة الكبيرة، هذه المدينة كانت قد دُمّرت من قبل الإغريق ولذلك لا تظهر كثيراً لأنها خُرّبت منذ زمن طويل.

في اليونان يوجد الكثير من الجزر مثل:
Calliste, Calcas, Oertige, Tesbria, Mynia, Flaxon, Melo, Carpate, and Lemnos.

وفي هذه الجزيرة يوجد جبل آثوس Athos الذي يخترق الغيوم، وهناك يوجد لغات مختلفة وبلدان مختلفة وكلها تحت سلطة الإمبراطور مثل Turcople Pyncynard, Comange, وغيرها الكثير مثل تراقيا Thracc ومقدونيا Macedonia وكانت في مُلك الإسكندر. وفي هذه البلد ولد أرسطو في مدينة كانت تدعى ستاغيرا Stagyra وهي ليست ببعيدة عن تراقيا Thrace. وفي ستاغيرا Stagyra يرقد أرسطو ويوجد عند قبره مذبح، وهناك يقيم النّاس أعياداً كل سنة حيث يظنّون أنه كان قدّيساً، وعند مذبحه تقام الاجتماعات والمجالس حيث أنهم يأملون أن يستفيدوا من تجلّيات الرّب عليه وأن يصلوا إلى أفضل القرارات والنّتائج.

في هذا البلد يوجد هضاب عالية، حتى نهاية مقدونيا، ويوجد هضبة ضخمة يدعونها أولمبوس، تخرج من مقدونيا وتراقيا Thrace وهي عالية جداً لدرجة أنها تعبر الغيوم. كما يوجد هضبة أخرى تدعى آثوس Athos هي الأخرى عالية جداً حتى أن ظلّها يصل الى لِمنوس Lemne والتي هي جزيرة تبعد ستة وسبعين ميلاً، والهواء على قمة هذه الهضبة نقي جداً حتى أنه لا يوجد أي ريح هناك، ولذلك من غير الممكن لأي من الحيوانات أن يعيش هناك وذلك بسبب جفاف الهواء.

يقول النّاس في هذه البلدان إن الفلاسفة في أحد الأوقات كانوا يذهبون فوق هذه الهضاب ويضعون على أنوفهم إسفنجة مرطبة بالماء لكي يستطيعوا تنشّق بعض الهواء لأن الهواء فوق هذه الهضاب جاف جداً. كما أنهم كانوا يكتبون على الغبار والتراب المتناثر من هذه الهضاب أحرفاً ورموزاً بأصابعهم، وعند نهاية السّنة يأتون مرة أخرى فيجدون نفس الأحرف والرّموز التي كانوا قد كتبوها في السّنة الماضية دون أي نقص. وذلك على ما يبدو بسبب علوّها ومرورها عبر الغيوم، ووجود الهواء النّقي فيها.

في القسطنطينية يوجد قصر الإمبراطور، وهو بديع جداً ومزخرف بشكل جميل جداً، وفي هذا القصر يوجد فسحة للمبارزة أو للاعبي الرّياضات أخرى. وكانت قد أنشئت من عدة منصات، وحولها درجات ترى جيداً من جميع الجوانب. وتحت هذه المنصات يوجد إصطبلات لأحصنة الإمبراطور جميع أعمدتها من المرمر.

وفي كنيسة القدّيسة صوفيا دَفَنَ إمبراطورٌ والده عندما مات. وعندما صنعوا القبر وجدوا جثة في الأرض وفوق الجثة طبق كبير من الذهب كُتبت عليه باللغة العبرية واليونانية واللاتينة حروفٌ تقول:

Jesu Christus nascetur de Virgine Maria, et ego credo in eum.

وهذا يعني: «ولد يسوع المسيح من مريم العذراء وأنا أؤمن به»، وقد وُضع تحت الأرض منذ ألفي سنة قبل ميلاد سيّدنا المسيح. وما زال الطّبق الذهبي في خزينة الكنيسة، ويقول النّاس بأنه كان هرمس Hermogenes الرّجل الحكيم.

وإذا كان هذا كله فعلاً قد حدث، فإن عقيدة النّاس الإغريق الآن ما تزال مختلفة عن عقيدتنا، بما يقولون بأن روح القدس لم تكن من الابن ولكنها كانت فقط من الآب، كما إنهم لا يتبعون كنيسة روما ولا البابا. كما يقولون بأن بطريركهم له قوة كبيرة ليسيطر على البحر، كما البابا له القوة على الطّرف الآخر من البحر. ولهذا بعث البابا يوحنا الثّاني والعشرون John XXII برسائل لهم تشرح كيف أن العقيدة المسيحية يجب أن تكون واحدة، وبأن جميعهم ينبغي أن يطيعوا البابا، وبأنه هو راعي الكنيسة من قبل الله، وهو من أعطاه الله الكثير من القوة للرّبط والحل ولهذا يجب عليهم طاعته.

وأعادوا إرسال رسائل تحمل عدة أجوبة، ومن بينها قالوا:

Potentiam tuam summam circa tuos subjectos, firmiter credimus. Superbiam tuam summam tolerare non possumus. Avaritiam tuam summam satiare non intendimus. Dominus tecum; quia Dominus nobiscum est.

وهذا يعني: «نحن نؤمن جيداً بأن القوة والسّلطة فوق الأشياء. على الأرجح أننا لن نستطيع أن نتحمل فخرك بنفسك، كما أننا لسنا بصدد إشباع أطماعك. كان الله معك ومعنا. وداعاً» وبعض الأجوبة الأخرى لم تصل اليه.

كما أنهم جعلوا سرّهم للمذبح المقدّس من خبز Therf لأن سيّدنا كان قد صنعه من

هـذا الخبـز، يوم خميس العهد، فإنهم في يوم خميس العهد يصنعون خبز Thref الذي يعتبرونـه رمزاً لخميس العهد ويجففونه في الشّـمس ويحفظونه طوال السّـنة ويعطونه للنـاس المرضى بدلاً من جسـد المخلّـص. وأصبحوا عندما يريـدون تعميد أولادهم يمسـحونهم بالزيت المقدّس فقـط مرة واحدة، ولم يعودوا يدهنـون النّاس المرضى. وهـم يقولـون بأنه لا يوجـد مَطهَر Purgatory، وبـأن الأرواح لا تكون لا في نعيم ولا في عذاب حتى يوم القيامة. كما يقولون بأن الزّنا ليس بالخطيئة العظيمة، ولكنه شـيء مقبـول، وبأن الرّجل والمرأة يجب ألا يتزوّجا إلا مرة واحدة. ومن يتزوّج أكثر من مرة يكون أولاده أولاد زنا وصاحبي خطيئة. كما أنه من الممكن لرهبانهم أن يتزوجوا.

كما قالوا بأن الرِّبا ليس بالخطيئة الكبيرة، كما أنهم باعوا ممتلكات الكنيسة المقدّسة وكذلك فعل النّاس في أماكن أخرى. الله يصلحها عنما يشـاء، وهذا فعلاً افتراء كبير. والآن أصبـح الملـك المسـتفيد من هذه الأموال يتـوّج في هذه الكنيسـة. والله يصلح الوضع برحمته!

ويقولـون إنه في لِنت Lent يجب على النّـاس ألا يصوموا ولا يرتّلوا في القداديس إلا في أيام السّـبت والأحد، وألا يصوموا يوم السّبت في أي وقت من أوقات السّنة إلا في أيام الميلاد والفصح. وهم لا يقبلون أن يرتّل أي أحد باللغة اللاتينية أمام المذبح، وإذا غامر أحد وفعل هذا، فإنهم يغسلون كل المذبح فيما بعد بالماء المقدّس، ويقولـون بأنه يجب أن يُعقد قداس واحد فقط يقال في مذبح واحد وفي يوم واحد.

ويقولون أيضاً بأن سيّدنا لم يأكل لحماً أبداً ولكنه صنع رمزاً للأكل. وأيضاً يقولون بأننا نخطئ خطيئة كبرى بحلاقة لحانا، لأن اللحية هي رمز الرّجولة وهي هبة من الله. كمـا قالـوا بأننا نخطئ خطيئة كبيرة بـأكل الحيوانات التي كان ممنوعـاً أكلها في العهد القديـم وفي الدين القديم كالأوز والأرانب البريـة وحيوانات أخرى تجترّ طعاماً ليس بطعامهـا. ويقولون بأننا نخطئ عندما نأكل لحماً في الأيام التي قبل أربعاء الرّماد Ash Wednesday وبذلك يجب أن نأكل اللحم يوم الأربعاء والبيض والجبن ابتداءً من يوم الجمعة، كما أنهم يدينون كل الذين يمنعونهم من أكل اللحم يوم السّبت.

كمـا أن إمبراطور القسـطنطينية هو الـذي كان ينصّب البطريرك والأسـاقفة ورئيس الأسـاقفة، كما كان يعطي الكرامات والمناصب للكنيسـة ويحرمهـم من مناصبهم إذا وجدوهـم غيـر جديريـن أو عندما يسـتدعي ذلك أي سبب آخر، وبهذا أصبح رئيسـاً روحياً ودنيوياً في بلده.

وإذا كنتم تريدون أن تعلموا أحرفهم الأبجدية، فهنا أذكر لكم إياها مع أسمائها التي يسمّونها بها:

Alpha, Betha, Gama, Deltha, e longe, e brevis, Epilmon, Thetha, Iota, Kapda, Lapda, Mi, Ni, Xi, o brevis, Pi, Coph, Ro, Summa, Tau, Vi, Fy, Chi, Psi, Othomega, Diacosyn.

ورغم أن كل هذه الأشياء لا تمسّ موضوعاً واحداً، فإنني أردتُ أن أعرضها عليكم، لأريكـم كيف أنه يوجد عادات وتقاليد وبلدان مختلفـة، ولأنها البلد الأولى المختلفة باعتقادها وإيمانها ممّا نحن نؤمن به ونعتقد، على نصف البحر هذا ولهذا عرضتها هنا، لعلكـم تريدون أن تعرفوا الاختلاف الذي بين إيماننا وإيمانهم. ولأنه يوجد الكثير من النّاس يروق لهم سماع أشياء غريبة ومختلفة عن بلدان متنوعة.

* * *

الفصل الرّابع

[عن الطّريق من القسطنطينية إلى القدس]
وعن القدّيس يوحنا الإنجيلي
وابنة إيبوكراس التي تحولت من امرأة إلى تنين

أعـود مـرة أخرى لأخبركم عـن الطّريق من القسـطنطينيّة إلى القدس، التي سـتعبر مـن خلال تركية باتجـاه مدينة Nyke وتعبـر بوابة Chicnetout، وطـوال الطّريق يرى النّـاس دائمـاً أمامهم هضبـة Chienetout التي هي عالية فعلاً وعلـى بعد ميل ونصف من Nyke.

والذي سـيذهب عبـر الماء بجانـب قوس القدّيس جـورج وفي البحـر حيث يرقد القدّيـس نيكولا وسـيذهب باتجاه عـدة أماكن أخرى. يذهب الرّجـال أولاً إلى جزيرة تدعى Sylo في هذه الجزيرة ينمو المِسك على أشجار صغيرة، ومنها تأتي المصطكاء، كما يوجد كذلك شجر البرقوق أو الكرز.

وبعد ذهاب الرّجال عبر جزيرة پاتموس Patmos حيث كتب هناك: القدّيس يوحنا مبشّـر الرّؤيا. ويجـب أن تعلموا بأن القدّيس يوحنا كان فـي الثّانية والثّلاثين من العمر عندما عُذِّب سيّدنا المسـيح، وبعدها عاش سبعاً وستين سنة ومات في السّنة المئة من عمره.

يذهـب الرّجـال مـن پاتمـوس Patmos حتـى إفسُـس Ephesus المدينـة الجميلة

والقريبة من البحر، هنالك مات القدّيس يوحنا ودُفن في قبر خلف المذبح العالي، ويوجد هناك كنيسة جميلة للناس المسيحيين الذين اعتادوا على البقاء دائماً في هذا المكان، ولا يوجد شيء في قبر القدّيس يوحنا سوى المَن، وهو يدعى لحم الملائكة لكي يتم تحويل جسده إلى الجنة.

والأتراك يسيطرون على كل الأماكن الآن، وعلى المدينة وعلى الكنيسة وكل آسيا الصّغرى التي تُدعى الآن تركية[1].

يجب أن تعلموا بأن القدّيس يوحنا سمح بأن يكون قبره في هذا المكان أثناء حياته، وتمدّد فيه بسرعة، ولذلك فبعض النّاس يقولون بأنه لم يمت ولكنه استراح هناك حتى يوم القيامة.

ولهذا، يوجد معجزة عظيمة، حيث كان النّاس يرون أن أرض القبر تتقسم وتتحرّك عدة مرات، وكأنه يوجد شيء يتحرك تحت الأرض.

ومن إفسُس Ephesus يعبر الرّجال الى عدة جزر أخرى في البحر، حتى مدينة پاتيرا Patera حيث ولد القدّيس نيكولا وكذلك مارتا Martha وحيث تم اختياره ليكون أسقفاً، وهناك أيضاً ينمو النّبيذ الجيد والقوي وبعدها أصبح النّاس يدعونه بنبيذ مارثا، وبعدها يذهب الرّجال الى جزيرة Crete التي منحها الإمبراطور لبعض الوقت للجنويين.

وبعدها يعبر الرّجال من خلال جزر كولكوس Colcos ولانغو Lango وإيبوكراس Ypocras التي كانت أكبرها.

بعض النّاس يقولون بأن في جزيرة لانغو Lango ما تزال ابنة إيبوكراس Ypocras متشكلة بشكل تنين كبير، وقد استمر هذا المعتقد لفترة مئة عام، كما يقول النّاس حيث أنني لم أرها بعيني.

---

(1) وهذا طبعاً كان إبّان بداية الفتح العثماني لآسيا الصّغرى (بلاد الرّوم) ما قبل فتح القسطنطينيّة الذي تم بعد قرن من رحلة ماندڤيل، أي في عام 1453 م.

يدعوها سكان الجزيرة سيدة الأرض، وهي موجودة في قلعة قديمة داخل كهف وتظهر مرتين أو ثلاثة كل عام ولا تؤذي أحداً، إلا إذا آذاها النّاس، وكانت قد تحولت من فتاة عذراء إلى هيئة التنين بقدرة الآلهة ديانا كما قال النّاس بأنها ستبقى بهيئة تنين حتى يأتي الفارس الشّجاع الذي يجرؤ على تقبيلها من فمها وبعدها ستعود مرة أخرى إلى أصلها الحقيقي وتصبح امرأة مرة أخرى، ولكنها لن تعيش طويلاً بعد ذلك.

وبعد فترة ليست بطويلة قال فارس رودُس Rhodes الشّجاع والمدجّج بالسّلاح بأنه سوف يقبّلها، وعندما كان على جواده ذهب إلى القصر ودخل إلى الكهف فرفعت التّنينة رأسها باتجاهه، وعندما رآها على هذا الشّكل البشع والمرعب هرب بعيداً، ولكن التنينة أمسكت به وجرّدته من ملابسه على صخرة من الصّخور رغماً عنه ورمت به في البحر من على هذه الصّخرة، وبهذا فُقِد الفارس والفرس.

وثمّة شاب آخر لم يعلم بوجود التنينة، خرج من سفينته وذهب خلال الجزيرة إلى أن وصل إلى القلعة، ودخل بعيداً داخل الكهف، إلى أن وجد غرفة وهناك رأى فتاة عذراء تمشط شعرها وتنظر في المرآة، وكان لها كنز، ولقد ظن بأنها امرأة عادية قد اتخذت من هذا الكهف مسكناً لتوقع بالرجال، فبقي الشّاب ينظر إليها إلى أن لاحظت الفتاة ظله في المرآة فالتفت إليه وسألته ماذا يريد؟ فأجاب بأنه يريد أن يكون لها محباً وعشيقاً، فسألته فيما إذا كان فارساً فاجاب نافياً، فعندها قالت بأنه ربما لن يكون عشيقها، ولكنها طلبت منه أن يعود ثانية إلى رفاقه ويصبح فارساً ويعود في الغد، وأنها ستخرج من الكهف أمامه، وعندها يأتي ويقبّلها من فمها بدون أي خوف. وقالت: سأبادلك القبله بدون أي أذى حتى لو رأيتني على هيئة تنين، وحتى لو رأيتني بشعة وقبيحة، أنا أفعل هذا لأبطل سحراً قد صُنع لي، ودون شك أنا لا شيء غير الذي ترى الآن، امرأة، ولذلك لا تشعرنّ بأي نوع من الخوف وقبّلني وسوف تحصل على كل هذا الكنز وتكون مَلِكي ومَلِك الجزيرة بأكملها.

بعد ذلك تركها وذهب إلى رفاقه على السّفينة، وساعدوه على أن يكون فارساً وعاد في اليوم التالي ليقبّل الفتاة العذراء وعندما رآها خارجة من الكهف على هيئة تنين

بشع وقبيح، تملّكته الرّهبة وهرب عائداً إلى السّفينة، فلحقته وعندما رأت بأنه لم يعد بدأت تبكي، الأمر الذي كان محزناً للغاية وبعدها عادت إلى كهفها، وفي وقت لاحق مات الفارس، ومن ذلك الحين لم يعد يراها أي فارس بعد ذلك الفارس الذي مات، ولكن عندما يأتي فارس شجاع كفاية ليقبّلها فلن يموت لكنه سيعيد العذراء إلى شكلها الحقيقي الجميل وسوف يكون ملكاً لكل البلدان والجزر المذكورة آنفاً.

ثمّ يصل الرّجال من هناك إلى جزيرة رودُس Rhodes التي حكمت واستولت على وقت كبير من وقت الإمبراطور، والتي اعتاد النّاس على تسميتها كولّوس Collos وكذلك سمّاها الترك لاحقاً، والقدّيس بولس كتب لهم في رسالته عن هذه الجزيرة *ad Colossenses* هذه الجزيرة تبعد حوالي ثمانمئة ميل من القسطنطينية.

* * *

الفصل الخامس

عن التنوّع في قبرص
وعن الطّريق من قبرص إلى القدس
ومعجزة الحفرة المليئة بالرّمل

يذهب الرّجال من جزيرة رودُس Rhodes إلى قبرص، حيث يوجد الكثير من كروم العنب التي تكون في البداية حمراء، وبعد مرور سنة واحدة تصبح بيضاء، والخمور التي تكون أكثر بياضاً تكون الأكثر صفاءً والأجمل رائحة.

يمرّ الرّجال في هذه الطّريق عبر أرض كانت جميلة ومدينة مزدهرة، كانت هذه المدينة تدعى كاثاليليه Cathalilye ولقد بادت بسبب حماقة أحد الشّباب، حيث كان لهذا الشّاب عشيقة جميلة، أحبها حباً جماً، ولكنها في يوم من الأيام ماتت فجأة ودُفنت في قبر من رخام، ولشدّة الهيام الذي كان يجيش في قلب هذا الشّاب لهذه الفتاة فقد ذهب إلى قبرها في ليلة من الليالي وفتحه وتمدّد بجانبها بعض الوقت وعاد.

وبعد حوالي تسعة أشهر جاءه صوت يقول: «اذهب إلى قبر هذه الفتاة وافتحه وخُذ ما تجده عليها، وإن لم تفعل أصابك أذى كبير»، فذهب الشّاب فعلاً إلى القبر وفتحه، وإذا بثعبان كبير بشع يخرج من القبر ويطير باتجاه المدينة وبعد مدّة ليست بالطويلة غرقت المدينة كلها وبقيت عدة ممرات خطرة لم تسقط.

تبعد رودُس Rhodes عن قبرص أكثر من خمسمئة ميل، ولكن من الممكن للناس

أن يذهبـوا إلى قبرص ويعودوا من غير طريـق رودُس. وقبرص جزيرة جميلة وعظيمة ويوجد فيها أربع مدن رئيسـية كما يوجد فيها رئيس الأساقفة في نيقوسيا وأربع أساقفة أُخَر في أماكن أخرى من الجزيرة.

وفـي فاماغوسـتا Famagost يوجـد أحد المرافئ الأساسـية في العالـم، ومن هذا المرفـأ يدخل المسـيحيون والمسـلمون والنّاس مـن مختلف الجنسـيات. في قبرص توجـد هضبـة الصّليب المقـدّس، كما يوجد دير الرّهبان السّـود ويوجـد أيضاً صليب ديسـماس Dismas اللص الشّـريف كما ذكرت سـابقاً بـأن بعض الرّجـال يظنون بأنه نصـف صليب سـيّدنا المسـيح ولكن الحقيقة ليسـت كذلـك، بل هم يحاولـون إقناع النّاس بذلك لغايات شريرة في أنفسهم.

يرقـد القدّيس زينونيمـوس Zenonimus في قبرص والذي يكنّ لـه أهل هذا البلد تكريمـاً كبيراً، وفي قلعة آمورس Amours يرقد جثمـان القدّيس هيلاريون Hilarion الذي يقدّسه النّاس، وبجانب فاماغوستا Famagost ولد القدّيس بارنَبا Barnabas.

فـي قبرص يأخـذ الرّجال معهم إلى الصّيـد البابون، وهو نوع من الحيوانات يشـبه النّمـر، كمـا يأخذون الوحوش البرّية أيضاً، والتي هي تقريباً أكثر من أسـود، حتى أنهم يفضلون الوحوش كونها تبلي خيراً من كلاب الصّيد.

يأكل النّاس في قبرص على الأرض سواءٌ كانوا ملوكاً أو ناساً عاديين، ولهذه الغاية يعملـون قنوات فـي أرض البيت بعمـق الرّكبة ويبلّطونهـا، وعندما يريـدون أن يأكلوا يجلسون فيها، والفكرة في هذا على الأغلب أن يجعلوا الأرض أكثر برودة وذلك لأن الأرض هناك أكثر حرارة ممّا هي عليه هنا.

وعند الولائم الكبيرة وللغرباء يجعلون طاولات ولكن لديهم مقاعد مرتفعة في الأرض.

يذهب الرّجال من قبرص إلى فلسـطين عبر البحـر، وتأخذ الرّحلة يوماً وليلة، ومع القليل من الرّياح يصلون إلى ميناء صور Tyre، التي تسمى الآن سورية[1] Surrye. في

(1) يلفظ ماندفيل اسم سوريا بالصيغة التّركية: سوريِة، على اعتبار أنها كانت آنذاك تحت حكم

وقت مضى كانت مدينة عظيمة وكان فيها بعض الرّجال المسيحيين الطّيبين، ولكن المسلمين دمّروا معظم أجزائها وأبقوا على هذا المرفأ لخوفهم من المسيحيين.

يذهب النّاس غالباً مباشرة إلى المرفأ ولا يذهبون إلى قبرص، ولكنهم يرغبون بالذهاب إلى قبرص ليرتاحوا على اليابسة أو ليشتروا بعض الاشياء الضرورية لحياتهم اليومية.

من الممكن للنّاس أن يجدوا كثيراً من الياقوت على شاطئ البحر، كما يوجد النّبع الذي كُتبت عليه كتابة مقدّسة تقول:

Fons ortorum, et puteus aquarum viventium.

ما يعني: «نبع الحدائق ومجرى ماء الحياة».

وفي مدينة صور قالت المرأة لسيّدنا المسيح:

Beatus venter qui te portavit, et ubera que succisti.

وهذا يعني: «تبارك البطن الذي يحملك والثديان اللذان ترضعهما». وهنالك غفر سيّدنا للمرأة الكنعانية خطاياها. وقبل صور عادة كان يوجد حجر جلس عليه المسيح ووعظ النّاس، وعلى هذا الحجر أقيمت كنيسة القدّيس المخلّص St. Saviour.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور شرقاً تطل على البحر مدينة Sarphen الصّرفند من مدن الصّيدونيين، وهناك كان يسكن النّبي إيليا وهناك بعث يوناه (يونس) Joans أرملة ابنه، من الموت إلى الحياة، وعلى بعد خمسة أميال من Sarphen توجد مدينة صيدا، التي فيها كانت السّيدة ديدو Dido زوجة Aeneas وبعدها تم تدمير طروادة وأنشئت مدينة قرطاج في أفريقيا والآن تدعى Sidonsayete. وفي مدينة صور حكم أغينور Agenor والد ديدو Dido، وعلى بعد ستة عشر ميلاً من صيدا تقع بيروت، ومن بيروت إلى صيدنايا Sardenare رحلة ثلاثة أيام، وعلى بعد خمسة أميال من

دولة المماليك البحريّة، الذين كانت التركيّة لغتهم.

صيدنايا Sardenare تقع دمشق.

ومـن يسـافر وقتـاً طويلاً في البحـر ويقترب من القـدس يجب عليـه أن يذهب من قبـرص عبر البحر إلـى ميناء يافا، وهي الجنـة التي بقرب القدس، وتبعد مسـافة رحلة يـوم ونصـف من القـدس، وهذه المدينة التي تدعـى يافا كان قد أنشـأها يافث Japhet أحـد أبناء نـوح والآن تدعى Joppa، ومـن المهم أن تعرفوا بأنها أحـد أقدم المدن في العالم والتي أُنشأت قبل طوفان نوح، وحتى الآن توجد منحوتة في الصّخر، كما توجد سلاسل حديدية تم تثبيتها وكانت أندروميدا Andromeda العملاقة الكبيرة مثبتةً بها، وكانت حُبسـت قبل طوفان نوح، وهذه العملاقة يبلغ ضلع واحد من ضلوعها أربعين قدماً طولاً.

ومـن يصـل إلى ميناء صور أو Surrye الذي ذكرته سـابقاً بإمكانه أن يذهب براً إلى القـدس، والنّـاس عـادة يذهبون من صـور إلى مدينة عـكّا Akon في يـوم واحد، وقد كانـت تدعـى قديمـاً Ptolemais وكانت فـي يوم من الأيـام مدينة النّاس المسـيحيين المليئـة بالعـدل ولكنها دُمّرت بالكامـل الآن، كما أنها تطل على البحـر. ومن البندقية إلى عكّا Akon في البحر ألفان وأربعة أميال ومن لومبارديا Lombardy ومن كالابريا Calabria أو صقلية إلى عكّا Akon عبر البحر حوالي الف وثلاثمئة ميل من لومبارديا Lombardy حيث تقع جزيرة كريت Crete تماماً في منتصف الطّريق.

وبجـوار مدينة عكّا Akon من جهة البحر وعلى بعد سـتة فرلنغات[1] على الجانب الأيمـن جنوباً، تقع هضبة الكرمل حيث عاش النّبي إيليا لبعض الوقت وهناك تأسـس سلك الرّهبان الكرمليين Order of Friars Carmelites. وهذه التلة ليست كبيرة جداً ولا عالية جداً، وعند أسفلها كان يوجد في أحد الأيام مدينة جميلة للمسيحيين، وكانت تدعى حيفا Caiffa لأن قيافا Caiaphas أول من أسّسها ولكنها ضاعت كلها الآن.

وعلى الطّرف الأيسـر من هضبـة الكرمل توجد مدينة كان اسـمها صفّورية Saffre

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

وتوجد على هضبة أخرى وهناك ولد القدّيسان يعقوب ويوحنا، ولكي يقوم النّاس بالعبادة أنشأوا كنيسة جميلة، ومن Ptolemais التي دعاها النّاس عكّا Akon إلى الهضبة العظيمة التي تدعى صور مسافة مئة فرلنغ، وبجانب مدينة عكّا Akon يجري نهر صغير يدعى Belon.

وقريباً من هناك توجد حفرة مينون Foss of Mennon التي لها شكل دائري وتبلغ مساحتها مئة ذراع، كما أنها مفروشة بالحصى المشرقة والبراقة والذي منها يصنع النّاس أوانيَ شفافة وبراقة. وقد كان النّاس يأتون من أماكن بعيدة ليأخذوا منها الحصى، إما في السّفن عبر الماء أو في العربات براً، ومهما أخذوا كميات كبيرة منها في يوم واحد، تعود في اليوم التالي لتمتلئ مرة أخرى وكأنها لم تنقص أبداً، وهذه معجزة عظيمة. كما أنه يوجد فيها رياح قوية دائماً، تحرّك الحصى بشكل دائم، وتجعله مضطرباً، وبواسطة بعض المعادن يمكن تحويل هذا الحصى إلى زجاج، وأيضاً الزّجاج المصنوع من تلك الحصى إذا أرادوا أعادته كحصى، فإنه يعود فوراً كما كان، ولهذا قال بعض النّاس بأن هذا هو بالع حصى البحر.

كما يذهب النّاس من عكّا Akon من الطّريق العلوية بمسيرة أربعة أيام إلى مدينة فلسطين، وذلك نسبة إلى الفلسطينيين والتي تدعى الآن غزّة، وهي مدينة سعيدة وغنيّة وجميلة ومليئة بالناس وليست بعيدة عن البحر، وفي هذه المدينة نصب شمشون Samson القوي البوابات على أرض عالية، وعندما كان يستولي على هذه المدينة قتل الملك في القصر كما قتل نفسه وعدداً كبيراً من أشجع الفلسطينين، وكان الملك قلع عينيه وحلق شعره ثم سجنه، جرّاء خيانة عشيقته دليلة، ولهذا فقد هدم عليهم قاعة كبيرة عندما كانوا يأكلون.

ومن هناك يذهب النّاس إلى مدينة قيصريّة Caesarea حيث يوجد حصن الحجيج Castle of Pilgrims، ومن ثمّ إلى عسقلان Ascalon، ومن ثم إلى حيفا ثم إلى القدس.

ومن يريد الذهاب عبر البرّ يمرّ عبر أرض بابل حيث يسكن السُّلطان عادة، حيث

ينبغي على للمارّ من هناك أن يحصل على التبريك منه، ومن ثم يغادر ليذهب أكثر أمناً عبر هذه البلاد والأراضي.

وللذهاب إلى جبل سيناء، قبل الذهاب إلى القدس يجب عليهم المرور بغزة إلى قلعة Daire وبعدها يخرجون من سوريا ويدخلون إلى البراري وهناك الطّريق مليئة بالرمال وهذه البراري والصّحارى تستغرق رحلة ثمانية أيام، ولكن النّاس دائماً كانوا يجدون مؤى وما يحتاجون من مؤن. وأطلق النّاس اسم Achelleke على هذه الصّحارى والقفار، وعندما يخرج أحد من هذه الصّحراء يدخل إلى مصر التي يسمّيها النّاس Egypt Canopac وفي لغة أخرى يسمّيها النّاس Belethe والتي هي نهاية مملكة حلب، ومن هناك يذهب النّاس إلى بابل[1] وإلى القاهرة.

* * *

(1) تسمية بابل أو بابليون Babylon كان يطلقها الرّحالون الغربيّون في القرون الوسطى على الفسطاط في القاهرة.

الفصل السّادس

عن أسماء السُّلطان الكثيرة وبرج بابل

في بابل يوجد كنيسة جميلة لسيدتنا العذراء، حيث سكنت سبع سنوات، عندما تمكنت من الفرار من أرض اليهود لخوفها من الملك هيرودوس، وهناك أيضاً يرقد جثمان القدّيسة بربارة العذراء الشّهيدة، وهناك سكن يوسف بعدما باعه إخوته، وهناك طرح الملك نبوخذ نصر ثلاثة أطفال في لهيب النّار، لأنهم كانوا يؤمنون بالاعتقاد الصّحيح، هؤلاء الأطفال التي كانت أسمائهم: أنانيا، أزاريا، ميتشيل. كما مزمور *Benedicite* يقول: لكن نبوخذ نصر سمّاهم: شدرخ Shadrach، وميشخ Meshach، وعبدنغو Abednego، وهذا يعني: «الله قادر، الله مجيد، الله فوق الأشياء والممالك». وقد قيل هذا عندما رأى ابن الله يذهب إلى النّار مع الأولاد.

وهناك يسكن السُّلطان في Calahelyke[1] (حيث عادة هناك يكون كرسيه) في قلعة جميلة، قوية وعظيمة، شيّدت فوق الصّخر، يسكن في هذه القلعة دائماً أكثر من 6000 شخص لحماية القلعة وخدمة السُّلطان ويأخذون كل احتياجاتهم من قصر السُّلطان، أعرف هذا جيداً ذلك لأني بقيتُ معه كجندي لمدّة طويلة في حربه ضد البدو[2]، وكان من الممكن أن يزوّجني بنت أحد كبار الأمراء لو كنتُ تخليت عن إيماني واعتقادي،

---

(1) المفترض أنه يعني قلعة الجبل، حيث قصر حكّام مصر. ولكني لم أفهم المقطع الثاني من العبارة التي يستعملها: Calahelyke، فهل هي: القلعة العليّة مثلاً؟

(2) هذه إشارة مهمّة من المؤلف، فهل يعني بالمدّة الطويلة أنه مكث بمصر بضعة شهور أم أكثر يا ترى؟

ولكني والحمد لله لم تكن لي أيّة نيّة في هذا، ولا شيء يمكن أن يغريني.

كما يجب عليكم أن تعرفوا بأن السُّلطان هو الملك على خمسة ممالك، وقد حصل عليها كلها بالقوة والاقتدار، وأسماؤها: مملكة Canapac وتقع في مصر، ومملكة فلسطين حيث كان داود وسليمان ملكين، ومملكة سوريا وأكبر المدن فيها دمشق، ومملكة حلب في أرض Math، والمملكة العربية التي كانت لواحد من ثلاثة ملوك عُرضوا على سيّدنا عندما ولد، وكثير من الأراضي تقع تحت سيطرته، وفوق ذلك كله كان تحت إمرته خلفاء، وهذا يعني في لغتهم أشخاصاً ذوي رفعة وشأن، أي تقريباً مثل الملك.

وقد كانت العادة بأن يكون خمسة سلاطين، ولكن الآن لا يوجد غير سلطان مصر، وأول سلطان كان Zarocon وهو كان من ميديا Media كما كان والد صلاح الدين الذي كان خليفة مصر، وقتله وأصبح سلطاناً بالقوة، بعدها كان السُّلطان صلاح الدين في وقت كان الملك ريتشارد الأول ملك إنكلترا، وآخرون كُثر اعتقدوا بأن صلاح الدين لن يبقى. وبعدها أورث صلاح الدين الملك لابنه Boradinc وبعده لأبن أخيه. وبعد ذلك شعر الكومان[1] Comanians الذين كانوا عبيداً في مصر بأن لهم قوة عظيمة، فاختاروا لانفسهم سلطاناً منهم لقب نفسه «الملك الصّالح»[2] Melechsalan وفي وقته دخل إلى البلد ملك فرنسا القدّيس لويس Saint Louis، وقاتله ثم أخذه السُّلطان أسيراً، وبعدها قُتل هذا السُّلطان على يد خدمه، وبعد ذلك اختاروا سلطاناً

---

(1) شعب الكومان قوم رُحّل من الأرومة التركيّة في سهوب آسيا الوسطى يؤلفون الفرع الغربي من حلف الكومان والقپچاق. بعد الغزو التّتري عام 1237 م التجأوا إلى هنغاريا ثم بلغاريا. وماندڤيل هنا يقصد بهم المماليك البحريّة الذين كان بعضهم فعلاً من والقپچاق، مثل بَيبَرس نفسه.

(2) يخطئ ماندڤيل بذكر الملك لصّالح كأول سلاطين المماليك، والواقع أنه أحد أواخر الملوك الأيوبيين، واسمه الملك الصّالح نجم الدّين أيّوب، وفي أواخر أيامه كانت بداية الحملة الصليبيّة السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع Louis IX. ولكنه يعني عزّ الدّين أيبك الذي تزوّجته أرملة الصّالح شجر الدُّرّ ليدير حكم البلاد، وقتله خدمها.

آخر أسموه «تورانشاه»[1] Tympieman الذي أخرج القدّيس لويس Saint Louis من السّجن مقابل فدية، وبعد ذلك تسلّم واحد من هؤلاء المماليك Comanians الحكم ويدعى «قُطُز» Cachas وقتل «تورانشاه» Tympieman ليصبح سلطاناً وأسموه «الملك المظفّر» Melechmenes.

وبعد ذلك أتى الذي دعي «البُندقداري» Bendochdare الذي قتل «الملك المظفّر» Melechmenes ليصبح سلطاناً، وأسمى نفسه «الملك الظاهر» Melechdare وفي عهده دخل الملك إدوارد ملك إنكلترا إلى سوريا وسبّب أذى كبيراً للمسلمين، وبعد ذلك سُمّم السُّلطان في دمشق وظن ابنه بأنه سيلي الحكم بعده بالوراثة، وأن يسمّى «الملك السّعيد»[2] Melechsache، ولكن شخص آخر يدعى «الألفي»[3] Elphy طرده خارج البلاد وعيّن نفسه سلطاناً.

هذا الرّجل أخذ مدينة طرابلس ودمّر كثيراً من المسيحيين، في سنة العفو 1289، وبعدها سجن من قبل سلطان آخر، وبعد فترة قصيرة من سجنه قتله، وبعد ذلك كان ابن «الألفي» Elphy قد اختير ليكون سلطان ودعي «الملك الأشرف»[4] Melechasseraff وأخذ مدينة عكّا Akon وطرد المسيحيين خارجاً وهذا أيضاً سجن ولاحقاً أصبح أخوه السُّلطان وكان يدعى «الملك النّاصر»[5] Melechnasser، وبعد ذلك تولّى الحكم ذاك الذي يدعى «كتبُغا» Guytoga ووضعه في السّجن في قلعة Mountroyal ونصب نفسه سلطاناً بالقوة، وكان يدعى «الملك العادل» Melechadel وقد كان من

---

(1) كذلك لم يكن تورانشاه واحداً من سلاطين المماليك، بل هو ابن الملك الصّالح نجم الدّين، وأول سلاطين المماليك كان عزّ الدّين أيبك ثم المظفّر قُطز، غير أنّ المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية بالقاهرة كان الظاهر بَيبَرس البُندُقداري.

(2) أي الملك السّعيد بركة خان ابن بَيبَرس، الذي تلاه في الحكم أخوه الملك العادل بدر الدّين سلامش، وبعدهما قلاوون.

(3) يقصد ماندڤيل الملك المنصور سيف الدّين قلاوون، وكان لقبه الألفي نسبة إلى الثّمن الذي اشتراه به الملك الصّالح نجم الدّين، أي ألف دينار.

(4) أي الملك الأشرف خليل بن قلاوون.

(5) أي الملك النّاصر محمّد بن قلاوون.

بلاد التّتار Tartary ولكن المماليك Comanians طردوه خارج البلد، وأذاقوه صنوف العذاب ونصّبوا واحداً منهم سلطاناً كان اسمه «لاچين» Lachin وقد سمّي «الملك المنصور» Melechmanser، وكان يوماً ما كان يلعب الشّطرنج وسيفه بجانبه، فحدث أن أحداً غضب منه غضباً شديداً وقتله بسيفه.

وبعد ذلك حدث خلاف كبير حول من سيكون السُّلطان، وأخيراً اتفقوا على «الملك النّاصر» Melechnasser الذي كان «كتبُغا» Guytoga قد وضعه في السّجن في Mountroyal، وبقي في الحكم فترة طويلة إلى أن استلم ابنه الأكبر «الملك المنصور» Melechmader الحكم من بعده، ثمّ ذُبح سراً من قبل أخيه ليستولي على السّلطنة، وليلقب نفسه بعد ذلك «الملك المظفّر» Melechmadabron وقد كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد[1].

* * *

كما ألفت انتباهكم إلى أن السُّلطان يمكن أن يخرج من مصر على رأس أكثر من 200,000 جندي، كذلك الأمر في سوريا وتركية وكل البلاد التي له سلطة عليها، يمكن له أن يحشد أكثر من 50,000 وكل هؤلاء يكونون تحت تصرفه، ويكونون دائماً له بغضّ النّظر عن بقية القوم الذين يسكنون في البلاد والذين لا يعدّون ولا يحصون، وكل واحد منهم يرتفع مرتبه سنوياً بما يعادل ستة فلورنتينات، ولكن يتوجب عليه أن يكون مسؤولاً عن ثلاثة أحصنة وجمل. وعندما يكون مسؤولاً عن مدن يكون برتبة أدميرال كما يكون حاكماً على النّاس أيضاً، من الممكن أن يحكم أربع مدن أو خمسة أو أكثر، وبقدر ما يحكم الأدميرال من مدن يكون له جنود تحت إمرته، ولذلك عندما

---

(1) هذا تحديد مهمّ ودقيق، يدلّ على أن ماندڤيل زار مصر في زمن الملك المظفّر حاجي ابن النّاصر محمّد بن قلاوون 1346-1347 م / 747-748 هـ. غير أن الملك المظفّر لم يلِ بعد أخيه الملك المنصور أبي بكر، بل تلاه الأشرف كُجُك، ثم النّاصر أحمد، وبعده المظفّر حاجي (والأربعة أبناء النّاصر محمّد من أصل ثمانية من أولاده تولّوا السّلطنة). وهذا ما دعا توماس رايت إلى الظنّ بأن ماندڤيل كان بمصر في زمن الملك الأشرف (الصغير) علاء الدّين كُجُك عام 1341 م.

يرقي السُّلطان أياً من الفرسان يجعله أدميرالاً، وعند حدوث أيّة مجاعة، وإذا أصبح هؤلاء الفرسان فقراء فإنهما يبيعون فرسانهم وعتادهم.

للسلطان أربع زوجات، واحدة مسيحية وثلاث مسلمات، واحدة منهن تسكن في القدس والأخرى في دمشق وواحدة في عسقلان، وعندما يتم اختيارهن ينتقلن إلى مدن أخرى حيث يمكن للسلطان أن يزورهن. كما له من العشيقات ما أراد، حيث كان يجلب المواليد الجديدة ذوات الاصول النّبيلة والبنات الجميلات ويبقيهن عنده ليخدمنه بإخلاص. وعندما يريد إحداهن لتنام معه، يجلبهن جميعاً وينتقي من بينهن من تشبع رغباته أكثر، ويرسل لها فيما بعد خاتماً من إصبعه. وبعدها تغتسل وتتحلّى بأفخر أنواع الملابس والحلي وتتعطر بأحلى أنواع العطور ثم تؤخذ إلى غرفة السُّلطان، ويفعل كذلك كلما أراد أن ينتقي واحدة من هؤلاء النّساء.

لا أحد من الغرباء يأتي إلى حضرة السُّلطان إلا إذا كان مرتدياً قماشاً ذهبياً أو تترياًTartary أو من الكمخة Camaka ومرتدياً بنفس الطّريقة التي يرتدي بها المسلمون. وفيما بعد يتوجب على من رأى السُّلطان عندما يطلّ من نافذة أو من أي مكان آخر أن يركع ويقبّل الأرض، وهذا تعبير عن التبجيل والامتنان للسلطان بأنه تكلّم معهم. وعندما تأتي رُسل بلاد أخرى لمقابلة السُّلطان فهم يتجرّدون من أسلحتهم ويضعونها أرضاً، وتُرفع هذه الأسلحة بعيداً لتُضرب بها رؤوسهم في حال فعلوا أو قالوا شيئاً يغضب السُّلطان، كما أن لا أحد من الغرباء يقابل السُّلطان، ولكنه يلبّي لهم طلباتهم ويعطيهم الهدايا، إذا ما طلبوا شيئاً معقولاً وغير مخالف لدينه، وكذلك يفعل الأمراء في البلاد الأخرى، فلا يجوز لأيّ غريب أن يقابل الأمير، ولكنه ينبغي أن يكون مسروراً ويخرج أسعد ممّا أتى، وذلك لكثرة الهدايا التي يأخذها.

وللعلم بأن بابل هذه التي تكلمت عنها حيث يقيم السُّلطان، ليست هي بابل العظيمة حيث كان تعدّد اللغات معجزة الله وانتقامه، حيث كان برج بابل العظيم قد بُدئ العمل فيه وكان طول جدرانه أربعة وستين فرلنغاً[1]، وهو يوجد في الصّحراء العربية الكبرى،

---

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

حيث الطّريق التي يذهب فيها النّاس باتجاه المملكة الكلدانية. ولكنها طويلة جداً حيث أن أي رجل لا يجرؤ على الخروج من البرج لأن كل الصّحراء مليئة بالوحوش والأفاعي الضخمة، ومليئة بالحيوانات السّامة. وهذا البرج مع المدينة عبارة عن دائرة من الجدران على امتداد خمسة وعشرين ميلاً كما يقول النّاس، وهذا الاعتقاد على الأغلب هو تقديري ولكن النّاس تناقلته من بعضها.

وبالرغم من أنه يدعى برج بابل فإنه مؤلف من عدة منازل وعدة أماكن للسكن على الطّول والعرض. وهذا البرج يحتوي على بلدة كبيرة بشكل دائري، أما البرج وحده فمساحته الدّاخلية ميل مربع.

ولقد بنى البرج الملك نمرود Nimord وهو كان ملك هذه البلد، وقد كان ملك العالم الأول. وقد أمر برسم صورة على هيئة والده وقد ألزم كل رعاياه بعبادتها، ومن بعده اعتاد الملوك أيضاً فعل الشّيء ذاته وهكذا بدأت أول الأصنام والتماثيل.

كانت المدينة والبلدة مليئتين وموجودتين في بلد جميل يسمّيه النّاس بلد السّمر، وكانت جدران المدينة فيه بارتفاع مئتي ذراع وعمقها خمسون ذراعاً، ونهر الفرات يجري من خلال المدينة وقريباً من البرج أيضاً. ولكن قورش ملك الفرس أخذ منهم النّهر ودمّر كل المدينة والبرج أيضاً، وقسم النّهر إلى 360 نهراً صغيراً، لأنه كان قد أقسم بأن يصنع النّهر بهذا الشّكل وذلك لكي تتمكن النّسوة من المرور دون خلع ملابسهن، وذلك لأنه خسر الكثير من الرّجال المعتبرين أثناء عبورهم هذا النّهر سباحة.

تستغرق الرّحلة من بابل حيث يسكن السُّلطان مباشرة بين الشّرق والشّمال باتجاه بابل العظيمة أربعين يوماً حيث يعبر خلالها الصّحراء. ولكنها ليست جزءاً من أرض بابل العظيمة التي هي تحت سلطة السُّلطان Soldan المذكور سابقاً ولكنها تحت سيطرة الحاكم الفارسي، غير أنه يحافظ عليها لصالح الخان Chan الأعظم، الذي هو أكبر إمبراطور وأعظم حاكم في كل الأراضي التي وراء ذلك. كما أنه الملك على جزر كاثاي Cathay وعدة جزر أخرى وجزء كبير من الهند Ind. كما أن أرضه تمتدّ حتى

أرض يوحنّا الكاهن[1] Prester John الذي هو بدوره يمتلك الكثير من الأراضي حتى أنه لا يعرف أيّة نهاية لها، كما أنه أقوى وأعظم ولا مجال للمقارنة بينه وبين السُّلطان، من حيث ممتلكاته الملكية وسلطته، وخاصة سلطته الكاملة على بلاد الهند Ind.

كما أن مدينة مكّة حيث دفن محمّد هي إحدى أقدس الأماكن في الصّحراء العربية وهناك يرقد جثمانه[2]، ويحظى هذا المكان بكثير من التبجيل التشريف من قبل المسلمين ويدعونه المسجد[3] Musketh، وهو يستغرق رحلة اثنين وثلاثين يوماً من بابيلون[4] حيث يسكن السُّلطان حتى أرض مكة.

ومن الطّريف أن حكم جزيرة العرب يمتدّ على رقعة كبيرة من الأرض، ولكن هذا المكان مليء بالصحارى ولا يوجد أحد يسكن هذه الصّحارى وذلك لعدم وجود الماء ولأن هذه الأرض مليئة بالحصى والرّمال. كما أنها جافة ولا يوجد أي شيء مثمر فيها وهذا لعدم وجود رطوبة ولذلك يوجد الكثير من الصّحارى. ولو كانت توجد أنهار وآبار كما هي الحال في الأجزاء الأخرى من البلاد لكانت مليئة بالناس والسّكان، وهذا ما يجعل المناطق الأخرى القابلة للسكن مكتظة بالناس.

---

(1) يوحنّا الكاهن ملك مسيحي أسطوري، يُزعم أنه كان يحكم آسيا الوسطى أو إثيوبيا في القرون الوسطى. ترجع هذه الحكاية الأسطوريّة إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ويُعتقد أنها وضعت من قبل الصليبيين المعزولين عن بلادهم في المشرق، وكانوا يرتقبون أي دعم من تلك الأراضي الغامضة في آسيا. وظلّ رحّالو الغرب، وأولهم ماركو پولو، يبحثون عن بلاد هذا الملك الأسطوري دون جدوى. ويُعتقد أنّ أصل نسبة هذا الملك تعود غالباً إلى بعض الغزاة المغول الذين أفاد الصليبيّون من غزواتهم في المشرق الإسلامي، فربما حرّف بعض النّساطرة الحكاية على هذا النحو.

(2) يشيع هذا الاعتقاد الخاطئ لدى الكثير من الرّحّالين الغربيين في القرون الوسطى، فالرّسول عليه أطيب الصّلاة والسّلام مدفون كما هو معلوم بالمدينة المنوّرة.

(3) يذكر ماندڤيل كثيراً من التسميات العربية بصورة ركيكة، لكن على اعتباره واحداً من الرّحّالين الباكرين يبقى ذلك أمراً مقبولاً. إنما عند ذكره لسلاطين المماليك في القاهرة يثبت لنا أنه زار مصر فعلاً وكان شاهد عيان لا مجرّد ناقل عن بُعد كما اتُّهم. أيضاً نلاحظ أنه يلفظ تسمية المسجد Musketh بجيم مصريّة، ممّا يدلّ على أنه استقى معلوماته هذه عن الحجاز في القاهرة.

(4) يقصد القاهرة كما ذكر أعلاه.

تمتـدّ جزيـرة العـرب ابتـداء مـن أطـراف مملكـة الكـلدان حتـى نهايـة أفريقيا، وتصـل حتـى جزيـرة Idumea حتـى نهايـة Botron، والمدينة الرّئيسـية في الأراضي الكلدانية هي بغداد والمدينة الرّئيسية فـي أفريقيـا هي قرطاج والتي أنشأتها ديدو Dido زوجة إنياس Eneas الذي كان في مدينـة طروادة والذي هو كان بعد ملك إيطاليا.

تمتـدّ بـلاد ما بيـن النّهرين حتى صحراء جزيـرة العرب وهي بلاد كبيـرة، وفي هذه البلد توجد مدينة حرّان Haran حيث سـكن والـد إبراهيم وهناك حنث بالتزامه وصية الملاك. ومن هذه المدينة كان إفرايم Ephraim الذي كان كاتباً كبيراً وطبيباً عظيماً كما أن ثيوفيلـوس Theophilus كان منهـا، وأيضاً هناك نجت سيدتنا العـذراء من عدوّنا. وتمتدّ أرض ما بين النّهرين من نهر الفرات حتى نهر دجلة على كل الأرض الممتدة ما بين هذين النّهرين.

ومـا وراء نهـر دجلة تقـع أراضي كلـدان وهي مملكـة عظيمة، وفي هـذه المملكة عنـد بغـداد التي ذكرتها سـابقاً اعتاد أن يسـكن الخليفـة، الذي يُعدّ بمثابـة الإمبراطور والبابـا للبـلاد العربية، وكذلك أصبـح الرّئيس الرّوحي والدينـي وخليفة محمّد، ومن سـلالته. وكانت قد جـرت العادة أن تسـمّى مدينة بغداد هذه باسـم Sutis والذي كان أنشأها نبوخذ نصر. وهناك أيضاً سكن دانيال الرّسول الكريم، وهناك رأى صوراً للجنة وهنالك شاهد الأحلام.

وفي الماضي كانت العادة وجود ثلاثة خلفاء فقط، واحد في الأراضي العربية والكلدانية يسـكن في مدينة بغداد المذكورة سـابقاً، وواحد يسكن في القاهرة بجانب بابل وهو خليفة مصر[1]، وفي المغرب على البحر الغربي يسـكن خليفة شـعب البربر والأفارقة. والسّـبب بعدم وجود أي من الخلفاء منذ ذلك الحين هو أنّه منذ عصر السُّـلطان صلاح الدين جرت العادة للسّلطان بأن يسمّي نفسه خليفة أيضاً[2]، وهكذا فقد الخلفاء لقبهم.

---

(1) يقصد ماندڤيل بذلك الخلفاء الفاطميين في القاهرة.

(2) هذا كلام غير صحيح بالطبع، فقد كان ملوك بني أيّوب ومن بعدهم المماليك يتخذون لقب السّلطان أو الملك، ويدعون للخليفة العباسي الموجود في بغداد، وذلك على اعتبار شرافة بني

والطريف أيضاً أن بابل الدنيا حيث يسكن السُّلطان وحيث مدينة القاهرة قريبة، يوجد الكثير من المدن الجميلة والكبيرة وتقع الواحدة بقرب الأخرى، تقع بابل على نهر قيشون Gyson الذي يسمّى أحياناً نهر النّيل والذي خرج من الجنة الموجودة على الأرض.

نهر النّيل هذا خلال السّنة عندما تدخل الشّمس برج السّرطان يبدأ بالازدياد ويبقى بازدياد ما دامت الشّمس في برج السّرطان، وعندما تدخل الشّمس برج الأسد إذا بقي يزداد بنفس الطّريقة يصبح كبيراً جداً بعمق حوالي عشرين ذراعاً أو أكثر، وبعدها يسبّب ضرراً كبيراً للأراضي التي حوله، وعندها لا يتمكن أحد من النّاس من العمل في الأرض أو حراثتها وذلك بسبب المياه الكثيرة، ولهذا يكون فعلاً وقتاً عصيباً على البلاد.

وأيضاً عندما يقلّ النّهر يكون وقتاً عصيباً على البلاد وذلك لعدم وجود المياه الكافية، وعندما تدخل الشّمس برج العذراء يبدأ النّهر بالنقصان شيئاً فشيئاً وهكذا وعند دخول الشّمس برج الميزان تنحسر مياه النّهر. هذا النّهر يخرج من الجنة الأرضية بين صحارى الهند Ind ثم يندفع عبر الأرض ويجري وقتاً طويلاً عبر عدة بلاد كبيرة تحت الأرض وبعدها يخرج من تحت هضبة عالية يسمّيها االناس Alothe وهي بين الهند Ind وإثيوبيا على ارتفاع رحلة خمس أشهر بعد دخول إثيوبيا، وبعدها يحيط بكامل إثيوبيا وموريتانيا، ويستمرّ بالمسير من أرض مصر مروراً بمدينة الإسكندرية حتى نهاية مصر وهناك يصبّ في البحر. وحول هذا النّهر الكثير من العصافير والطّيور مثل اللّقلق sikonies الذي يدعونه Ibes.

* * *

العبّاس وقرابتهم للرّسول عليه الصّلاة والسّلام.

الفصل السّابع

عن مصر وعن طائر العنقاء في البلاد العربية
وعن مدينة القاهرة
وعن الطّريقة التي تعرف بها البَلسَم وتثبت نقاءه
وعن أهراء يوسف

مصـر بلد طويل ولكنه مسـتقيم، وبذلـك يمكنك القول بأنه ضيّـق وذلك لأنهم لم يتوسـعوا باتجـاه الصّحـراء لقلة المـاء. يمتدّ البلد علـى طول نهر النّيل، وبسـبب كثرة المصـادر التـي تغذي هذا النّهر من الفيضانات والمصـادر الأخرى، فهو يفيض خارج مجـراه علـى طـول البلاد. لا تمطر كثيراً في هـذا البلد، ولهذا فليـس لديهم ماء إلا من طوفـان هـذا النّهر، وبسـبب قلـة الأمطار في هـذا البلد فإن الجـو دائماً صـافٍ ونقي، ولهذا ازدهر في هذا البلد علـم الفلك، لعدم وجود غيوم تحجب السّماء، وأيضاً مدينة القاهرة مدينة حقاً جميلة وكبيرة، حتى أنها أكبر من بابل الدّنيا التي تقع في الجهة العليا للصحراء السّورية وفوق النّهر المذكور آنفاً بقليل.

فـي مصر هناك إقليمـان: الإقليم الأعلى الذي هو باتجاه إثيوبيا، والإقليم الأسـفل الذي هو باتجاه جزيرة العرب. ومصر هي أرض رعمسيس وأرض جاسان Goshen. ومصر بلد قوي وذلك لأن فيها مآمن صلبة وذلك بسبب الصّخور الكبيرة والقوية التي يعتبـر المرور فيما بينها خطراً. وفي شـرق مصر يوجد البحـر الأحمر، الذي يمتدّ على طـول مدينـة Coston، وفي غربهـا تقع ليبيا التي تكثـر بها الأراضي الجافـة وبها قليل

من الفواكه، وذلك بسبب الحرارة الشّديدة، وسمّيت هذه الأرض Fusthe، وباتجاه الجنوب تقع إثيوبيا. أما باتجاه الشّمال فتكون الصّحراء التي تمتد في سوريا، وكذلك نرى بأن البلد محصّن من جميع أطرافه. وهو خمسة عشر يوماً من السّفر وأكثر من ضعفي ذلك من الصّحراء، ولكن لا يتجاوز اتساعها غير مسافة رحلتين. وبين مصر والنّوبة Nubia يوجد صحراء على مساحة أحد عشر يوماً من السّفر، وأهل النّوبة مسيحيون ولكنهم سود مثل المغاربة Moors من شدة حرارة الشّمس.

يوجد في مصر خمسة مقاطعات: إحداها الصَّعيد Sahythe، والأخرى Demeseer، والأخرى رَشيد Resith، التي هي جزيرة في نهر النّيل، والأخرى الإسكندريّة Alexandria، والأخرى أرض دمياط Damietta.

كانت هذه المدينة (دمياط) قوية ومحصّنة، ولكن غنمها المسيحيون مرتين، ولذلك فيما بعد هدم المسلمون أسوارها، ومع الأسوار هدموا البرج، وبنوا مدينة أخرى أكثر بعداً عن البحر وأسموها دمياط الجديدة، ولهذا الآن لا يوجد أحد يسكن في دمياط القديمة التي تقع أسفل دمياط الجديدة. وفي مدينة دمياط هذه واحد من أهم المرافئ في مصر وفي الإسكندرية واحد أخر. وهي بلد مليئة بالمدن الحصينة، ولكن لا يوجد ماء للشرب بل يؤتى بالماء من النّيل الذي يدخلونه إلى مدنهم حيث لا يمكن لهم البقاء هناك إذا قطعت هذه الماء عنهم. وفي مصر يوجد القليل من الحصون forcelets، لأن هذه البلد منيعة بذاتها.

في صحراء مصر كان يوجد رجل جدير بالاهتمام، وكان ناسكاً مقدّساً، قابل يوماً وحشاً (المقصود بالوحش هنا مخلوق مزيج من الجنس البشري والحيواني، ومن الممكن أن يكون من جنس آخر وهذا هو الذي يسمّى وحشاً) فهذا الوحش الذي التقاه النّاسك المقدّس كان كرجل له قرنان حادّان على جبهته وله جسم كجسم الإنسان حتى السّرّة، وتحت السّرّة له جسم ماعز.

سأله النّاسك عما كان عنه قبل ذلك، فاجاب الوحش بأنه كان مخلوقاً مميتاً حيث أن الله جعل هيئته كذلك وسكن في هذه الصّحارى ليصطاد ويحصّل رزقه. وتوسّل

إلى النّاسك بأن يصلّي لله من أجله، وبالذي أتى من الجنة لينقذ الجنس البشري كله، وكان ولد من عذراء وقاسى من العذاب والموت (كما نعرف جيداً) اللذين بهما نعيش ونكون. ومازال الرّأس مع قرني هذا الوحش في الإسكندرية كمعجزة.

في مصر توجد مدينة هليوپوليس التي يقال إنها مدينة الشّمس، وفي هذه المدينة يوجد معبد دائري الشّكل على هيئة معبد القدس. وأحبار هذا المعبد لديهم كل كتاباتهم المؤرخة بتاريخ الطّير الذي يسمّى العنقاء، والذي لا يوجد غير طير واحد منه في العالم. والذي أتى ليحرق نفسه على المذبح في هذا المعبد في نهاية الخمسمئة عام التي عاشها. وعند نهاية هذه الخمسمئة سنة رتب القدّيسون مذبحهم بإخلاص، ووضعوا عليه البخور والكبريت وأشياء أخرى تحترق شيئاً فشيئاً وبعدها أتى طائر العنقاء وأحرق نفسه حتى أصبح رماداً.

وفي اليوم الأول بعدها وجد النّاس في الرّماد دودة وفي اليوم الثّاني وجدوا طائراً كاملاً وسريعاً وفي اليوم الثّالث طار بعيداً. ولهذا لا يوجد في العالم كله طيور أخرى من هذا النّوع، وفعلاً كانت معجزة كبيرة من الله، حتى أن النّاس ينسبون هذا الطّير إلى الله، لأنه في ذاك الوقت كان لا يوجد غير إله واحد، وكذلك كان سيّدنا قد أفاق من الموت إلى الحياة في اليوم الثّالث. يرى النّاس هذا الطّير غالباً يطير في هذه البلدان وأنه ليس أكثر من نسر، كما أن لديه عرفاً من الرّيش فوق رأسه أكبر من الذي على رأس الطّاووس، كما يوجد لون أصفر زاهٍ على رقبته يلتمع بشكل كبير، ومنقاره ملوّن باللون الأزرق وأجنحته باللون الأرجواني، وذنبه مائل وملون باللون الأخضر والأصفر والأحمر. وهو طير رائع الجمال وخاصة عندما تنعكس أشعة الشّمس عليه فيظهر بمظهر رائع ومبهر للناظرين.

ويوجد أيضاً في مصر حدائق فيها أشجار وأعشاب تطرح فواكه سبع مرات في السّنة، وفي هذه الأرض يجد النّاس الكثير من الزّمرد الرّائع ولهذا نجده رخيص الثّمن هناك، وأيضاً فيما إذا حدث وأمطرت في الصّيف على أرض مصر، تصبح كل البلاد مليئة بالوحل، وأيضاً في القاهرة التي حدثتكم عنها مسبقاً يبيع النّاس بشكل شائع

الرّجال والنّساء وفق قوانين متبعة هناك، كما نبيع نحن الحيوانات هنا في الأسواق، كما يوجد هناك في تلك المدينة بيت مشترك مليء بالأفران الصّغيرة حيث تأتي نساء المدينة إلى هناك ببيض[1] الدّجاج والأوز والبط ليوضع في هذه الأفران، ويبقى هذا البيت مغطى بروث الأحصنة ليبقى دافئاً، دون أن يحضنه الدّجاج أو البط أو الإوز أو أي نوع آخر من الطّيور، وفي نهاية ثلاثة أسابيع أو في نهاية الشّهر يأتون مرة أخرى ويأخذون دجاجاتهم، ولهذا تجد كل البلد حافلة بها، ويفعل النّاس ذلك صيفاً شتاءً.

وأيضاً في ذلك البلد وفي بلاد أخرى أيضاً يجد النّاس تفاحاً طويلاً للبيع في مواسمهم، والنّاس يسموه تفاح الجنة وهو حلو جداً وله نكهة لذيذة، بالرغم من أنه لا يمكن تقطيع التفاحة إلى أجزاء صغيرة طولياً أو عرضياً، كما يمكنك أن تجدها من ضمن شكل صليب سيّدنا المسيح المقدّس، ولكن هذه الثّمرة تتعفن خلال ثمانية أيام، ولهذا لا يحملها النّاس لبلاد بعيدة، يضعها النّاس أكوام بالمئات منها في سلة ولديهم الكثير من الأوراق في الأسفل ولنصف الطّول، ويجمعوها بشكل كبير. ويجد النّاس أيضاً شجرة تفاح آدم[2] التي يوجد عليها قضمة واحدة من الطّرف. كما يوجد شجر التين الذي يطرح دون أوراق، كما يوجد أيضاً تين ينمو على أغصان صغيرة ويسمّيه النّاس تين الفرعون.

أيضاً بالقرب من القاهرة وخارج هذه المدينة توجد الحقول التي تمتلئ بالبَلسَم balm، وهي تنمو على أشجار صغيرة لا يتجاوز طولها زنار خصر رجل، وتبدو وكأنها خشب دالية برية. وفي الحقل توجد الجدران السبعة التي صنعها سيّدنا المسيح بقدمه عندما ذهب ليلعب مع الاطفال. وهذا الحقل ليس مغلقاً جيداً فتتمكن من الدخول للوصول إلى أغراضها، ولكن في هذا الفصل الذي ينمو فيه البَلسَم يضاعف النّاس

(1) يستعمل ماندفيل كثيراً من التعابير القديمة، ومنها هنا: البيض eyren، جمع ey.

(2) يذكر الرحّالون الغربيون هذا النوع من الثمار مراراً لغرابته، وهو يعرف أيضاً بالبرتقال الصيني والهندي Maclura، ويبلغ ارتفاع شجرته حوالي 20 متراً، والثمرة كبيرة ذات قشرة برتقاليّة مخضرّة مجعدة، واللبّ سميك وكثير البذور. وهي تنمو في أوزبكستان وتركستان والقفقاس وشبه جزيرة القرم.

الحماية للحقل حتى أنه لا يجرؤ أحد على الدخول.

لا ينمو هذا البَلسَم في أي مكان آخر بالرغم من أن بعض النّاس حاولوا أن يأخذوا بعض الشّتلات ليزرعوها في بلاد أخرى لتنمو بشكل جيد وصحّي وتطرح ثمراً، ولكن أوراق البَلسَم لم تسقط فكان النّاس يقطعون هذه الأغصان بحجر صوّان flintstone حادّ أو بعظم حاد، لأنه إذا أراد أحد أن يقطعة بالحديد تنكسر الأداة التي يقطع بها والشّجرة.

ويسمّي المسلمون الخشب *Enonch-Balse* والثمار التي تشبه cubebs يسمّونها *Abebissam* والسّائل الذي يخرج من الأغصان يسمّونه *Guybalse*. ودائماً يأتي النّاس هناك بالمسيحيين ليحرثوا ويزرعوا البَلسَم، وإلا فإنها لن تعطي ثمارها كما قال المسلمون أنفسهم، والتي أثبتت غالباً، وقال النّاس أيضاً بأن البَلسَم ينمو في الهند Ind غالباً في تلك الصّحراء، وكان الإسكندر تكلم عن شجر الشّمس والقمر، ولكني لم أرَ هذا، وذلك لأني لم أذهب بعيداً إلى الأعلى حيث يوجد الكثير من الممرّات الخطرة.

ومن الطّريف أنه يتوجب على المرء أن يكون حريصاً عند شراء البَلسَم، وينبغي أن يكون لديه خبرة فيه، لأنه من الممكن أن يُخدع ببساطة. وذلك لأن النّاس يبيعون ما يسمّى التربنتين turpentine عوضاً عن البَلسَم، ويضعون بعض البَلسَم ليعطي فقط رائحة جميلة. وبعضهم يضع الشمع في زيت خشب ثمار البَلسَم ويقولون بأنه البَلسَم، وبعضهم يستخلص من فصوص القرنفل gilofre ومن النّاردين spikenard من إسپانيا ومن بهارات أخرى تعطي رائحة عطرة، والسّائل الذي يخرج منه يسمّونه البَلسَم، ويظنون أن لديهم بيلسان ولكن ليس لديهم منه أي شيء. وقد زوّره المسلمون بدقة ليخدعوا المسيحيين، كما رأيت عدّة مرات، وكذلك يفعل التجار والصّيدلانيون الذين يزوّرونه أيضاً. ولذلك يصبح أقل قيمة ولا يستحق ثمنه.

وينبغي لي أن أشرح لكم كيف بإمكانكم إثبات النّوع الجيد، كي لا يتمّ خداعكم، فيجب عليكم عمل التالي: أولاً يجب عليكم العلم جيداً بأن البَلسَم الطّبيعي صافٍ جداً ولونه بلون الكبّاد وله رائحة قوية، وإذا كان سميكاً وأحمر أو أسود فهذا يعني أنه

ليس بالنوع الجيد، أو حتى بالإمكان القول بأنه ليس حقيقي، ولكنهم قلّدوه لخداع النّاس، ولعلمكم أنه إذا وُضِع قليلٌ من البَلسَم في كفّ اليد وعُرّض للشمس فإذا كان من نوع جيد وأصلي لن تشعر بأي ألم في يدك نتيجة تعرضها للشمس، وأيضاً يمكنك أخذ قليل من البَلسَم برأس السّكين وقربه من النار، فإذا احترق فهذه علامة جيدة. كما بإمكانكم أخذ نقطة من البَلسَم ووضعها في صحن أو في كأس مع حليب ماعز، فإذا كان البَلسَم طبيعياً فإن الحليب سيفقد تماسكه بعد قليل. أو ضع نقطة من البَلسَم في مياه صافية في كأس من الفضة أو في إناء شفاف، حركها جيداً مع مياه صافية فإذا كان البَلسَم نقياً وغير مخلوط مع شيء آخر فإن الماء لن يتعكّر أبداً ولكن إذا كان البَلسَم مخلوطاً أو مغشوشاً، فان الماء سيتعكر بعد قليل من الوقت، وأيضاً إذا كان البَلسَم نقياً يجب أن يترسّب في أسفل الإناء مثل ما يحدث مع الزّئبق، وذلك لأن البَلسَم النّقي أثقل مرتين من البَلسَم المغشوش والممزوج. وهذا كل شيء عن البَلسَم.

* * *

والآن يجب أن أخبركم عن شيء آخر وراء بابل، أعلى نهر النّيل باتجاه الصّحراء التي بين أفريقيا ومصر، يوجد هري يوسف الذي صنعه ليخزن الحبوب خوفاً من السّنوات العجاف، ولقد صنعه من الحجر وبُني بحرفية عالية حيث كان بناء رائعاً وعالياً ولا يوجد ما يماثله في ضخامته، وكل هري له بوابة للدخول إليه وهي أعلى قليلاً من الأرض، وذلك لأن الأرض قد هبطت منذ الحين الذي بنيت فيه هذه الأهراء. وهي مليئة بالأفاعي. أما فوق المخازن من الخارج فيوجد الكثير من الكتابات المقدّسة مكتوبة بعدة لغات حتى بعض النّاس قالوا بأنها تضمّ أضرحة لملوك عظماء عاشوا في أزمنة غابرة، ولكن هذا ليس حقيقياً فكل أقاويل النّاس هناك القاصي منهم والدّاني تدلّ على أنّ هذه ليست إلا أهراء يوسف، وهذا ما وجدوه في كتبهم المقدّسة وفي تواريخهم المكتوبة. ومن جهة أخرى إذا كانت فعلاً أضرحة، لكان عليهم عدم طمسها، ذلك أنها ليس لها أي باب للدخول إلى داخلها. ولأنه كما تعلمون لا تُشيّد الأضرحة عادةً بهذه الضخامة ولا بذاك العلو، ولذلك لا يمكن التصديق بأنها قبور أو أضرحة.

وفـي مصـر أيضاً توجد لغـات مختلفة وأحـرف مختلفة، لا يمكـن أن تراها في أيّ مكان آخر، ويجب علي أن أطلعكم على أشـكالها وأسـمائها لتعرفوا الفرق بينها وبين اللغات الأخرى:

Athoimis, Bimchi, Chinok, Duram, Eni, Fin, Gomor, Heket, Janny, Karacta, Luzanin, Miche, Naryn, Oldach, Pilon, Qyn, Yron, Sichen, Thola, Urmron, Yph and Zarm, Thoit.

* * *

الفصل الثامن

عن جزيرة صقلية وعن الطّريق من بابل إلى جبل سيناء وعن كنيسة القدّيسة كاثرين وعن كل العجائب هناك

الآن وقبل أن أخبركم بأي شيء آخر، سأعود وأعرض عليكم الطّرق الأخرى التي تذهب باتجاه بابل[1] حيث يسكن السُّلطان والتي هي عند مدخل مصر، حيث يذهب كثير من النّاس من طريق أبعد من هذا، يمرّ بجبال سيناء، وبعدها يعودون إلى القدس كما ذكرت لكم مسبقاً، وذلك لكي يقوموا بالحجّ الأطول وبعدها يعودون ثانية من الطّرق الأخرى، لأن أقرب الطّرق هي الأفضل والتي هي طريق القدس، ولا يوجد أي حجّ آخر يمكن مقارنته بهذا الحجّ. ولكنهم ليقوموا بحجّهم بأمان أكثر فإنهم يفضلون الذهاب من الطّريق الأبعد بدلاً من الطّريق الأقرب.

أما أولئك الذين سيذهبون إلى بابل من طريق أخرى أقصر، فيذهبون من بلاد في الغرب وكنت قد كرّرت ذكرها سابقاً، أو من بلاد أخرى قريبة منهم فإن النّاس يذهبون من فرنسا عبر مقاطعة بورغونديا أو مقاطعة لومبارديا. وليس من الضرورة إخباركم بأسماء المدن والبلدات التي في طريقهم، لأنها طريق شائعة ومعروفة من

(1) ذكرنا أعلاه أنّ تسمية بابل أو بابليون Babylon كان يطلقها الرّحالون الغربيون في القرون الوسطى على مدينة الفسطاط شمالي القاهرة، التي أسّسها عمرو بن العاص بعد فتح مصر عام 641 م وكانت قرب حصن قديم يُعرف باسم بابليون، ويقع في القاهرة القبطيّة وأصل بنائه يعود للإمبراطور تراجان في القرن الثاني للميلاد.

قبل كثير من النّاس. وهناك يوجد الكثير من المرافئ حيث يستطيع النّاس منها ركوب البحر. بعض النّاس يركب البحر من جنوا Genoa وبعضهم من البندقية ويمرون عبر البحر الأدرياتيكي، الذي يدعى خليج البندقية والذي يمرّ بإيطاليا واليونان من الطّرف ذاته، وبعضهم يذهب من نابولي بعضهم إلى روما ومن روما إلى بريנديزي ومن هناك يركبون البحر، ومن أماكن كثيرة أخرى حيث توجد هذه المرافئ، كما يذهب النّاس من توسكانا أو من كامپانيا، من كالابريا وپوليا، ومن تلال إيطاليا، أو من كورسيكا وسردينيا أو من صقلية، التي هي جزيرة جيدة وكبيرة.

في جزيرة صقلية هذه يوجد شكل معيّن للحدائق، التي يوجد بها العديد من الفواكه المتنوعة، والحديقة دائماً خضراء ومزهرة، في كل فصول السّنة في الشّتاء كما الصّيف. يبلغ محيط هذه الجزيرة حوالي 350 ميلاً فرنسياً. وبين صقلية وإيطاليا يوجد فقط مسافة قصيرة في البحر يدعوها النّاس Farde of Messina. وصقلية بين البحر الأدرياتيكي والبحر اللومباردي. ومن صقلية إلى كالابريا فقط خمسة أميال لومبارديّة.

وفي صقلية يوجد نوع من الأفاعي يستخدمها النّاس لإثبات فيما إذا كان أبناؤهم شرعيين أم لا، وإذا كانوا قد ولدوا نتيجة زواج شرعي صحيح، فإذا كانوا قد ولدوا نتيجة علاقة شرعية فإن الأفاعي تذهب من حولهم ولا تصيبهم بأي أذى، ولكن إذا كانوا من علاقة غير شرعية فإن الأفاعي تنهشهم وتسمّمهم. وبهذه الطّريقة يثبت كثير من الرّجال حقيقة نسب أبنائهم إليهم.

وأيضاً في هذه الجزيرة يوجد جبل إتنا Etna الذي يسمّيه النّاس جبل Gybelle والذي تنطلق منه البراكين المحرقة دائماً، وهناك يوجد سبعة أماكن محرقة وتطلق العديد من اللهب المختلف الأنواع والألوان، وبتغيّر هذا اللهب يعرفون متى يكون شحّ في الغذاء ومتى سيكون موسمٌ جيد، أو متى يكون بردٌ أو حرّ أو رطوبة أو جفاف، وحول تغيّر المناخ في جميع الأوقات. والمسافة من إيطاليا إلى هذه البراكين لا تبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً. ويقول النّاس بأن هذه البراكين هي طرق إلى جهنم.

والذي يذهب من پيزا، إذا أراد النّاس الذهاب من هذا الطّريق فإنه يجد فرعاً من

البحـر حيث يذهـب هؤلاء النّاس إلى المرافئ عبر هذه المضائـق. وبعدها يعبر النّاس عبـر جزيـرة Greaf التي هي فـي Genoa وبعد أن يصلـوا إلى اليونان عبـر ميناء مدينة Myrok أو عند مرفأ Valone أو عند مدينة دوراس Duras حيث يوجد دوق في دوراس Duras، أو عبـر أيّ مـن المرافـئ الأخرى في هـذه المضائق، وبنفـس الطّريقة يذهب النّاس إلى القسطنطينية. وبعدها يذهب النّاس عبر الماء إلى جزيرة كريت Crete وإلى جزيرة رودوس وكذلك إلى قبرص وإلى أثينا أيضاً ومن هناك إلى القسطنطينية.

ولاتّبـاع الطّريـق الأصح عبر البحـر، فإنها ألف وثمانمئـة وأربع أميـال لومبارديّة، وبعدهـا من قبرص يذهـب النّاس عبر البحـر ويتركون القـدس وكل البلد إلى جهتهم اليسرى متوجّهين إلى مصر، ثم تصل إلى مدينة دمياط التي ليست محصّنة جيداً والتي تقع عند مدخل مصر. ومن دمياط يذهب النّاس إلى مدينة الإسـكندرية التي تطل على البحر. وفي هذه المدينة قطع رأس القدّيسة كاثرين، وهناك قتل ودفن القدّيس والمبشر مرقس، ولكن الإمبراطور ليو جلب عظامه إلى البندقية.

وحتـى الآن توجـد كنيسـة جميلة في الإسـكندرية، كلهـا بيضاء ولا توجـد فيها أيّة رسـوم وكذلك كل الكنائس الأخرى التي كانت للمسـيحين، كلهـا بيضاء من الداخل وكان الوثنيّـون Paynims والمسـلمون جعلوهـا بيضـاء ليخفوا صور القدّيسين التي كانت مرسومة على الجدران. مدينة الإسكندرية هذه يبلغ طولها ثلاثين فرلنغاً ولكنها عرضهـا يبلـغ فقط عشـرة فرلنغات[1]، وهي فعـلاً مدينة جميلة وجليلـة. وعند مدخل المدينـة يصبّ نهر النّيل في البحر الذي أخبرتكم عنه سـابقاً، في هذا النّهر يجد النّاس الكثيـر من الأحجار الكريمة والصّبار lignum أيضاً، وهي نوعية من الشّـجيرات التي أتت من الجنة الأرضية، يسـتفاد منها في صناعة الكثير من الأدوية المختلفة وهي فعلاً قيّمة. ومن الإسـكندرية يذهب النّاس إلى بابل، حيث يسـكن السُّلطان، التي تقع على نهر النّيل، وهذه الطّريق هي الطّريق الأقصر للذهاب إلى بابل.

الآن يجـب أن أخبركم أيضاً عن الطّريق التي تذهـب من بابل إلى جبل سـيناء حيث

---

(١) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

ترقد القدّيسة كاثرين. والتي تمرّ عبر الصّحارى العربية، وفيها قاد موسى بني إسرائيل، وبعدها يعبر النّاس بقرب من البئر الذي حفره موسى بيديه في الصّحارى، حيث تذمّر النّاس عندما لم يجدوا شيئاً ليشربوه، ومرّوا بقرب بئر Marah الذي كان ماؤه في البداية مرّ الطّعم، ولكن بني إسرائيل وضعوا فيه شجرة وفيما بعد أصبحت الماء حلوة ومناسبة للشرب. وبعدها يذهب النّاس إلى وادي Elim الذي يوجد فيه اثنا عشر بئراً، كما توجد اثنتان وسبعون شجرة نخيل تطرح التمر الذي وجده موسى مع بني إسرائيل، والرّحلة من هذا الوادي إلى جبل سيناء تعتبر فعلاً رحلة طويلة.

والذي يذهب من طريق أخرى من بابل يذهب عبر البحر الأحمر الذي هو فرع من البحر المحيط. وهناك عبر موسى مع بني إسرائيل فوق البحر الجاف، عندما لاحقهم فرعون ملك مصر، وهذا البحر يبلغ من الطّول ستة أميال وفيه غرق فرعون وكل أتباعه. هذا البحر ليس أحمر أكثر من أي بحر آخر، ولكن في بعض المناطق يوجد حصى أحمر ولهذا أسماه النّاس بالبحر الأحمر. وهذا البحر يمتدّ حتى نهاية جزيرة العرب وفلسطين.

تستمر الرّحلة في هذا البحر مدة أربعة أيام، وبعدها يصل المسافرون عبر الصّحراء إلى وادي Elim ومن هناك إلى جبل سيناء، ويجب أن تعرفوا بأنه عبر هذه الصّحراء لا يمكن لأحد أن يذهب على ظهر حصان، وذلك لأنه لا يوجد طعام ليأكل الحصان أو ماء ليشرب، ولهذا يعبر النّاس الصّحراء باستخدام الجمال. لأن الجمل يجد ما يقتات به من الأشجار والشّجيرات هناك، التي يمكن أن تقوته جيداً وبإمكانه البقاء دون ماء يومين أو ثلاثة، وهذا ما لا يستطيع الحصان فعله.

والطريف أن من بابل إلى جبل سيناء تستغرق الرّحلة اثني عشر يوماً، وتستغرق مع بعض النّاس أكثر، وبعضهم الآخر يسرع ولكنها تكون أكثر عناء، ولذلك تأخذ معهم وقتاً أقل. والنّاس دائماً يأخذون معهم بعض اللاتين ليذهبوا معهم في البلاد، وبعد ذلك ومع مرور الوقت يبدأ النّاس بتغيير اللغة، كما ينبغي للناس بأن يحملوا معهم وجبات الطّعام لتقوتهم في هذه الصّحارى والأشياء الأخرى الضرورية ليظلوا على قيد الحياة.

وجبل سيناء هذا يسمّى أيضاً صحراء الخطيئة، وذلك بسبب الشّجيرات التي احترقت هناك، وذلك كان عندما رأى موسى إلهنا الرّب عدة مرات بهيئة نار تتّقد فوق هذه التلة، وأيضاً في شجيرة تحترق وتكلم معه، وهذا كان في أسفل التلة. هناك يوجد دير للرّهبان مبني بشكل متين، ومغلق بشكل محكم بواسطة بوابات من الحديد لإبعاد الحيوانات البرية، والرّهبان هم من العرب أو اليونان، كما يوجد هناك دير كبير للرّاهبات ويسكنه النّساك ولا يشربون الخمر إلا إذا كان عندهم عيدٌ مهم، وهم رجال ورعون وأتقياء ويعيشون بتقشف وبساطة على نبات joutes والتمر ويتعفّفون عن الملذات.

وتوجد هناك كنيسة للقدّيسة كاثرين حيث يوجد الكثير من المشاعل المضيئة، ولديهم الكفاية من زيت الزّيتون للأكل ولإشعال مصابيحهم، حيث حصلوا على الكثير منه بمعجزة من الله، وذلك بتجمع الغربان وطيور الغُداف ravens والقيقان choughs وطيور أخرى من هذا البلد، حيث تجتمع كل سنة مرّة واحدة وتطير بعيداً وكأنها في حج، وكل واحد منها يجلب غصناً صغيراً من الغار أو الزّيتون في منقاره بمثابة تقدمة وتتركها هناك فيتّخذ منها الرّهبان كمية كبيرة من الزّيت، وهذه فعلاً معجزة عظيمة. وتذهب هذه الطّيور التي ليس لها عقل أو سبب تذهب بعيداً لتبحث عن العذراء المجيدة. ممّا ألزم النّاس بالبحث عنها وتكريمها.

وأيضاً خلف مذبح هذه الكنيسة، يوجد المكان حيث شاهد موسى ربنا الله في الشّجيرة المشتعلة. وعندما يدخل الرّهبان المكان يخلعون جواربهم وأحذيتهم أو جزمهم دائماً، لأن ربنا قال لموسى اخلع نعليك لأنك في مكان مقدّس ومبارك. والرّهبان يسمّون المكان بالظليل[1] Dozoleel وذلك يعني ظل الله، وبجانب المذبح العالي وأعلى بمقدار ثلاث درجات يوجد ناووس fertre من المرمر حيث ترقد عظام القدّيسة كاثرين، ويُظهر حبر الرّهبان الأكبر الرّفات للحجّاج بواسطة أداة من فضّة

---

(1) هكذا تبدو لي ترجمة العبارة كما يكتبها بالإنكليزية. وهذه التفاصيل والتسميات تدل على أنه زار أقطار المشرق فعلاً، بخلاف رواياته العجيبة عن جنوب شرق آسيا.

يفرك بها العظام فيخرج منه شيء كالزيت وكأنه يتعرّق ولكن المادة التي تخرج لا تشبه الزّيت ولا البَلسَم، لكنها مليئة بالحلاوة والرّائحة الطّيبة، ومنه يعطون قليلاً للحجاج ومن هناك يخرج كمية قليلة من السّائل وبعدها يعرضون رأس القدّيسة كاثرين والقماش الذي كانت ملفوفة به والذي ما زال مليئاً بالدّماء، وبنفس هذا القماش الذي كانت ملفوفة به، حمل الملائكة جسدها إلى جبل سيناء، وهناك دفنوها به. وبعدها يعرضون الشّجيرة التي احترقت ولم تفقد شيئاً منها، والتي بها تكلم ربنا مع موسى، وبقية الرّفات.

كما أني فهمت من بعض المعلومات أنه عندما يموت حبر المعبد الكبير فإن هذه المشاعل تطفأ، وعندما يختارون حبراً آخر، وإذا كان رجلاً جيداً ويستحق التقدير لكي يصبح حبراً، تضاء المشاعل بتبريك من الله دون لمسها من أيّ إنسان. كما أن كلاً منهم له مشعله الخاص به، وبمشاعلهم يعرفون جيداً متى يموت أي واحد منهم، حيث أنّ الضوء يبدأ بالتغيّر ويصبح معتماً، وإذا اختير ليصبح حبراً، ولم يكن جديراً بالمنصب فإن مشعله يخمد لاحقاً، كما قال لي بعض الرّجال بأنهم يقيمون قداساً للحبر الذي مات، ثم إنهم يجدون على المذبح اسم الحبر الذي اختير.

وفي يوم من الأيام سألت الرّهبان واحداً بعد الآخر كيف حدث هذا، لكنهم لم يقولوا لي شيئاً، غير أنني أعتقد بأنه كان من الواجب عليهم إظهار عظمة الله ونعمته التي أنعم بها عليهم، وكان ينبغي لهم نشرها ليجعلوا النّاس أكثر ورعاً. وبإخفاء معجزة الرّب هذه قد فعلوا خطيئة، فإني أعتقد بأن المعجزات التي فعلها الله وما زال يفعلها كل يوم ما هي إلا شواهد على قوته وقدرته، وكما قال داود في المزامير:
Mirabilia testimonia tua, Domine.

والذي يعني: «معجزاتك يا رّب شواهد عليك».

وبعدها قالوا لي، واحداً بعد الآخر كيف حدث ذلك أكثر من مرّة، ولكن ليس بوسعي أن آخذ منهم أكثر من ذلك.

وفي هذا الدّير لا تدخل أيّة حشرة طائرة أو ضفدعة أو سحلية، ولا أي نوع من أنواع

الحيوانات الضارة أو قمل أو براغيث، وذلك بمعجزة من الله ومن سيدتنا العذراء. هذا لأنه قد جرت العادة أن يوجد الكثير من الأقذار والحشرات في الدّير، ولهذا فقد رغب الرّهبان بأن يتركوا المكان والدّير، وكانوا قد غادروا المكان وبقوا فوق الجبل ليتجنبوا العودة لهذا المكان، فأتت إليهم سيدتنا وطلبت منهم العودة ثانية، ومن بعدها لم تدخل أيّة حشرة طائرة إلى هذا المكان، ولا يجب أن يدخل أي شيء بعد. وأيضاً عند البوابة يوجد جدار حيث ضرب موسى الحائط وخرج منه الكثير من الماء.

ومن هذا الدّير يذهب النّاس عالياً إلى جبل موسى، بعدّة درجات. وبعدها يجدون كنيسة سيدتنا، حيث قابلت الرّهبان هناك، عندما هربوا من الحشرات المذكورة سابقاً. وأعلى فوق ذلك الجبل توجد كنيسة النّبي اليشع، الذي يدعونه ربّاً، والذي عنه تخبر الصّحف المقدّسة:

Et ambulavit in fortitudine cibi illius usque, ad montem Oreb.

وهذا يعني: «وقد ذهب برزمة من الطّعام إلى جبل الرّب حوريب» وقريباً بعد ذلك يوجد كرم عنب كان قد زرعه القدّيس يوحنّا المبشر، ويدعوه النّاس زبيب ستافيس Staphis. وفوق ذلك بقليل توجد كنيسة موسى والصّخر حيث هرب موسى عندما فزع من رؤية ربنا وجهاً لوجه. وعلى هذه الصّخرة طبع شكل جسده، لأنه ضرب بقوة وارتطم بقوة بهذا الحجر، وكذلك ظهر فيه من خلال معجزة من الله. وهناك بجانب هذا الموضع المكان الذي أعطى فيه ربنا موسى الوصايا العشر للدّين. وهناك تحت الصّخر حيث سكن موسى، عندما صام أربعين يوماً وأربعين ليلة. ولكنه مات في أرض الميعاد Land of Promission ولا أحد يعلم أين دفن.

ومن هذا الجبل يعبر النّاس وادياً كبيراً ليذهبوا إلى جبل آخر، حيث دفنت القدّيسة، التي دفنتها ملائكة من الله. وفي هذا الوادي توجد كنيسة الأربعين شهيداً، وهناك ينشد رهبان الدّير مراراً. وهذا الوادي بارد حقاً، وبعدها يذهب النّاس عالياً إلى جبل القدّيسة كاثرين، وهو أعلى من جبل موسى، وهناك حيث دفنت القدّيسة كاثرين وهي لا كنيسة ولا دير ولا مكان للسكن، ولكن كومة من أحجار في المكان، حيث يوجد

جسـدها، الذي كان قد وضعته الملائكة. وكانت توجد هناك كنيسـة لكنها دُمرتْ وما زالـت الأحجـار هناك، ويقال بأن هذا المـكان حيث يوجد رُفات القدّيسـة كاثرين هو نفسـه المـكان حيـث لقّن ربّنا الوصايا العشـر لموسـى، وهناك، حيث دفنت القدّيسـة المباركـة العـذراء كاثرين، وهكذا يعني بأنه في نفس البلـد ونفس المكان الذي يحمل اسـماً واحداً، لأنّ كليهما يسـمّى جبل سيناء. ولكنّ المسـافة كبيرة ما بين أحدهما إلى الآخر، ويفصل بينهما وادٍ عميقٌ جداً.

* * *

الفصل التاسع

عن الصّحراء بين كنيسة القدّيسة كاثرين والقدس وعن الأشجار الجافة وعن أول بداية الزّهور في العالم

الآن، وبعد أن أتمّ الرّجال زيارة هذه الأماكن المقدّسة، بعدها سوف يتحوّلون باتجاه القدس. وبعدها سيأخذون الإذن من الرّهبان، ويلزمون أنفسهم بصلواتهم. وبعدها يعطون الحجّاج من مؤونتهم ليمرّوا عبر الصّحراء باتجاه سوريا. وهذه الصّحارى القاحلة جداً تستغرق رحلة ثلاثة عشر يوماً.

في هذه الصّحراء يسكن العديد من العرب، الذين يدعون البدو والرُّحّل Ascopards، ويعيشون بأوضاع قاسية جداً. وليس لهم منازل وإنما خيام، يصنعونها من جلود الحيوانات، كالجمال أو من الحيوانات الأخرى التي يأكلونها، وتحت هذه الجلود ينامون ويسكنون في مكان حيث يوجد الماء، كالبحر الأحمر أو أي مكان آخر، لان هذه الصّحراء تتصف بندرة الماء. ويحدث غالباً أنهم عندما يجدون الماء مرة في مكان معيّن لا يجدونه ثانية في نفس المكان، وبسبب ذلك فإنهم لا يمكثون هناك.

وهؤلاء القوم الذي أتكلم عنهم لا يحرثون الأرض ولا يشتغلون بأي شيء، لأنهم لا يأكلون الخبز، وإنما في حال إقامتهم قرب مدينة كبيرة فإنهم يذهبون هناك ويأكلون الخبز أحياناً. كما أنهم يشوون لحومهم وأسماكهم فوق أحجار ساخنة معرّضة للشمس. كما أنهم أناس أقوياء ويجيدون القتال، ويوجد هناك عدد كبير لا يحصى من

هؤلاء القوم، كما أنهم لا يهتمون بأي شيء، ولا يفعلون شيئاً سوى مطاردة الحيوانات وأكلها. ولا يهتمون بعمل أي شيء في حياتهم، ولذلك فإنهم لا يخافون السُّلطان، ولا أي أمير آخر، ويتجرّأون على محاربته، إذا فعل أيّ شيء فيه ضيم لهم. وقد حاربوا السُّلطان عدة مرات، واحدة منها كانت عندما كنتُ بصحبته[1]. ولا يحملون شيئاً سوى درع واحد ورمح واحد، دون أيّة أسلحة أخرى، ويلفّون رؤوسهم وأعناقهم بكمية كبيرة من قماش الكتّان الأبيض، كما أنهم يعتبرون شرسين وكاسرين، ذوي طبيعة ضارية.

* * *

وعندما يعبر الرّجال هذه الصّحراء، باتجاه القدس يصلون إلى بئر السّبع Bersabe التي كانت مدينة جميلة ومليئة بالمسيحيين، ومازالت إلى الآن بعض من كنائسهم. في هذه المدينة سكن لوقت طويل النّبي إبراهيم، ومدينة بئر السّبع هذه أنشأتها زوجة القائد أوريا Uriah التي منها رُزق الملك داود بسليمان الحكيم، الذي كان ملكاً للقدس وكذلك كل سلالته حتى الابن الثّاني عشر، حيث دامت مملكتهم أربعين سنة.

ومن ذلك المكان يذهب الرّجال إلى مدينة الخليل، حيث يصعدون حوالي اثني عشر ميلاً. وهذا الطريق يدعى أحياناً وادي مَمرا Mamre وكان في بعض الأحيان يدعى وادي الدّموع، لأن آدم بكى هناك مئة عام لموت ابنه هابيل، الذي قتله قايين. كانت الخليل المدينة الرّئيسية في فلسطين، وهناك سكن في وقت مضى العمالقة. وهذه المدينة كانت أيضاً مركزاً كهنوتياً، حيث يمكننا القول بأنها كانت ملاذاً من جماعة يهوذا، وقد كانت فعلاً مدينة حرّة حيث كان النّاس هناك دائماً يستقبلون جميع أنواع الهاربين من أمكنة أخرى إذ اقترفوا أعمالاً آثمة. وفي البدء أتى إلى الخليل يشوع وكالب وأشياعهم للتجسس، في رغبة منهم ليحصلوا على أرض Behest. وفي الخليل كان أول حُكم للملك داود، واستمرّ سبع سنوات ونصف، وفي القدس حكم ثلاثاً وثلاثين سنة ونصف.

---

(1) هذا خبر مهم حول مكوث ماندفيل فترة ما بصحبة سلطان مصر المملوكي.

وفي الخليل توجد كل قبور الأنبياء الأوائل: آدم، إبراهيم، إسحق ويعقوب، وزوجاتهم حواء، وسارة وربقة Rebecca، وليئة Leah، وهذه القبور يحافظ عليها المسلمون بشكل غريب، ويحظى المكان بتبجيل وتوقير كبيرين لوجود هؤلاء الآباء المقدّسين الذين يرقدون هناك. ولا يسمحون بدخول أيّ مسيحي إلى هذا المكان، إلا إذا كان لديه حظوة خاصة من السُّلطان، وذلك لأنهم يعتبرون المسيحيين واليهود كالكلاب، وينبغي ألاّ يدخلوا إلى الأماكن المقدّسة. ويسمي النّاس هذا المكان حيث يرقدون في الكهف المزدوج Double Spelunk أو الخندق المزدوج Double Ditch، وهذا لأنهم يرقدون واحداً فوق الآخر، وقد سمّى المسلمون هذا المكان بلغتهم *Karicarba*(1) والذي يعني: «مكان الآباء» ويسمّي اليهود هذا المكان «أبّوت»(2) *Arboth* وفي نفس هذا المكان كان بيت إبراهيم، وهناك حيث كان جالساً ورأى ثلاثة أشخاص فلم يعبد إلا واحداً كما أخبرت الصّحف المقدّسة:

Tres vidit et unum adoravit.

وهذا يعني: «ولقد رأى ثلاثاً وعَبَدَ واحداً» ومن هؤلاء ذاتهم استقبل إبراهيم الملائكة في بيته.

وقريباً جداً من هذا المكان يوجد كهف في الصّخر، حيث سكن آدم وحواء عندما طُردا من الجنة، وهناك رزقا بأطفالهما. وفي هذا المكان نفسه كان تشكيل آدم وخلقه، كما يقول بعض النّاس (لأن أناساً آخرين كانوا يقولون بأن المكان كان في دمشق، حيث أن دمشق كانت مكان العبادة) بأنه بعد خلقه هناك انتقل إلى جنّة النّعيم، كما قالوا، وبعد هذا طُرد خارج الجنة حيث تُرك. وفي نفس اليوم الذي وضع به في الجنة أخرج منها بسبب الخطيئة التي ارتكبها لاحقاً. وهناك بداية وادي الخليل الذي يمتد بقرب القدس. وهناك أمرت الملائكة آدم بأن يسكن مع زوجته حوّاء، التي منها رزق

---

(1) يخيّل لي أن هذه التسمية محرّفة عن: قبر الآباء، لأنّ التسمية التي أطلقها اليهود: آبوت كذلك تعني الآباء.

(2) هذا صواب التسمية Abboth وليس Arboth كما ترد في النصّ محرّفة. ومعنى العبارة آبوت في العبريّة אבות الآباء.

بشيث Seth الذي من سلالته ولد السّيد المسيح.

وفي هذا الوادي يوجد حقل، حيث يخرج النّاس شيئاً من الأرض يدعى cambile يأكلونه عوضاً عن البهارات، ويحملونه لبيعه. ولا يلزم أن يحفر النّاس حفرة أو كهفاً، ولكن تخرج التربة من الأرض بشكل عميق وواسع، وفي نهاية العام تعود وتمتلئ حتى حوافها بقدرة من الله وفضل.

وعلى بعد ميلين من الخليل يوجد قبر لوط الذي كان شقيق إبراهيم.

وقريباً من الخليل يوجد جبل ممرا Mamre الذي سمّي الوادي على اسمه، وهناك توجد شجرة بلوط يسميها المسلمون الدِّلبة[1] *Dirpe* وهي موجودة منذ زمن إبراهيم، كما يسمّيها النّاس الشّجرة الجافة. ويقولون إنها موجودة منذ بداية العالم، وقد كانت يوماً ما خضراء ومليئة بالأوراق، ولكنها جفّت عندما مات سيّدنا على الصّليب، وكذلك كان حال كل الأشجار فيما بعد في كل العالم. وبعضهم يقول بتنبؤاتهم بأن حاكماً وأميراً من الجانب الغربي من العالم سوف يأخذ أرض الميعاد Promission التي هي الأرض المقدّسة بمساعدة المسيحيين، ويجب عليه أن يتلو قداساً تحت هذه الشّجرة الجافة، وبعدها فإن الشّجرة ستكتسي بالخضرة وستطرح أوراقاً وثماراً، ومن خلال هذه المعجزة سيتحول كثير من المسلمين واليهود إلى العقيدة المسيحية، ولهذا فإنهم يقومون بأداء الصّلوات هناك بشكل كبير، وتظلّ المنطقة غاصّة بالناس. وبالرغم من أنها جافة فما تزال لها قيمة كبيرة، وهي تحمي مَن كان مؤمناً من الوقوع في الآثام، فلا يكون حصانه أعرج، ولها عدة فضائل أخرى ولهذا فالنّاس ينظرون إليها بكثير من الاعتبار.

* * *

يذهب الرّجال بعدها من الخليل إلى بيت لحم في غضون نصف يوم، لأنها تبعد

(1) يتضح لي أن المقصود من هذه التسمية Dirpe: الدِّلبة أي شجرة الدِّلب Plane tree بالإنكليزيّة، ولكن تشتهر في النصوص الدّينيّة تسمية: بلّوطة مَمرا، وبالطبع شجر البلّوط (أو السّنديان كما يسمّى في بلاد الشام) لا علاقة له بالدِّلب.

فقط خمسة أميال، والطّريق بينهما جيملة جداً وحافلة بالسّهول والغياض التي تبهج النّفس. وبيت لحم مدينة صغيرة، طويلة وضيقة ومحصنة بشكل جيد، مزودة على كل جوانبها بقناة مائية جيدة الحجم، وقد جرت العادة على تسميتها «أفراتة»، كما قيل في الكتاب المقدّس:

Ecce, audivimus eum in Ephrata.

الذي يعني «وقد سمعناه في أفراتة Ephrata».

وباتجاه الشّرق حيث أقصى المدينة توجد كنيسة رائعة الجمال وأنيقة، وبها توجد عدّة أبراج وبريجات مدبّبة pinacles وزوايا، وهي قوية جداً ومبنيّة بطريقة غريبة، وفي داخل هذه الكنسية يوجد أربعة وأربعون عموداً من الرّخام الرّائع الجمال.

وبين المدينة والكنيسة يوجد حقل *Floridus* ومعناه: الحقل المُزدهر، وذلك لأنه كان فيه عذراء جميلة كانت قد اتهمت زوراً، ولوّثت سمعتها بأنها قد اقترفت الزّنا، ممّا تسبّب في إدانتها بالموت، والحكم عليها بالحرق في هذا المكان الذي اقتيدت اليه. وعندما بدأت النّار تشتعل، بدأت بصلاتها لربّنا، ولأنها كانت حكيمة وغير مذنبة، فإنه ساعدها وجعلها معروفة لكل النّاس بفضل رحمته العظيمة. وعندما تلت هذه الصّلاة زُجّت في اللهيب، وفي لحظة إدخالها للنار خمدت النّار وانطفأت، وتحوّلت أغصان الأشجار التي اشتعلت إلى أغصان ذوات أزهار حمراء، والأغصان التي لم تشتعل تحولت إلى أشجار ذوات أزهار بيضاء، مليئة بالزهور. وهذه كانت أول أشجار مزهرة بزهور بيضاء وحمراء، لم يرَ مثلها من قبل أي إنسان، وهكذا أنقذت هذه الفتاة برحمة وفضل من الرّب. ولهذا يُدعى هذا الحقل بحقل الرّب المُزدهر، لأنه مليء بالزهور.

وبجانب جوقة المنشدين في الكنيسة، في الجانب الأيمن، وعندما يتجه الرّجال ستين درجة إلى الأسفل، هناك المكان حيث ولد سيّدنا، وهو مليء بالرّخام المزين، المطلي بوفرة بالذهب والفضة واللازورد وعدة ألوان أخرى. وعلى بعد ثلاث خطوات توجد حظيرة الثّور والحمار، وبجانب ذلك يوجد المكان حيث سقطت النّجمة، هذا الذي قاد الملوك الثّلاثة: Jasper، Melchior Balthazar ولكن الإغريق يسمّونهم:

واليهود يسمّونهم بالعبرية: *Galgalath*, *Malgalath*, and *Seraphie* ،*Appelius*, *Amerrius*, and *Damasus*.

هؤلاء الملوك الثّلاثة قدّموا لسيّدنا ذهباً وبخوراً ونوعاً من الثّمار يدعى المِرّ الذي هو عبارة عن ثمرة جميلة الرّائحة ومرّة الطّعم. وقد تقابلوا بمعجزة من الرّب، حيث تقابلوا جميعاً في مدينة في الهند Ind، يدعوها النّاس Cassak وهي على مسافة رحلة ثلاثة وخمسين يوماً من بيت لحم، وقد كانوا في بيت لحم خلال ثلاثة عشر يوماً، وهذا كان رابع يوم بعد أن رأوا النّجمة، وعندها تقابلوا في هذه المدينة، وهكذا كانوا في بيت لحم خلال تسعة أيام وهذه كانت معجزة عظيمة.

وأيضاً وتحت الممرّ الذي في الكنيسة، بحوالي ثماني عشرة درجة على الجانب الأيمن، يوجد مكان حفظ الأموات الأبرياء، حيث ترقد عظامهم. وأمام المكان الذي ولد به مخلّصنا يوجد ضريح القدّيس إيرونيموس Jerome الذي كان قدّيساً وكاردينالاً، وهو الذي ترجم الإنجيل والمزامير من العبريّة إلى اللاتينية. وخارج المعبد يوجد الكرسي الذي كان يجلس عليه عندما كان يترجمه، وبعيداً قرب الكنيسة بحوالي ستين قامة[1] fathom توجد كنيسة القدّيس نيقولاوس Nicholas حيث أراحت سيدتنا نفسها بعد أن أضيئت بنور ربّنا. وذلك لأنها كانت تحمل الكثير من الحليب في ثدييها، الشّيء الذي أحزنها بأنها درّته على صخور حمراء من الرّخام، وما تزال العلامات ترى في الصّخور بلونها الأبيض.

ويجب عليكم أن تعرفوا، بأن كل الذين سكنوا في بيت لحم كانوا قوماً مسيحيين.

وهنالك توجد كروم عنب جميلة فوق المدينة، والكثير من أنواع النّبيذ الجيد، الذي صنعه ناس مسيحيّون. ولكن المسلمين لم يبقوا أيّاً من هذه الكروم فهم لا يشربون النّبيذ أبداً، وذلك وفقاً لقانون كتبهم التي جاءهم بها محمّد Mahomet، والذي تدعى القرآن *Al Koran*، وبعضهم يسمّونه المُصحف *Mesaph*، وبلغة أخرى تدعى حُرمة

(1) مقياس القامة fathom يعادل 1.8288 متراً.

Harme وهذا الكتاب يحرّم عليهم شرب النّبيذ. لأن في هذا الكتاب لعن الله كل من يشرب النّبيذ أو من يبيعه، لأن بعض الرّجال قالوا بأنه مرة قتل رجلٌ أحد الأحبار وكان القاتل ثملاً، وكان محمّد يحبّ المقتول كثيراً، ولهذا لعن النّبيذ وكل من يشربه. ولكن اللعنة ارتدّت على القاتل كما قيل في الكتاب المقدّس:

Et in virticem ipsius iniquitas ejus descendet.

والذي يعني: بأن شرّه سوف ينقلب عليه ويصيب رأسه.

كما أن المسلمين لا يجلبون أياً من الخنازير، ولا يأكلون شيئاً من لحمها، وذلك بأنهم يقولون بأنه أخ للإنسان وكان محرّماً في الدين القديم، ويعتبرون أكله شيئاً بغيضاً جداً ومكروهاً. وكذلك في أرض فلسطين وفي أرض مصر، لا يأكلون إلا قليلاً من لحم العجل أو البقر، إلا إذا كانت كبيرة في السّن فلا يمكنها التنقل لكبرها لأن هذا محرّم، وأيضاً لأنهم ليس لديهم منها إلا القليل، ولهذا فهم يطعمونها في بلادهم.

وفي مدينة بيت لحم ولد الملك داود، وكان له ستون زوجة، والزّوجة الأولى كانت تدعى ميشال Michal، كما كان له ثلاثمئة جارية.

تبعد القدس عن بيت لحم مسافة ميلين فقط، وفي الطّريق إلى القدس وعلى بعد نصف ميل من بيت لحم توجد كنيسة، حيث تكلم الملاك مع رُعاة ولادة المسيح. وفي ذلك الطّريق يوجد ضريح راحيل Rachel التي كانت أمّ يوسف النّبي، وقد ماتت بعد أن ولدت ابنها بنيامين Benjamin. وكان قد دفنها هناك زوجها يعقوب Jacob، وقد وضع اثني عشر حجراً كبيراً عليها علامة على أنها ولدت اثني عشر ولداً. وبنفس الطّريق وعلى بعد نصف ميل من القدس، تظهر نجمة الملوك الثّلاثة، وفي هذا الطّريق أيضاً توجد عدة كنائس للمسيحين، ومن خلالها يذهب النّاس باتجاه مدينة القدس.

* * *

الفصل العاشر

عن الحجّاج في مدينة القدس
وعن الأماكن المقدّسة الموجودة هناك

وبعد، سأخبركم عن مدينة القدس المدينة المقدّسة، فليكن في علمكم أنها مدينة غاية في الجمال تقع بين الهضاب، وهناك لا يوجد أي أنهار أو آبار، ولكن الماء يصل اليها من الخليل، واعلموا بأن القدس مدينة قديمة منذ زمن ملكيصادق Melchisadech وكانت تدعى يَبوس Jebus وبعدها أصبحت تدعى Salem وفي زمن الملك داود دُمج هذين الاسمان سوياً ليصبح اسمها Jebusalem وبعدها سمّاها الملك سليمان Jerosolomye وبعد ذلك سمّاها النّاس أورشليم Jerusalem الاسم الذي ما زالت تسمّى به حتى الآن.

وحول مدينة القدس توجد مملكة سوريا. وقريباً منها توجد أرض فلسطين، وبجانبها توجد عسقلان Ascalon وبجانبها توجد أرض Maritaine ولكن القدس توجد في أرض اليهوديّة Judea وتدعى اليهوديّة لأن يهودا المكابي Judas Maccabeus كان ملكاً لهذه البلد، وتمتدّ شرقاً حتى المملكة العربية. وفي الجانب الجنوبي توجد أرض مصر، وفي الجانب الغربي يوجد البحر الكبير، وشمالاً توجد مملكة سوريا حتى بحر قبرص. وكان من المعتاد أن تكون القدس مركزاً للأساقفة والبطاركة ورئيس الأساقفة لكل البلد.

وحول القدس توجد المدن التالية: الخليل Hebron التي تبعد عنها سبعة أميال،

وأريحا Jericho التي تبعد ستة أميال، بئر السّبع وتبعد ثمانية أميال، وعسقلان Ascalon تبعد سبعة عشر ميلاً، حيفا تبعد ستة عشر ميلاً، الرَّملة Ramath تبعد ثلاثة أميال، وبيت لحم تبعد ميلين. وعلى بعد ميلين من بيت لحم باتجاه الجنوب توجد كنيسة القدّيس Karitot الذي كان رئيس الرّهبان، والذي تصدّق على روحه الكثير من الرّهبان عندما مات، ولا يزالون حتى الآن في حزن وأسى عليه بنفس الطّريقة التي كانوا عليها عندما مات، وهي من أكثر مظاهر الأسى التي يمكن أن نراها.

هذه البلد وهذه الأرض التي تدعى القدس تنقلت بين كثير من الحضارات، ولهذا السّبب كانت غالباً ما تعاني من المحن بسبب خطايا النّاس الذي سكنوا فيها، ومن بين هذه الحضارات والشّعوب التي كانوا في هذه البلد نذكر: اليهود، والكنعانيين Canaanities، الآشوريين Assyrians، الفرس، الميدين Medes، المقدونيين Macedonians، الإغريق، المسيحيين، المسلمين، البربر، الأتراك، التّتار Tartars، وكثيراً من شعوب وأمم مختلفة أخرى. وذلك لأن الرّب لم يبقها طويلاً في أيدي خونة ومخطئين من المسيحيين أو أيّ من الشّعوب الأخرى. والآن يوجد الوثنيون في هذه الأرض التي يحكمونها منذ أكثر من أربعين عاماً، ولكن لن تبقى معهم طويلاً إن شاء الله.

كما يجب أن تعلموا بأنه عندما يأتي النّاس إلى القدس يبدأ حجّهم بالذهاب إلى كنيسة القبر المقدّس، حيث دُفن سيّدنا المسيح، وهي خارج المدينة من الجانب الشّمالي، ولكنها الآن توجد داخل سور المدينة. وهناك توجد كنيسة رائعة الجمال لها شكل دائري ومفتوحة من الأعلى، ومغطاة بالرّصاص، وفي الجانب الغربي يوجد برج جميل توجد في أعلاه أجراس متينة.

وفي وسط الكنيسة يوجد الهيكل، وهو عبارة عن بيت صغير له باب منخفض صغير، وهذا الهيكل مبني بشكل نصف دائرة، وهو مشبع بشكل مذهل وغني باللون الذهبي واللازوردي وغيرها من الألوان الغنية والجميلة التي تعطيه مظهراً فخماً. وفي الجانب الأيمن من المعبد يوجد ضريح سيّدنا المسيح، ويبلغ طول هذا المعبد ثمانية

أقدام وعرضه خمسة أقدام، وارتفاعه أحد عشر قدماً. ومنذ زمن غير بعيد كان الضريح كله مفتوحاً، حيث كان من الممكن للناس أن يقبّلوه ويلمسوه، ولكن الحجّاج كانوا يبالغون بذلك ممّا أدّى إلى تكسّر الأحجار إلى أجزاء صغيرة أو حتى إلى تراب، ممّا دفع السُلطان إلى الأمر بإنشاء جدار حول الضريح بحيث لا يمكن لأي إنسان مسّه. ولكن في الجانب الأيسر من الجدار حيث يوجد المعبد وعلى علوّ يقدّر بطول إنسان، يوجد حجر كبير بحجم رأس إنسان، حيث الضريح المقدّس، ويقبّل الحجيج الذين يصلّون هناك هذا الحجر. وفي هذا المعبد لا توجد أيّة نافذة، ولكنه مضاء بمصابيح معلّقة مقابل الضريح. كما يوجد مصباح معلق قبالة الضريح يشعّ بالنّور، وفي يوم الجمعة العظيمة يشتعل من تلقاء نفسه في ذلك الوقت حيث قام سيّدنا المسيح من الموت إلى الحياة.

أيضاً في داخل الكنيسة من الجانب الأيمن بجانب مكان منشدي الكنيسة، يوجد جبل الجلجلة حيث وُضع سيّدنا المسيح على الصّليب، وهو عبارة عن أحجار بيضاء موشّحة قليلاً بالأحمر. وكان الصّليب قد هُيّئ ونُصب في نفس هذا الصّخر وعلى هذه الصّخرة نزفت جراح سيّدنا المسيح عندما ثُبّت على الصّليب. وهذا الذي يسمّى بالجُلجلة.

وفوق جبل الجُلجلة هذا ببضع درجات يوجد ثقب في الحجر حيث وُجد رأس آدم بعد طوفان نوح، وهذه إشارة إلى أنه يجب دفع ثمن خطايا آدم في المكان نفسه. وفوق تلك الصّخرة قدّم إبراهيم أضحيته لربنا. كما يوجد مذبح، وأمام هذا المذبح يرقد غودفروا دي بويّون Godefray de Bouillon وبودوان Baldwin وغيرهما من ملوك القدس المسيحيين.

وهناك قريباً من المكان الذي صُلب فيه السّيد المسيح كُتب باليونانية:

Ο θεος Βασιλευς ημων προ αιωνων ειργασατο σωτηριαν εν μεσω της γης.

والتي تعني باللاتينية:

Deus Rex noster ante secula operatus est salutem, in medio terrae.

وهذا ما معناه:

«هذا الرّب ملكنا، قبل العالمين جُعِل الرّخاء في وسط الأرض».

وأيضاً على تلك الصّخرة، حيث نُصب الصّليب حُفر في الصّخر الكلمات التالية:

O ειδεις, εστι Βασις της πιστεως ολης του κοσμου τουτου.

التي تعني باللاتينية:

Quod vides, est fundamentum totius fidei mundi hujus.

ومعناه:

«هذا الذي ترى، هو أساس الإيمان في العالم بأكمله».

* * *

كما يجب أن تعلموا، بأنه عندما وُضع سيّدنا المسيح على الصّليب كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر. وكانت نبوءة داود قد قالت:

Quadraginta annis proximus fui generationi huic.

وهذا يعني: «وقد كنت مجاوراً لهذا الجيل أربعين عاماً» وهكذا نرى بأن النّبؤة ليست صحيحة. ولكن كليهما يكون صحيحاً لأنه وفي الزّمن القديم كان النّاس يعتبرون السّنة عشرة أشهر، حيث كان شهر مارس هو الشّهر الأول في السّنة، وشهر ديسمبر كان آخر الأشهر. ولكن غايوس Gaius الذي كان إمبراطور روما، أضاف شهرين آخرين هما يناير وفبراير، فأضحت السّنة تتألف من اثني عشر شهراً، وعدّتها 365 يوماً. ما عدا السّنة الكبيسة، بعد الدورة الكاملة للشمس. ولهذا إذا عددنا عشرة أشهر من السّنة، نرى أنه مات في السّنة الأربعين، كما قالت النّبوءة ووفقا للسنة المكوّنة من اثني عشر شهراً فقد توفي بعمر ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أشهر.

وكذلـك وعلـى جبـل الجُلجلة، وعلـى الطّرف الأيمـن يوجد المذبـح حيث يمتدّ العمود الذي رُبط إليه السّيد المسيح عندمـا كان يُجلد، وبجانبه توجـد أربعة عواميد أخـرى مـن الصّخر وهـي دائماً تنقـط ماء، وبعـض النّـاس يقولون بأنهـا تبكي لموت سيّدنا المسـيح. وقريباً من ذلك المذبح يوجد مكان تحت الأرض يبلغ عمقه حوالي اثنيـن وأربعين درجـة، حيث وُجد الصّليـب المقدّس، بحدس القدّيسـة هيلينا، تحت الصّخـر حيـث خبّأه اليهود. وهـذا كان الصّليب الذي فُحِص مليّـاً، حيث أنهم وجدوا ثلاثة صلبان، واحداً للسيد المسيح واثنين للصّين، وقد أثبتتهم القدّيسة هيلينا بالجسد الميت الذي عاد إلى الحياة من الموت عندما كان ممدّداً عليه، بأن سـيّدنا المسـيح قد مـات عليه. وبذلك وفي الجدار يوجد المكان حيث أودعت مسـامير السّـيد المسـيح الأربعة، لأنه كان له في يديه اثنان وفي قدميه اثنان.

ومـن واحد منها صنع إمبراطور القسـطنطينيّة لجاماً لفرسـه ليحميـه أثناء المعركة، وبسـبب فضلـه تغلّب على أعدائه، ونال كل أرض آسـيا الصّغـرى، التي هي عبارة عن تركية، وأرمينيا الصّغرى والكبرى، ومن سـوريا إلى فلسـطين، ومن جزيرة العرب إلى بـلاد الفُرس، ومن بلاد الرّافدين Mesopotamia إلـى مملكة حلب، ومن مصر العليا والسّفلى وكل الممالك الأخرى حتى عمق إثيوبيا، وإلى الهند Ind الدنيا التي أصبحت فيما بعد مسيحية.

كمـا كان يوجد في ذلك العصر عدد من الرّجال المقدّسـين والنّسـاك المقدّسـين، الذيـن تحـدّث عنهـم كتـاب حيـاة أبينا. وهـم الآن موجـودون[1] فـي أيـدي الوثنيين Paynims وأيادي المسلمين، ولكن عندما يشاء الرّب القدير، وكما ضاعت الأراضي مـن أيادي المسـيحيين بسـبب خطيئتهم، سـوف يغنمونها ثانيـة بالرّجال المسـيحيين وبمساعدة الرّب.

وفـي منتصـف هـذه الكنيسـة يوجد دائـرة حيث مَـدّد يوسـف الرّامـي Joseph of Arimathea جسـد سيّدنا المسـيح عندما إنزله من على الصّليب، وهناك غسل جروح

(1) يعني قبورهم ومشاهدهم الدّينية.

سيّدنا المسيح، ويقول النّاس إن هذه الدائرة هي مركز العالم.

وفي كنيسة الضريح بالجانب الشّمالي يوجد المكان الذي سُجن فيه سيّدنا المسيح (حيث أنه كان قد سُجن في عدة أماكن)، كما يوجد هناك جزء من السّلسلة التي قُيّد بها، وهناك ظهر للمرة الأولي لمريم المجدلية عندما بُعث، وقد كانت ظنته بستانياً.

كان من المعتاد أن تكون كنيسة القيامة تتبع مرجعيّة القانون الكنسي التابع لسلك القدّيس أوغسطين Augustine، وكان لها رئيس دير ولكنهم كانوا تحت إمرة البطريرك.

وخارج أبواب الكنيسة من الجانب الأيمن باتجاه الأعلى بحوالي ثماني عشرة درجة، قال سيّدنا الميسح لأمه:

Mulier, ecce Filius tuus.

وهو يعني: «يا امرأة، هو ذا ابنُك».

وبعدها قال لتلميذه يوحنّا John:

Ecce mater tua.

ومعناه: «هي ذي أمّك».

وهذه الكلمات قالها على الصّليب، وعلى هذه الدّرجات ذهب سيّدنا المسيح عندما حمل الصّليب على كتفه. وتحت هذه الدّرجات يوجد معبد صغير وفي هذا المعبد ينشد القساوسة باللغة الهندية، وما ينشده القساوسة الهنود ليس تبعاً لقانوننا بل تبعاً لقوانينهم، ودائماً يجعلون أسرارهم المقدّسة عند المذبح بقولهم: «أبانا» *Pater Noster* وكذلك يفعل المصلّون الآخرون مع أولئك المصلّين الذين يقولون الكلمات التي تتألف منها أسرار الكنيسة هذه، لأنهم لا يعرفون الإضافات التي أضافها باباوات الكنيسة، ولكنهم ينشدون بإخلاص وورع شديدين. وبالقرب من هناك يوجد المكان حيث أراح السّيد المسيح نفسه بعد أن كان منهكاً من حمل الصّليب.

كما يجب أن تعلموا بأنّ أمام كنيسة القيامة يوجد مكان ضعيف جداً أكثر من أي جزء آخر من المدينة، وذلك بسبب السّهل الكبير الذي بين الكنيسة وبين المدينة. وباتجاه

الجزء الشّرقي وخارج أسوار المدينة يوجد وادي يهوشافاط Jehosaphat الذي يصل حتى الأسوار كما توجد قناة ماء كبيرة. وفوق وادي يهوشافاط Jehosaphat خارج المدينة توجد كنيسة القدّيس إسطفان Stephen حيث رُجم بالحجارة حتى الموت. وبالقرب من هناك توجد البوابة الذهبية التي لا تُفتح، وهي البوابة التي دخل منها سيّدنا المسيح يوم أحد الشّعانين راكباً حماره، وكانت البوابة قد فُتحت له عندما أراد أن يتوجّه إلى داخل المعبد، وما تزال علامات خطوات الحمار ظاهرة في ثلاث أماكن من الدرجات الصّخرية.

ومقابل كنيسة القيامة باتجاه الجنوب بحوالي 200 خطوة يوجد مشفى كبيرة للقدّيس يوحنا، وفيها اتخذ الفرسان أساساً لهم. وفي المكان المخصّص للمرضى في هذه المشفى يوجد 124 عموداً من الصّخر. وفي جدران المكان ودون العدد السّابق الذكر يوجد أربعة وخمسون عموداً تحمل المكان. ومن هذه المشفى باتجاه الشّرق توجد كنيسة رائعة الجمال تدعى سيّدتنا الكبرى *Nôtre Dame la Grande* وبعدها يوجد كنيسة أخرى قريبة جداً تدعى سيدتنا للاتين *Nôtre Dame de Latine* وهناك حيث مزّقت مريم زوجة كلوبا Mary Cleophas ومريم المجدلية شعرهما عندما ثُبّت السّيد المسيح على الصّليب.

* * *

الفصل الحادي عشر

عن هيكل الرّبّ، وعن قسوة الملك هيرودوس
وعن جبل صهيون
وعن بركة الزَّمنى وعن بركة السّلوان

ومن كنيسة القيامة باتجاه الشّرق وعلى مسافة ثمانية وحدات يوجد هيكل الرّب *Templum Domini* وهو بيت جميل جداً، دائري الشّكل، ومرتفع ومغطى بالرّصاص. مرصوف جيداً بالرخام الأبيض. ولكن المسلمون لا يسمحون لأي رجل مسيحي أو يهودي أن يأتي إلى هنا لأنهم يقولون بأن النّاس الفاسدين والمخطئين يجب أن لا يأتوا إلى مكان مقدّس كهذا ولكنني أتيت إلى هنا وإلى أماكن أخرى وذلك لأن بحوزتي خطابات من السُّلطان عليها ختمه المعظم، ومن الشّائع أن يأتي أناس آخرون معهم خطابات عليها توقيعه فقط. وقد كان قد أمر وبفضل منه أتباعه في هذه الخطابات بأن يسمحوا لي أن أدخل إلى كل الأماكن وأن يخبروني جميع الأسرار لكل مكان وليقودوني من مدينة إلى مدينة في حال اللزوم وليستضيفوني وصحبي وليطيعوا كل رغباتي المنطقية والتي لا تتعارض بشكل كبير مع سلطة وكرامة السُّلطان أو قوانينه.

أما الآخرون الذين يطلبون إذن السُّلطان وفضله مقابل خدمة ما كانوا قد قدّموها له، فإنه لا يعطيهم سوى ختمه والذي يُحمل أمامه على رمح. ويستقبل كل النّاس هناك هذا الختم بالتبجيل والإطاعة ويوقرون ختمه هذا كما أنهم ينحنون إلى الأسفل كما نفعل نحن في *Corpus Domini*، كما أنهم يعظّمون ويبجلون رسائله أكثر والتي

تعرض على الأمراء والسّادة، وقبل أو عند استلامهم إياها فإنهم ينحنون لها وبعدها يأخذونها ويضعونها على رؤوسهم وبعدها يقبلونها ومن ثم يقرؤونها بإنحناء وتبجيل كبيرين وبعدها يفعلون كل مايطلب حامل هذه الرّسائل.

وفي هيكل الرّبّ *Templum Domini* هذا كان يوجد يوماً ما القساوسة والذين كانوا يطيعون رئيس الدّير، وفي هذا المعبد أحضر الملك قلفة ختان السّيد المسيح لشارلمان Charlemange وبعدها أخذها الملك شارل Charles إلى مصلاّه في باريس، وبعدها أحضرها إلى بيتير Peyteres ومن ثم إلى شارتر Chartres.

يجب أن تعلموا بأن هذا المعبد ليس هو المعبد الذي بناه سليمان، لأن ذلك المعبد بقي موجوداً 1102 سنة فقط. وذلك لأن تيطوس Titus ابن ڤسپازيان Vespasian إمبراطور روما فرض حصاراً حول القدس لمضايقة اليهود لأنهم قتلوا السّيد المسيح دون إذن الإمبراطور. وقد أحرق المعبد وهدمه بعد أن استولى على المدينة وكذلك فعل بالمدينة كلها وأخذ اليهود وقتلهم - وعددهم 1,100,000 ووضع الآخرين في السّجن وباعهم للعبودية - ثلاثين بفلس واحد، لأنهم قالوا بأنهم اشتروا يسوع مقابل ثلاثين فلساً فجعلهم رخيصين جداً عندما أعطى ثلاثين منهم بفلس واحد.

وبعد ذلك الوقت أعطى يوليان المرتدّ الذي كان إمبراطوراً الإذن لليهود لبناء معبد القدس لأنه كان يكره المسيحيين، رغم أنه كان قد عُمِّد ولكنه كان قد تخلّى عن عقيدته وأصبح مرتداً. وعندما بنى اليهود المعبد حدث الزّلزال وهدمه (كما يفعل الرّب) وهدم كل ما قد بنوه.

وبعد ذلك كان هادريان Adrian إمبراطور روما سليل طروادة قد بنى القدس مرة ثانية ومعبدها بنفس الطّريقة التي بناها سليمان. ولم يطق أن يُسكن أيّاً من اليهود هنا بل فقط المسيحيين، رغم أنه لم يكن قد عُمِّد لكنه أحب المسيحيين أكثر من أيّة أمّة أخرى باستثناء أمّته. ولقد حمى هذا الإمبراطور كنيسة القيامة وجعلها ضمن أسوار المدينة إذ كانت قبل ذلك خارج المدينة منذ زمن بعيد. وغيّر اسم أورشليم Jerusalem وأسماها Aelia «إيلياء» ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً.

كمـا يجـب أن تعلموا أيضاً بأن المسـلمين يبّجلـون ذلك المعبـد ويقولون بأن هذا المـكان مقدّس بحق، وعندما يدخلون إليه فإنهم يدخلون حفاة، وينحنون عدة مرات. وعندمـا رأيت ذلك وصحبي خلعنا أحذيتنا ودخلنا حُفاة لاعتقادنا بأننا يجب أن نتعبّد ونبجّل كما يفعلون، وكذلك يجب أن يفعل الرّجال الذين لا يؤمنون أيضاً لئلا يحملوا أيّ تأنيب للضمير في قلوبهم.

يبلـغ عـرض هذا المعبد أربعاً وسـتين وحـدة ومثلها طولاً، كما يبلغ ارتفاعه سـت وحدات. وفي الداخل تنتصب أعمدة رخامية، وفي منتصف المعبد نجد عدة منصات عاليـة يبلـغ علوها أربع عشـرة درجة منصوبة علـى أعمدة. ويدعو اليهـود هذا المكان *Sancta Sanctorum* أي «قُدس الأقداس».

ولا يدخـل أي أحد إلى هذا المكان غير أحبارهـم ويقدّمون أضحياتهم. ويصطفّ النّاس حول هذا المكان على منصات مختلفة بعد أن يتعبّدوا وليروا جميعهم الأضحية. ولهذا المعبد أربعة مداخل، والبوابات مصنوعه من خشب السّرو وهي مصنوعة ومزينة بإتقان. وعند البوابة الشّرقية قال مخلّصنا: القدس هنا. وفي الجهة الشّمالية من المعبد داخل البوابة يوجد بئر جاف، تتحدث عنه الكتابات المقدّسة:
Vidi aquam egredientem de templo.

والتي معناها: «رأيتُ الماء يخرج من المعبد».

وبالاتجاه الآخر من المعبد توجد صخرة يسميها النّاس «موريا» **Moriach** ولكنها بعـد ذلك سُـمّيت «بيت إيل» Bethel حيـث وُضع تابوت الـرّب والرُّفات حيث اعتاد اليهود على وضعها هناك. وقد أخذ تيطوس Titus هذه التابوت أو الصّندوق والرّفات معـه إلى رومـا عندما هـزم كل اليهود. وفي هـذ التابوت توجد الوصايا العشـر وعصا هارون وعصا موسى التي بها شقّ البحر الأحمر، فأصبح كحائط على الجانب الأيمن والأيسـر بينما كان الإسـرائيليون يعبرون البحـر دون أن تتبلّل أقدامهـم، وبهذه العصا ضرب الصّخر فخرج منه ماء، وبهذه العصا فعل عدة أعاجيب.

وفي ذلك المكان كان يوجد وعاء من الذهب مليء بالمَنّ، وأقمشـة وحلي وخيمة

هـارون وخيمة أخـرى مربعة الشّـكل مصنوعة مـن الذهب وعليها أحد عشـرة حجراً كريمـاً، وعلبة من حجر اليشـب الأخضر مع أربعة أشـكال وثمانية أسـماء لمخلّصنا، وسبعة شمعادانات مصنوعة من الذهب واثني عشر قدراً من الذهب، وأربع مباخر من الذهب ومذبح من الذهب، وأربعة أسود من الذهب تحمل ملاكاً من ذهب يبلغ طوله اثني عشـر شـبراً، وحلقة من بجع الجنّة مع معبد من ذهب وطاولة من فضة وبوقين من فضة وسبعة أرغفة من الشّعير وكل الرّفات الذي كان قبل ولادة السّيد المسيح.

وعلى هذه الصّخرة كان يعقوب نائماً عندما رأى الملائكة تصعد وتهبط على سـلَّم فقال:

Vere locus iste sanctus est, et ego ignorabam.

والذي معناه: «حقاً إنه لمكانٌ مقدّس، وأنا لست أعرف عنه شيئاً».

وهناك حمل المَلَك يعقوبَ وغيّر اسـمه وسـمّاه إسـرائيل. وفي نفس ذلك المكان رأى داود المَلَك الذي ضرب النّاس بسيف، ورفعه عالياً مدمّى في الغمد. وعلى نفس هذه الصّخرة استقبل القدّيس سمعان مخلّصنا في المعبد، وعلى هذه الصّخرة أجلسه عندما رماه اليهود بالحجارة، وسـقطت نجمـة ومنحته نوراً. وعلى هذه الصّخرة وعظ سيّدنا المسيح النّاس أكثر من مرة. وخارج هذا الهيكل المذكور طرد سـيّدنا المسيح الباعة والشـارين خارجاً. وعلى هذه الصّخرة جلس سـيّدنا المسيح عندما رماه اليهود بالحجارة، وقد انشـقت هذه الصّخرة شـطرين، وفي هذا الشّـق اختبأ سـيّدنا المسيح، وهناك سقطت نجمة وأعطته ضوءاً وخدمته بإنارة المكان.

وعلى هذه الصّخرة جلسـت السّـيدة العذراء، حيث تعلمت سـفر المزامير. وهناك غفر السّـيد المسـيح خطايا المرأة التي اقترفت إثم الزّنا. وهناك خُتِن السّـيد المسـيح. وهنـاك أخبـرت الملائكة زكريا بـولادة ابنه القدّيس يحيى. وهناك قدّم أول القدّيسـين الخبز والنّبيذ لسيّدنا المسيح، أثناء إخباره بقدوم سرّ من الأسرار المقدّسة. وهناك خرّ داود مصلياً لربنا وللملاك الذي ضرب النّاس، وأخذته الشّـفقة به وبالناس، وقد سـمع ربنـا صلواته ولهذا بنى الهيكل في هذا المكان، ولكن ربنا منعه بواسـطة ملاك، وذلك

بسبب الخيانة التي فعلها عندما سمح بمقتل أوريا Uriah الفارس الصّنديد، ليأخذ زوجته بَتشبَع Bathsheba ولهذا وُظفت كل الموارد التي كانت لديه لبناء الهيكل وأخذها ابنه سليمان وقد بناه فعلاً. وقد صلّى لربّنا بأنّ كلّ من صلّى له في هذا المكان بقلب صافٍ أن يسمع صلواتهم ويستجيبها لهم إذا دعوا بحق. وقد منحه ربنا ذلك ولهذا سمّى سليمان هذا الهيكل بهيكل نصيحة الرّب وعونه.

وخارج بوابة هذا الهيكل يوجد مذبح اعتاد اليهود عنده على تقدمة الحمام والسّلاحف. وبين الهيكل وهذا المذبح المكان الذي ذُبح فيه زكريا. وفوق البرج الذي في هذا الهيكل أُحضِر سيّدنا لاستدراج الأعداء الأشرار. وعلى أعلى هذا البرج وضع اليهود القدّيس يعقوب James ثم ألقوه إلى الأسفل، وقد كان أول أسقف في القدس. وعند مدخل هذا الهيكل باتجاه الغرب توجد البوابة التي تدعى *Porta Speciosa* وبالقرب من هذا الهيكل، وعلى الجانب الأيمن توجد كنيسة مغطاة بالرّصاص، وهي تدعى مدرسة سليمان.

وقريباً جداً من هذا الهيكل باتجاه الجنوب يوجد هيكل سليمان، هذا الهيكل الجميل جداً والمصقول بإتقان. وفي هذا المعبد سكن فرسان الهيكل الذين كانوا يُدعَون بالدّاويّة Templars وهذا كان أساس نظامهم، وهكذا كان الفرسان يقيمون هناك وفي هيكل الرّب *Templo Domini* يقيم الكهنة العاديون.

وعلى بعد ست وحدات قياس من هذا الهيكل باتجاه الشّرق، وبطرف المدينة يوجد حمّام سيّدنا المسيح، وقد كانت مياه هذا الحمّام تأتي عادة من الجنة، وما زالت الماء تنقط حتى الآن. وهناك بجانبه سرير السّيدة العذراء. وبالقرب يوجد معبد القدّيس سمعان، وخارج ممرّ المعبد باتجاه الشّمال، توجد كنيسة رائعة الجمال للقدّيسة حنّة والدة سيدتنا العذراء، وهناك حيث حملت سيدتنا العذراء. وأمام هذه الكنيسة يوجد شجرة ضخمة بدأت بالنمو في نفس الليلة.

وتحت هذه الكنيسة إذا ذهبنا باتجاه الأسفل بمقدار اثنتين وعشرين درجة، يرقد يواكيم والد سيدتنا العذراء، في معبد جميل من الحجر، وهناك بجانبه في وقت مضى

كانت ترقد زوجته القدّيسة حنّة، ولكن القدّيسة هيلينا نقلتها إلى القسطنطينية. وفي هذه الكنيسة يوجد حوض على شكل صهريج، يدعى بركة الزّمنى *Probàtica*[1] *Piscina* وله خمسة مداخل. وفي هذا الحوض اعتادت الملائكة أن تأتي من الجنة وتستحم. وأول إنسان يستحم في هذا الحوض بعد خروج الملائكة منه تذهب عنه جميع الأمراض التي يعاني منها. وهناك شفى سيّدنا المسيح رجلاً مقعداً كان غير قادر على الحراك لمدة ثمان وثلاثين سنة، وقد قال مخلّصنا له:

Tolle grabatum tuum et ambula.

وهذا يعني: «احمل فراشك وامضِ».

وبالقرب من هناك كان بيت بيلاطس Pilate.

وقريباً من هناك يوجد بيت الملك هيرودُس، الذي أمر بذبح الأبرياء. وهيرودس هذا كان ظالماً جداً ومكروهاً، ففي البدء ذبح زوجته التي أحبها كثيراً، ولهذا الحب الكبير الذي كان يكنّه لها، غضب وثار وفقد وعيه لفترة طويلة بعدما رآها ميتة أمامه، وبعدها عاد ثانية إلى وعيه. وبعدها أمر بذبح ابنيه اللذين كانا من زوجته هذه، وبعدها ذبح زوجة أخرى من زوجاته، وابنه منها. وبعدها ذبح أمّه، وكان يريد ذبح أخيه أيضاً ولكنه مات فجأة. وبعدها فعل كل الأذى والخراب الذي يمكن فعله، ثم وقع في المرض.

وعندما شعر بأن أجله قد حان أرسل بطلب أخته وكل الأمراء والسّادة في أرضه، وعندما جاؤوا أمر بوضعهم في السّجن، وبعدها قال لأخته بأنه يعرف بأن النّاس في بلاده لن يشعروا بأي حزن أو أسى لموته، ولذلك جعل أخته تقسم بأنها سوف تضرب أعناق جميع الأمراء والسّادة عند موته، وعندها ستحزن عليه كل البلاد، ولا أحد سواه. وهكذا جعل وصيته الأخيرة. لكن أخته لم تنفّذ وصيّته، وفي لحظة موته أمرت بإخلاء سبيل كل الأمراء الذين في السّجن، كل واحد إلى أرضه، وقالت لهم السّبب

---

(1) هكذا سُمّيت البركة في التراث الدّيني، لكن اسمها الحقيقي هو بركة بيت حِسدا، وهو اسم آرامي يعني: بيت الرّحمة.

الذي لأجله أصدر أخوها هذا الأمر. وهكذا لم يشعر أحد بالأسى لموت هذا الملك الظالم كما ينبغي أن يكون.

ويجب أن تعلموا بأنه في ذلك الحين كان يوجد ثلاثة أسماؤهم هيرودُس، وقد كان اسماً عظيماً ومشهوراً لقسوتهم. هيرودس هذا الذي تكلمت عنه كان اسمه هيرودُس العسقلاني Herod Ascalonite، وأما لذي ضرب عنق القدّيس يوحنا المعمدان فكان اسمه هيرود أنتيبا Herod Antipas، والذي ضرب عنق القدّيس James كان اسمه هيرود أغريبا Herdo Agrippa، وهو نفسه الذي وضع القدّيس بطرس في السّجن.

وأيضاً علاوة على ذلك، توجد في المدينة كنيسة القدّيس المخلّص St. Saviour كما يوجد ذراع يوحنّا فم الذّهب John Chrisostome الأيسر، والقسم الأكبر من رأس القدّيس إسطفان Stephcn. وعلى الجانب الآخر من الطّريق باتجاه الجنوب حيث يذهب النّاس إلى جبل صهيون، توجد كنيسة القدّيس يعقوب James حيث قطع رأسه هناك.

وعلى مسافة ست وحدات قياس من هذه الكنيسة يوجد جبل صهيون. وفيه كنيسة رائعة الجمال لسيدتنا العذراء، حيث كانت تسكن وهناك ماتت. وهناك جرت العادة أن يوجد رئيس الرّهبان والكهنة. ومن ذلك المكان حملتها الحاشية إلى وادي يهوشافاط Jehosaphat. وهناك توجد الصّخرة التي جلبها الملاك لمخلّصنا من جبل سيناء ولونها بنفس لون صخرة القدّيسة كاثرين. وهناك بالقرب توجد البوابة التي دخلت منها سيدتنا العذراء، عندما كانت حاملاً بطفلها، عندما ذهبت إلى بيت لحم.

وأيضاً عند مدخل جبل صهيون هذا توجد كنيسة صغيرة، وفي هذه الكنيسة توجد الصّخرة العظيمة والكبيرة التي غطي بها الضريح، عندما وضع يوسف الرّامي Joseph of Arimathea سيّدنا المسيح فيه. هذه الصّخرة التي رأتها المريمات الثّلاث تتجه إلى الأعلى عندما أتين للضريح في يوم القيامة، وهناك وجد ملاك أخبرهنّ بقيامة السّيد المسيح من الموت إلى الحياة. وهناك أيضاً توجد صخرة في الحائط بجانب البوابة من العمود الذي جلد عليه سيّدنا المسيح. وهناك يوجد بيت Annas الذي كان أسقفاً

لليهود في ذلك الزّمن. وهناك تم في الليل اتّهام سيّدنا المسيح وجلده وضربه وعومل بوحشية. وفي نفس المكان هذا أنكر القدّيس بطرس سيّدنا المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الدّيك. وهناك يوجد جزء من الطّاولة الذي وضع عشاؤه عليها، عندما كانوا هو وأتباعه مجتمعين يوم خميس الأسرار، عندما أعطاهم لحمه ودمه على شكل خبز ونبيذ.

وتحت هذه الكنيسة بحوالي ثلاث وثلاثين درجة، يوجد المكان حيث غسل السّيد مسيح أقدام تلاميذه فيه، وما يزال الوعاء حيث كان الماء موجوداً. وهناك بجانب نفس هذا الوعاء دُفن القدّيس إسطفان Stephen، ويوجد أيضاً المذبح حيث سمعت سيدتنا العذراء الملائكة وهي تنشد قداساً. وهنالك ظهر السّيد المسيح لتابعيه بعد قيامته، وأُغلقت البوابات وقال لهم: *Pax vobis!* وهذا يعني: «سلامٌ لكم» وعلى هذا المرتفع ظهر المسيح لأحد تلامذته القدّيس توما Tomas وطلب منه أن يمسح جروحه، وهو كان أول من صدّقه وآمن به وقال:

Dominus meus et Deus meus!

والذي معناه «سيدي وإلهي».

وفي نقس الكنيسة بجانب المذبح كان كل التابعين في يوم العنصرة، عندما تنزل الرّوح القدس عليهم بشكل نار، وهناك احتفل مخلّصنا بعيد الفصح مع أتباعه. وهناك نام القدّيس يوحنّا John المبشر على صدر سيّدنا المسيح ورأى في نومه عدّة أسرار مقدّسة.

يوجد جبل صهيون داخل المدينة، وهو أعلى بقليل من باقي أطراف المدينة، والمدينة قوية من هذا الطّرف أكثر من الأطراف الأخرى. وذلك لأن في سفح جبل صهيون توجد قلعة جميلة وحصينة قد بناها السُّلطان. وفي جبل صهيون دُفن الملك داود والملك سليمان، وعدّة ملوك يهود آخرين من ملوك القدس. وهناك المكان حيث رغب اليهود بأن يلقوا بجسد سيدتنا العذراء عندما كشف الأتباع الجسد ليُدفن في وادي يهوشافاط Jehosaphat، وهناك بكى القدّيس بطرس بانكسار بعد أن أنكر

سيّدنا المسيح.

وليس بعيداً عن هذه الكنيسة توجد كنيسة أخرى حيث حُكِم سيّدنا المسيح، وكانت في ذلك الوقت بيت قيافا الكاهن Caiaphas. ومن هذه الكنيسة باتجاه الشّرق بست وحدات قياس يوجد كهف عميق تحت الصّخر، يدعى: جليل سيّدنا Galilee of our Lord، حيث اختبأ القدّيس بطرس عندما أنكر سيّدنا المسيح. وبين جبل صهيون وهيكل سليمان يوجد المكان الذي أحيا فيه سيّدنا المسيح الفتاة العذراء في بيت والدها.

وتحت جبل صهيون، باتجاه وادي يهوشافاط Jehosaphat يوجد حوض يدعى بركة السّلوان *Natatorium Siloe* وهناك غُسِّل سيّدنا المسيح بعد تعميده، وهناك جعل سيّدنا المسيح الرّجل الأعمى مبصراً، وهناك دفن الرّسول إشَعْيا Isaiah. ومباشرة بعد بركة السّلوان *Natatorium Siloe* توجد صورة من حجر فيها عمل قديم جداً، صنعه أبشالوم Absalom ولذلك يسميه النّاس يد أبشالوم. وليس ببعيد لا تزال توجد الشّجرة القديمة التي عليها شنق يهوذا نفسه، بسبب اليأس الذي أصابه عندما باع سيّدنا المسيح وخانه.

وقريباً من هناك كان الكنيس حيث اجتمع أساقفة اليهود والفريسيّون Pharisees معاً وعقدوا مجمعهم، وهناك رمى يهوذا الثّلاثين فلساً أمامهم وقال بأنه أخطأ وغدر بسيّدنا المسيح. وقريباً من هناك كان بيت التلميذ فيليبُّس Philip ويعقوب Jacob Alphei. وعلى الطّرف الآخر من جبل صهيون باتجاه الجنوب، وخلف الوادي برمية حجر، يوجد Aceldama التي تعني حقل الدَّم، الذي أشتري بالثلاثين فلساً التي بيع بها سيّدنا المسيح. وفي هذا الحقل يوجد قبور الكثيرين من الرّجال المسيحيين وذلك لأنه كان يدفن الكثير من الحجّاج هناك، كما يوجد العديد من أماكن الصّلاة والمعابد والصّوامع، حيث اعتاد النّساك أن يسكنوا هناك. وباتجاه الشّرق بحوالي مئة وحدة يوجد مكان حفظ الأموات في مشفى القدّيس يوحنّا John حيث اعتاد النّاس على وضع عظام الموتى.

وأيضاً من القدس باتجاه الغرب توجد كنيسة جميلة، حيث نمت الشّجرة التي صُنع منها الصّليب. وعلى بعد ميلين من هناك توجد كنيسة جميلة حيث قابلت سيدتنا العذراء إليصابات[1] Elizabeth عندما كانتا حُبليين، وعندها تحرّك القدّيس يوحنّا John في رحم أمه وقام بتبجيل خالقه الذي لم يره. وتحت مذبح هذه الكنيسة المكان الذي ولد فيه القدّيس يوحنّا. وعلى بعد ميل واحد من هذه الكنيسة توجد قلعة عمواس Emmaus وهناك أيضاً أظهر سيّدنا المسيح نفسه لاثنين من تابعيه بعد قيامته. وأيضاً على هذا الجانب الآخر وعلى بعد 200 خطوة من القدس توجد كنيسة كانت مسبقاً عريناً للأسد. وتحت هذه الكنيسة بعمق ثلاثين درجة كان قد دُفن 12,000 شهيد في عهد الملك خسرو Cosdroe الذي تقابل الأسد معه، في ليلة واحدة، بمشيئة الرّب.

وأيضاً وعلى بعد ميلين من القدس، يوجد جبل المسرّة[2] Joy وهو مكان مذهل ورائع الجمال، وهناك يرقد النّبي صموئيل Samuel في قبر جميل جداً. وقد أسماه النّاس جبل المسرّة Joy لأنه يضفي السّعادة والبهجة في قلوب الحجّاج، فمن هناك يستطيع النّاس أن يروا القدس للمرّة الأولى.

وأيضاً بين القدس وجبل الزّيتون يوجد وادي يهوشافاط Jehosaphat عند أسفل أسوار المدينة، كما ذكرت لكم سابقاً. وفي وسط الوادي يوجد نهر صغير يسمّيه النّاس جدول قِدرون *Torrens Cedron* وفوقه توجد شجرة (هي التي صُنع منها الصّليب) تمتدّ بين طرفي النّهر، حيث يمر النّاس من فوقها. وقريباً منها يوجد قليل من التراب أسفل العمود الذي جُلد عليه السّيد المسيح في بادئ الأمر، لأنه كان قد جُلد بقسوة في عدة أماكن. وأيضاً وفي منتصف وادي يهوشافاط Jehosaphat توجد كنيسة سيدتنا العذراء، التي هي على مسافة ثلاث وثلاثين درجة تحت الأرض نحو ضريح السّيدة العذراء. وكانت سيدتنا العذراء تبلغ اثنتين وسبعين سنة من العمر عندما توفيت،

---

(1) هي زوجة النبي زكريّا عليه السّلام، وأمّ النبي يحيى (يوحنّا) عليه السّلام، الذي بشّر بنبوّة عيسى عليه السّلام.

(2) يسمّى في عصرنا جبل المشارف أو جبل المشهد أو جبل الصوّانة.

وبجانب ضريح سيدتنا العذراء يوجد مذبح، حيث غفر مخلّصنا للقدّيس بطرس كل خطاياه.

ومن هناك باتجاه الغرب وتحت مذبح يوجد بئر تأتي مياهه من نهر في الجنة. ومن الواضح بأن الكنيسة منخفضة جداً في الأرض، حتى أن جزءاً منها موجود داخل الأرض، ولكني أستطيع أن أخمّن بأن بأنها لم تكن مؤسسة بشكل جيد. لكن بسبب أن القدس كانت قد دمرت والأسوار كانت قد هُدمت وأزيلت وكوِّمت في الوادي، فقد أُنشئت ثانية وأُسّست الأرض بشكل جيد، وبسبب هذا نجد بأن الكنيسة منخفضة جداً في الأرض، بالرغم من أنه يشيع هناك القول بأن الأرض انشقت كثيراً منذ دفن السّيدة العذراء، وما زال النّاس يقولون بأن الأرض تنمو وتكبر كل يوم دون أدنى شك. وفي هذه الكنيسة كان يوجد الرّهبان السّود وكان لهم أسقف.

ويجانب هذه الكنيسة يوجد معبد، بالقرب من الصّخرة التي قامت عليها حديقة جَثْسِمَني Gethsemane وهناك قبّل يهوذا سيّدنا المسيح، وهنالك أخذه اليهود. وهناك ترك سيّدنا المسيح أتباعه، عندما ذهب ليصلي قبل تعذيبه، وذلك عندما صلّى وقال:
Pater, si fieri potest, transeat a me calix iste.

والذي معناه: «أبي، إذا كان هذا ليحدث، دع هذا الكأس يذهب عني».

وعندما عاد ثانية لأتباعه وجدهم نائمين. وفي الصّخر داخل المعبد لا تزال علامات أصابع يد سيّدنا المسيح، لمّا وضعها في الصّخر عندما أخذه اليهود.

وغير بعيد عن هناك باتجاه الجنوب توجد كنيسة صغيرة أخرى حيث تعرّق مخلّصنا دماً. وقريباً جداً من هناك يوجد قبر الملك يهوشافاط Jehosaphat الذي يحمل الوادي اسمه. ويهوشافاط هذا كان ملكاً لهذا البلد، وكان قد تحوّل إلى المسيحية على يد ناسك، وكان رجلاً جديراً بالاحترام وفعل الكثير من أعمال الخير. ومن هناك على بُعد غلوة سهم باتجاه الجنوب توجد كنيسة دُفن فيها القدّيس يعقوب James والنّبي زكريّا.

وفوق الوادي يوجد جبل الزّيتون، وقد سمي بهذا الاسم لوجود الكثير من شجر الزّيتون الذي ينمو هناك. وهذا الجبل أعلى من مدينة القدس ولهذا يمكن للناس من فوق هذا الجبل أن يروا الكثير من شوارع المدينة. ولا يوجد شيء بين هذا الجبل والمدينة سوى وادي يهوشافاط Jehosaphat وهو ليس كبيراً جداً. ومن هذا الجبل انتقل سيّدنا يسوع المسيح إلى الجنة في يوم الصّعود، وما يزال يظهر شكل قدمه اليسرى في الحجر. وهناك توجد كنيسة حيث اعتاد القساوسة والرّهبان أن يسكنوا. وعلى بعد ثماني وعشرين خطوة من هناك توجد كنيسة صغيرة وفيها الحجر الذي جلس عليه سيّدنا المسيح عندما وعظ العظات الثّمانية وقال وقتها: *Beau pauperes spiritu* وهناك علّم أتباعه صلاة «أبانا» *Pater Noster* وكتب بأصابعه في الحجر.

وغير بعيد من هناك توجد كنيسة القدّيسة مريم المصرية، وهناك ترقد في قبر. ومن هناك وعلى بعد ثلاث غلوات أسهم باتجاه الغرب توجد قرية بيت فاجي Bethphage التي أرسل إليها سيّدنا المسيح القدّيس بطرس والقدّيس يعقوب James ليحضرا الحمار في يوم أحد الشّعانين، وركب على هذا الحمار حتى القدس.

وبالذهاب أسفل جبل الزّيتون باتجاه الشّرق يوجد حصن يدعى العيزرية، وهناك سكن شمعون (سمعان) Simon المجذوم حيث لجأ سيّدنا المسيح، وبعدها عُمِّد من قبل التلاميذ وسمّي يوليان Julian وعُيّن كأسقف، وهو نفسه يوليان الذي سمّاه النّاس المأوى الصّالح، وذلك لأن سيّدنا المسيح كان أوى إلى بيته. وفي هذا البيت غفر سيّدنا المسيح خطايا مريم المجدليّة، حيث أنها غسلت قدميه بدموعها، ونشفتهما بشعرها. وهناك خدمت القدّيسة مَرتا Martha سيّدنا المسيح. وهناك أعاد سيّدنا المسيح إلعازر Lazarus من الموت إلى الحياة، وكان قد مات قبلها بأربعة أيام وتعفّن، وكان أخا مريم المجدليّة ومَرتا. وهناك سكنت أيضاً مريم زوجة كلوپا Mary Cleophas. وهذه الحصن يبعد ميلاً عن القدس.

وأيضاً بالذهاب نزولاً من جبل الزّيتون يوجد المكان الذي بكى فيه سيّدنا المسيح على القدس. وبالقرب من هناك المكان الذي ظهرت فيه سيدتنا العذراء للقدّيس توما

Thomas التلميذ بعد تجلّيها وأعطته حزامها، وغير بعيد من هناك توجد الصّخرة حيث جلس سيّدنا المسيح عدة مرات عندما كان يعظ، وعلى نفس هذه الصّخرة سوف يجلس في يوم القيامة، كما قال هو.

وأيضاً بعد جبل الزّيتون يوجد جبل الجليل، وهناك اجتمع التلاميذ عندما جاءت مريم المجدلية وأخبرتهم بقيامة المسيح، وهناك بين جبل الزّيتون وجبل الجُلجلة توجد كنيسة حيث أخبر الملاك سيدتنا العذراء بموتها.

وأيضاً ومن بيت عَنيا Bethany إلى أريحا Jericho كانت توجد يوماً ما كنيسة صغيرة، ولكنها الآن خربت تماماً، ولا يوجد الآن هناك غير قرية صغيرة. وتلك المدينة هي التي قضى عليها يوشع Joshua بمعجزة من الرّب وبأمر من الملاك دُمّرت ولعنت وكل أولئك الذين بنوها ثانية[1]. ومن هذه المدينة كان القزم زكّا Zaccheus الذي تسلّق شجرة الجمّيز ليرى مخلّصنا، لأنه كان قصيراً وصعبت عليه رؤيته بسبب كثرة النّاس. ومن هذه المدينة كانت راحاب Rahab المرأة المعروف عنها بأنها هربت وحدها معهم بسبب نسبها، حيث كانت كثيراً ما تخبّئ مُرسلي بني إسرائيل وتطعمهم، وتحميهم من عدة أخطار مميتة، ولذلك كان لها مكافأة جيدة، كما قيل في الكتاب المقدّس:

Qui accipit prophetam in nomine meo, mercedem prophetae accipiet.

والذي يعني: «من يقبَل نبياً باسمي، ينل أجر هذا النبي». وهذا ما كانت فعلته، إذ أنها تنبأت للمُرسلين قائلة:

Novi quod Dominus tradet vobis terram hanc.

ومعناه: «أنا أعرف جيداً بأن ربنا سوف يحمي لكم هذه الأرض». وهذا ما فعل فعلاً. وبعدها تزوجها سلمون بن نحشون Naasson، ومن ذلك الوقت أصبحت امرأة جديرة بالاحترام وخدمت الرّب جيداً.

وأيضاً من بيت عَنيا Bethany يذهب النّاس إلى نهر الأردن عبر الجبل وعبر

---

(1) يقصد بذلك أريحا، التي دمّرها القائد يوشع بن نون. انظر القصة مطولة في سفر يشوع.

الصّحراء. وهي على مسـافة ما يقارب رحلة يـوم واحد من بيت عَنيا Bethany باتجاه الشّـرق إلـى هضبة كبيرة حيث صام سـيّدنا المسـيح أربعين يوماً. وعلـى هذه الهضبة كشف الأعداء الاشرار مخلّصنا وغرّروا به. فقال:

Dic ut lapides isti panes fiant.

والذي معناه: «قُل، بأن هذه الأحجار تُعمل أرغفة».

وفـي ذلك المكان، فوق الهضبة، كانت توجد كنيسـة جميلـة، لكنها تهدّمت كلها، ولذلـك لا يوجد الآن سـوى صومعة صغيـرة، حافظ عليها المسـيحيون الذين يُدعون الجورجيين Georgians نسـبة إلى القدّيس جورج الذي حوّلهم إلى المسيحية. وعلى هـذه الهضبة سـكن إبراهيـم فترة طويلـة، ولهذا يسـميها النّاس حديقـة إبراهيم. وبين الهضبـة وهذه الحديقـة يجري جدول مائي صغيـر وكان في القديم مُـرَّ الطّعم، ولكن ببركة النّبي اليَشَع Elisha أصبح حلو المذاق وسائغاً للشرب. وعند أسفل هذه الهضبة باتجاه السّهل يوجد بئر كبير يُدخل إليه نهر الأردن.

ومـن هـذه الهضبة إلى أريحا Jericho التي تحدثت عنها سـابقاً، مسـافة ميل واحد باتجـاه نهـر الأردن. وأيضـاً يذهـب النّاس إلـى أريحـا Jericho حيث جلـس الرّجل الأعمى يبكي قائلاً:

Jesu, Fili David, miserere mei.

وهذا يعني: «يا يسـوع، يـا ابن داود، ارحمني»، وبعدها عاد إليـه بصره ثانية. وعلى بعد ميلين من أريحا Jericho يوجد نهر الأردن، وبعده بمسافة نصف ميل توجد كنيسة جميلة للقدّيس يوحنا المعمدان، حيث عمّد سيّدنا المسيح، وهناك بالقرب منها يوجد بيت النّبي إرميا Jeremiah.

* * *

الفصل الثّاني عشر

عن البحر الميت، وعن نهر الأردن
وعن رأس القدّيس يوحنا المعمدان
وعن أعراف السّامريين

على مسافة ثلاثة أميال من أريحا يوجد البحر الميت، ويغطي ما حول هذا البحر الكثير من المخلّفات والقطران. وبين أريحا وهذا البحر توجد أرض Engeddi. وهناك كان ينمو البَلسَم، ولكن النّاس أخذوا الجذوع من هناك وحملوها إلى بابل ليطعّموا بها النّباتات هناك. وما زال النّاس يدعونها دوالي Geddi. وعلى ساحل هذا البحر حيث يذهب النّاس من جزيرة العرب، توجد جبال مؤاب Moabites ويوجد كهف يسميه النّاس Karua. وعلى هذا الجبل قاد بالاق Balak الكاهن بلعام Balaam ابن بعور Beor ليلعن شعب إسرائيل.

والبحر الميت هذا يقسم أرض الهند Ind وجزيرة العرب، ويمتدّ هذا البحر من Soara حتى جزيرة العرب Arabia. والمياه في هذا البحر شديدة المرارة والملوحة، وإذا سقيت التربة بهذه المياه فهي لا تعطي أي ثمر. وتغيّر التربة والأرض لونها باستمرار. وتخرج من هذه المياه مادّة يسميها النّاس الإسفلت، كما تخرج منه يومياً وعلى جميع أطرافه قطع كبيرة جداً. وتبعد القدس عن هذا البحر مسافة 200 فرلنغ[1].

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

ويبلغ طول هذا البحر خمسمئة وأربع فرلنغات كما يبلغ عرضه مئة وخمسين فرلنغاً. وقد سمّي البحر الميت كذلك لأنه لا يتحرك أبداً وهو ساكن تماماً، ولا يمكن لأي إنسان أو حيوان أن يتحمّل الحياة فيه ومن الممكن أن يموت إذا وجد فيه. قد أُثبت هذا عدة مرات، وكان ذلك بواسطة رجال كانوا يستحقون الموت فرموا في ذلك المكان وتركوا ثلاثة أو أربعة أيام، وكان من الممكن ألا يموتوا هناك، ولكنهم ماتوا بسبب عدم قدرة أي شيء على الحياة هناك. ولا يمكن لأحد أن يشرب من مياهه لشدّة مرارتها. وإذا ألقى أحد فيه حديداً فإنه يطفو، وإذا ألقيت فيه ريشة فإنها تغرق إلى القاع وذلك شيء مخالف للطبيعة.

كما أن المدن هناك أيضاً كانت قد بادت بخطاياها. كما ينمو بالقرب من هناك أشجار تطرح ثمار تفاح من النّوع الجيد، ذي ألوان جميلة عندما تشاهدها، ولكن إذا قطعها أحد أو قسمها قسمين، فسوف يجد بداخلها فحماً ورماداً، ويقال إنه بغضب من الرّب كانت المدينة والأرض قد احترقت وغُمرت في جهنم. يسمّي بعض النّاس هذا البحر ببحيرة Dalfetidee، وبعضهم يسمّونه بنهر الشّياطين، وبعضهم بالنهر دائم العفونة. وفي هذا البحر غرقت خمس مدن بغضب من الرّب، وأسماؤها: سدوم Sodom، عمورة Gomorrah، أدمة Aldama، صبوئيم Zeboim، صوعر Zoar وذلك بسبب خطيئة إتيان الذكور التي كانت تسيطر عليهم. ولكن وبصلوات لوط أنقذت صوعر Zoar لأنها كانت فوق تلة وبقيت هناك لوقت طويل، وحتى الآن يظهر منها جزء صغير فوق الماء، ومن الممكن للناس أن يروا الأسوار عندما يكون الطّقس صافياً وصحواً.

وفي تلك المدينة سكن لوط لفترة قصيرة، وهناك حيث أسكرته بنتاه فاضطجع معهما وأنجب منهما مؤاب Moab وعمّون Ammon. والسّبب الذي جعل بنتيه تُسكرانه وتنامان معه كان الآتي: لأنهما لم يريا أيّ رجلٍ حولهما إلا أبوهما واعتقدتا بأن الله قد دمّر كل العالم كما فعل بالمدن التي حولهم، كما فعل سابقاً زمن طوفان نوح. ولهذا نامتا مع أبيهما لتحصلا على نسل ولكي تعيدا ملء الدّنيا بالناس مرة ثانية، لأنهما ظنتا بأنه لا يوجد أي إنسان آخر على وجه الأرض، وإذا لم يكن أبوهما مخموراً فإنه لن ينام معهما.

والتلة التي فوق صوعر Zoar سمّاها النّاس أدوم Edom ثم سمّوها سعير Seir وبعدها سميت أدوميا Idumea. وعلى الجانب الأيمن من البحر الميت هذا، ما تزال تسكن زوجة لوط بشكل حجر ملحي، وذلك لأنها نظرت وراءها عندما غرقت المدن في جهنم. وكان لوط هذا ابناً لهاران Haran الذي كان أخا إبراهيم، وزوجته سارة، وملكاه Milcah زوجة نوح، اللتين كانتا أختين للوط المذكور. وهذه سارة نفسها كانت تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً عندما حملت بابنها إسحق، كما كان لإبراهيم ولد آخر اسمه إسماعيل حملت به هاجر زوجته السّابقة، وعندما بلغ ابنه إسحق ثمانية أيام ختنه أبوه إبراهيم وكان معه ابنه إسماعيل وكان عمره أربعة عشر عاماً، ولهذا ولأن اليهود جاؤوا من نسل إسحق فإنهم يُختنون في عمر الثّمانية أيام، والمسلمون أتوا من سلالة إسماعيل فيختنون في عمر الأربعة عشر عاماً.

ويجب أن تعلموا بأنّه في البحر الميت يصبّ نهر الأردن وهناك ينتهي، وذلك لأنه لا يجري لأي مكان بعد ذلك، وهذا المكان يبعد مسافة ميل واحد غرباً عن كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان، وتحت هذا المكان بقليل كان يعبر النّاس المسيحيون كثيراً، وعلى مسافة ميل واحد من نهر الأردن يوجد نهر يَبوق Jabbok الذي عبره يعقوب عندما جاء من بلاد الرّافدين Mesopotamia. ونهر الأردن هذا ليس بالنهر الكبير جداً ولكن يوجد فيه الكثير من أنواع الأسماك الجيدة، وهو ينبع من هضبة في لبنان من نبعين يسمّيان: Jor و Dan ومن هذين النّبعين أتى اسمه. ويعبر من بحيرة تدعى مارون وبعدها يعبر إلى بحيرة طبريّة، ويعبر من تحت هضاب جلبوَع Gilboa وهناك يوجد وادٍ نضير، على هذا الطّرف وعلى الطّرف الآخر من نفس النّهر. ويذهب النّاس على طول هضاب لبنان حتى صحراء فاران Pharan وهذه الهضاب جزء من مملكة سوريا وفينيقيا، وفوق هذه الهضاب ينمو شجر الأرز الشّاهق العلو، وتعطي الأشجار تفاحاً طويلاً، يبلغ من الكبر حجم رأس الإنسان.

وأيضاً يقسم نهر الأردن هذا أرض الجليل وأرض أدوم Idumea وأرض Betron وهو يجري تحت الأرض مسافة طويلة حتى سهل جميل وكبير يدعى Meldan في

Sarmois والـذي يعني المعرض أو السّـوق بلغتهم، لأنه غالباً مـا كان يوجد معارض في هذا السّهل. وهناك يصبح الماء كبيراً وعريضاً. وفي هذا السّهل قبر أيّوب Job.

وفي نهر الأردن هذا المذكور سابقاً كان سيّدنا المسيح قد عُمّد من قبل القدّيس يوحنا، وصوت ربنا الآب سُمِع يقول:

Hic est Filius meus dilectus, etc.

والـذي معنـاه «هذا هـو ابني الحبيب الذي به سُـررت، فاسـمعوه» وتجلـى الرّوح القدس عليه بهيئة حمامة، وكذلك بتعميده اكتمل الثّالوث المقدّس.

وعبـر هـذا النّهـر عبر بنـو إسـرائيل، بأقدام جافـة، وقـد وضعوا حجارة في وسـط المـكان، كتـذكار بالمعجزة التي انحسـر بفعلها الماء، وأيضاً وفي نهر الاردن اغتسـل نعمـان Naaman الآرامـي ليتطهّر، وكان غنياً جداً ولكنـه كان مصاباً بالجذام، وبعدها استردّ عافيته.

وحول نهر الأردن هذا يوجد الكثير من الكنائس حيث سكن الكثير من المسيحيين. وليس ببعيد توجد مدينة Ai حيث هوجم يشوع وقُبض عليه. وأيضاً وخلف نهر الأردن يوجـد وادي مَمرا Mamre الذي هو وادٍ جميل جداً. وأيضاً فوق الهضبة التي تحدثت عنها سـابقاً، حيث صـام مخلّصنا أربعين يوماً. وعلى مسـافة ميلين مـن الجليل توجد هضبة جميلة عالية حيث ظهر العدو الشرّير لمخلّصنا للمرة الثّالثة ليغويه. وأراه جميع مناطق العالم وقال:

Hec omnia tibi dabo, si cadens adoraveris me.

والذي يعني: «كل هذا سأعطيك إذا ما خضعت وعبدتني».

وأيضاً من البحر الميت إذا ذهبنا باتجاه الغرب خارج طرق الأراضي المقدّسة التي تدعـى أرض الميعـاد Land of Promission، توجـد قلعة قويـة وجميلة، على هضبة تدعى الكَرَك Carak in Sarmois وهذا يعني: بشكل ملكي. تلك القلعة شيّدها الملك بلدوين Baldwin الذي كان ملك فرنسا، عندما استولى على الأرض، ووضعها بأيدي

الرّجال المسيحيين ليبقي على هذه البلد، ولذلك تدعى بالجبل الملكي. وتحتها توجد مدينـة تدعى الشّـوبَك Sobach وهناك في تلك النواحي يسـكن المسـيحيون ولكنهم يدفعون الجزية.

ومـن هنـاك يذهب النّاس إلـى النّاصرة والتي منها يحمل مخلّصنـا لقبه، ومن هناك تسـتغرق الرّحلة ثلاثة أيام للوصول إلى القدس، ويذهـب النّاس عبر مقاطعة الجليل، عبـر Ramath، وعبـر Sothim وعبـر هضبـة عاليـة مـن Ephraim، حيـث سـكنت Elkanahوحنّة Hannah والدة صموئيل. وهناك سـكن هـذا النّبي وبعد موته دُفن في جبل المسرّة Joy كما ذكرت سابقاً.

وبعدهـا يذهب الرّجال إلى السّـلوان Shiloh حيث حُفظ تابـوت الرّب مع الرّفات وقتـاً طويـلاً بيـد النّبـي إيليـا Eli. وهنـاك جعـل شـعب الخليـل Hebron أضحيتهم لمخلّصنـا، ووفّـوا بنذورهم. وهناك تكلم اللـه أول مرة مع صموئيـل، وأراه تغيير أمر الكهنوت، وسـرّ الأسـرار المقدّسـة. وليس بعيداً على الجانب الأيسـر توجد جبعون Gibeon والرّامَة Ramah وبنيامين Benjamin، التي تحدثت عنها الأسفار المقدّسة.

وبعدها يذهب الرّجال إلى شكيم Sichem والتي في وقت ما كانت تدعى Sichar، والتـي هي في مقاطعة السّـامريين Samaritans. وهناك يوجـد وادٍ جميل ومثمر، كما توجد هناك مدينة جميلة وجيدة سـمّيت Nople. ومن هناك تحتاج الرّحلة يوماً واحداً للوصـول إلـى القـدس. وهناك يوجد بئـر، حيث تكلـم مخلّصنا مع المرأة السّـامرية، وهنـاك كانت توجد كنيسـة ولكنها دثـرت. وبجانب ذلـك البئر صنع الملـك رَحَبْعام Rehoboam عجليـن مـن ذهب ووضعهما لكـي يُعبدا. ووضع واحـداً عند دان Dan والثّاني عند بيت إيل Bethel. وعلى بعد ميل واحد من Sichar توجد مدينة Luz وفي هذه المدينة سـكن إبراهيم فترة من الزّمن. وشكيم[1] Sichem مدينة تبعد عشرة أميال عن القدس، وتدعى Neople ومعناه المدينة الجديدة.

---

(1) شكيم هو الاسم القديم لمدينة نابلس.

وفـي الجانـب القريب يوجد قبر يوسـف بن يعقوب الذي حكم مصـر، لأن اليهود أخرجـوا عظامـه من مصر ودفنوها هنـاك. وإلى هناك يذهب اليهود كثيـراً للحجّ بورع وحبّ شـديدين، وفي تلك المدينة اغتصبت ديناه Dinah بنت يعقوب، والتي لأجلها ذبـح إخوتها الكثير من الأشـخاص وفعلوا الكثيـر من الأذى للمدينـة. وبجانب ذلك توجـد هضبـة جرزيم Gerizim حيث قدّم السّـامريون أضحيتهم، وعلـى هذه الهضبة كان إبراهيم سـيضحي بابنه إسـحق. وهناك بجانب وادي Dotaim يوجد جُبّ، الذي رُمي يوسف فيه من قبل إخوته الذين باعوه، وهذا على بعد ميلين من Sichar .

ومن هناك يذهب الرّجال إلى السّـامرة Samaria التي يسـميها النّاس الآن سبسطية Sebast والتـي هـي أكبـر المدن فـي البلد، وهـي تقع بيـن هضبـة Aygnes تماماً مثل القدس. وفي تلك المدينة اسـتقرت أسباط إسـرائيل الاثنا عشر، ولكن المدينة ليست كبيرة كما كانت سـابقاً، وهناك دفن القدّيس يوحنا المعمدان بين النبيين اليشع Elisha وعوبَديا Abdon ولكنه كان قد قطع رأسـه في قلعة Macharim جانب البحر الميت. ولكـن بعدهـا نُقل بواسـطة أتباعه ودُفن في السّـامرة. وهنـاك حفر يوليانـوس المرتدّ Julianus Apostata وأخرجـه وحرق عظامه (لأنه كان فـي ذلك الوقت الإمبراطور) وبعدها نثر الرّماد في الهواء. ولكن الاصبع التي عرضها مخلّصنا قائلاً: *Ecce Agnus Dei* والذي معناه «هذا حَمَل الرّب» الذي لا يحرق أبداً ولكنه دائماً سالم، هذا الاصبع جعـل القدّيسـة ثقـلا Thecla العذراء المقدّسـة تولد فـي هضبـة Sebast، وهناك أقام النّاس احتفالاً كبيراً.

وفي ذلك المكان كانت توجد كنيسة جميلة، بالإضافة إلى الكثير من الكنائس التي كانـت هنـاك، ولكنها دثرت جميعاً. كمـا كان رأس القدّيس يوحنـا المعمدان موجوداً هناك في داخل السّـور. ولكن الإمبراطور ثيودوسـيوس Theodosius سحبه خارجاً، ووجـده ملفوفاً بقطعـة قماش صغيرة مليئـة بالدّماء، وكذلك حُمل إلى القسـطنطينية. ومـا يزال حتـى الآن الجزء الخلفي من الرّأس في القسـطنطينية، والجـزء الأمامي من الرّأس حتى أسـفل الذقن يوجد في روما تحت كنيسـة القدّيس Silvester حيث يوجد

الكثير من الرّاهبات من مئة سلك رهبنة، وقد كان ما يزال يلتهب حتى أن نصفه قد احترق، لأن الإمبراطور يوليانوس Julianus المذكور سابقاً من حقده وضغينته حرق هذا الجزء مع باقي العظام، وما يزال ظاهراً، ولقد أثبتت هذه الأشياء من قبل الباباوات والأباطرة. واليهود السّفلة احتفظوا بالذقن وجزء من الرّماد والطّبق الذي كان الرّأس عليه، وعندما ضرب رأسه كان في Genoa وقد احتفل الجنويّون به احتفالاً كبيراً وكذلك فعل المسلمون، وقال بعض النّاس بأن رأس القدّيس يوحنا موجود في مدينة أميان Amiens في Picardy، وقال غيرهم بأنه رأس القدّيس يوحنا الأسقف. لا أعرف أبداً والله وحده يعلم. ولكن وبأي طريقة عبده فالقدّيس البار يوحنا حمله.

وتبعد مدينة سبسطية Sebast عن القدس مسافة اثني عشر ميلاً. وبين هضاب ذلك البلد يوجد نبع يغيّر لونه أربع مرات في السّنة، أحياناً أخضر وأحياناً أحمر، أحياناً صافٍ وأحياناً معكّر، وقد سمّى النّاس هذا النّبع بنبع أيّوب Job، والنّاس في الأرياف الذين يعرفون بالسّامريين كانوا قد أدخلوا في المسيحية وعُمِّدوا من قبل التلاميذ، ولكنهم لا يتبعون دينهم جيداً ودائماً يتبعون قانوناً يضعونه بأنفسهم، وهو مختلف عن المسيحيين والمسلمين واليهود والوثنيين Paynims.

والسّامريون يعتقدون بإله واحد ويقولون بأنه لا يوجد غير ربّ واحد خلق كل شيء وسينهي كل شيء، ويحملون الإنجيل بعد الرّسائل، ويستعملون كتاب المزامير كاليهود. ويقولون بأنهم أولاد الله الحقيقيون. ويقولون بأنهم أكثر الشّعوب قربى إلى الله، وإليهم سوف يعود ميراث الله الذي خصّصه لأولاده المحبوبين. كما أنّ لهم لباساً وأشكالاً مختلفة عن باقي الشّعوب، فإنهم يلفون رؤوسهم بقماش قطني أحمر اللون ليتميّزوا عن الآخرين. فالمسلمون يلفون رؤوسهم بقماش قطني أبيض، والمسيحيون الذين يسكنون الأرياف يلفون رؤوسهم بقماش أزرق من الهند Ind، واليهود بقماش أصفر. وفي ذلك البلد يسكن الكثير من اليهود ويدفعون الضريبة كما يفعل المسيحيون، وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا الأحرف التي يستخدمها اليهود فإنها كالتالي، وأسماؤها كما سمّوها كتبت فوقها، بنفس طريقة ABC ولكن بأحرفهم:

Aleph Beth Gymel Deleth He Vau Zay
Heth Thet Joht Kapho Lampd Mem Num
Sameth Ey Fhee Sade Coph Resch Son Tau.

* * *

الفصل الثّالث عشر

عن مقاطعة الجليل، وعن المكان الذي سيولد فيه المسيح الدّجّال وعن النّاصرة، وعن عمر سيدتنا العذراء، وعن يوم القيامة وعن لباس اليعاقبة والسّريان، وعن الأعراف الجورجية

ومن بلد السّامريين هذه التي ذكرتها لكم قبل، يذهب الرّجال إلى سهل الجليل، ويغادرون الهضاب من تلك الجهة.

والجليل واحدة من مقاطعات الأرض المقدّسة، وفي هذه المقاطعة توجد مدن نائين Nain وكفر ناحوم Capernaum وكورزين Chorazin وبيت صيدا. وفي بيت صيدا هذه ولد القدّيس بطرس والقدّيس أندراوس Andrew. وعلى بعد أربعة أميال من هناك توجد كورزين Chorazin، وعلى بعد خمسة أميال من كورزين تقع مدينة قيدار Kedar حيث ذكر في سفر المزامير:

Et habitavi cum habitantibus Kedar

والذي يعني: «وقد سكنتُ مع السّاكنين في قيدار». وفي مدينة كورزين Chorazin سيولد المسيح الدّجال، كما يقول بعض النّاس، ولكن بعضهم الآخر يقول بأنه سيولد في بابل، كما قال النّبي:

De Babilonia coluber exest, qui totum mundum devorabit

والذي يعني: «ومن بابل سوف تأتي حشرة تلتهم كل العالم». والمسيح الدّجال هذا سيكبر في مدينة بيت صيدا وسوف يحكم في كفر ناحوم. ولهذا ذُكر في الصّحف

المقدّسة:

Vae tibi, Chorazin! Vae tibi, Bethsaida! Vae tibi, Capernaum!

والـذي معناه: «ستكون لك كورزين، وستكون لك بيت صيدا وستكون لك كفر ناحوم». وكل هذه المدن توجد في مقاطعة الجليل. كما توجد في الجليل أيضاً مدينة قانا التي تبعد عن النّاصرة مسافة أربعة أميال، ومن هذه المدينة كان سمعان القانوي Simon Chananeus وزوجته Canee، التي تكلم عنها المبشّر المقدّس. وهناك فعل سيّدنا المسيح أول معجزة له في حفل الزّفاف، عندما حوّل الماء إلى نبيذ.

وعند الهضاب التي في آخر مقاطعة الجليل، كان قد أخذ تابوت الرّب، وعلى الجانب الآخر يوجد جبل Endor أو الحرمون، وفي القرب يجري جدول قيشون Torrens Kishon، وبجانب هذا المكان كان باراق Barak ابن أبيملك Abimelech من دبورة Deborah النبيّة قد تغلب على جيش أدوم Idumca، عندما قُتِل الملك سيسرا Sisera على يد ياعيل Jael زوجة حابر Heber وطارد بقوّة السيف صيب Zeep وصباه Zebah وصلمونا Zalmunna عبر نهر الأردن وهناك ذبحهم أجمعين. وعلى بعد خمسة أميال من مدينة نائين Nain توجد مدينة جزريل Jezreel والتي كانت تسمّى في وقت مضى Zarim، المدينة التي كانت ملكتها وسيدتها إيزابل Jezabel الملكة الملعونة، التي بسلطتها أخذت كرم نابوت Nobath. وبالقرب من هذه المدينة يوجد حقل مجدّو Megiddo الذي ذُبح فيه الملك يورام Joram من قبل ملك السّامرة Samaria، وبعدها نُقِل ودُفن في جبل صهيون.

وعلى بعد ميل من جزريل Jezreel توجد هضاب جلبُوَع Gilboa حيث مات شاؤول Saul ويهوناتان Jonathan، حيث لعنهم داود كما قالت الصّحف المقدّسة:

Montes Gilboae, nec ros nec pluvia, etc.

وهذا يعني: «أنتِ يا هضاب جلبوَع لا مطر ولا ندى سيسقط عليك». وعلى بعد ميل من هضاب جلبوَع باتجاه الغرب توجد مدينة Cyropolis والتي كانت تسمّى بيت شان Bethshan، وعلى أسوار هذه المدينة كان عُلّق رأس شاؤول Saul.

وبعدها يذهب الرّجال عبر الهضبة التي بجانب سهول الخليل إلى النّاصرة، التي كانت سابقاً مدينة عظيمة وجميلة، ولكن الآن لا يوجد منها غير قرية صغيرة وبعض البيوت هنا وهناك. وهي غير مسكونة. وهي تقع في وادي صغير محاط بالهضاب. هناك ولِدت سيدتنا العذراء ولكنها أُخذت فيما بعد إلى القدس. وبسبب ولادة السّيدة العذراء في النّاصرة يحمل سيّدنا المسيح لقبه من هذه المدينة. هناك أخذ يوسف السّيدة العذراء إلى زوجته عندما كانت في عمر الرّابعة عشرة. وهناك رحّب جبريل بسيدتنا العذراء قائلاً:

Ave gratia plena, Dominus tecum!

ومعناه: «لك الكثير من التبريك، الرّبّ معك» وهذه التحيّة كانت قد قُدّمت في نفس مكان المذبح الكبير في كنيسة جميلة كانت موجودة هناك يوماً ما، ولكنها دثرت نهائياً الآن، غير أنّ النّاس وضعوا إشعاراً بجانب عمود من هذه الكنيسة ليستلموا عطايا الحجّاج، وقد أبقى المسلمون هذا المكان مكرّماً، بسبب النبي الذي لديهم هناك. ذلك أنهم كانوا أكثر قساوة في أماكن أخرى، فعطّلوا كل الكنائس.

وبالقرب من هناك يوجد نبع جبريل، حيث اعتاد سيّدنا المسيح على الاغتسال عندما كان صغيراً، ومن هذا النّبع حمل الماء عدة مرات لأمّه. وفي هذا النّبع غسلت ملابس ابنها يسوع المسيح مراراً. وتأخذ الرّحلة من القدس إلى هذا المكان ثلاثة أيام. وفي النّاصرة تربى سيّدنا المسيح. ويمكننا القول بأن النّاصرة هي وردة في الحديقة، ومن الممكن تسميتها الوردة، وذلك لأن وردة الحياة أنشئت هناك والتي هي سيّدنا المسيح.

وعلى بعد ميلين من النّاصرة توجد مدينة صفّورية Sephor، ومن هذا الطّريق نصل إلى عكّا Akon من النّاصرة. وعلى بعد نصف ميل من النّاصرة يوجد المكان حيث وثب سيّدنا المسيح. وذلك كان عندما قاده اليهود فوق صخرة عالية ليجعلوه يقفز إلى الاسفل ويذبحوه، ولكن يسوع مر من بينهم وقفز من على صخرة أخرى، وما تزال خطوات قدميه مرئية في الصّخر عندما هبط. ولذلك يقول بعض النّاس عندما يخافون

من اللصوص أو من أي شيء آخر أو يخافون من عدو:
Jesus autem transiens per medium illorum ibat

وهـذا يعني: «يسوع تركهم وعبر من بينهم ماضياً» وبالاعتقـاد وبترديد أن مخلّصنا عبر من خلال اليهود الأشرار، ونجا بنفسه منهم، يؤكد النّاس بأنهم من الممكن أن يدفعوا خطر اللصوص عن أنفسهم. وبعدها يتلو النّاس ثلاثة مقاطع من كتاب المزامير تقول:
Irruat super eos formido & pavor, in magnitudine brachii tui, Domine. Fiant immobiles, quasi lapis, donec pertranseat populus tuus, Domine; donec pertranseat populus tuus iste, quem possedisti

وعندها يمكن للناس أن يعبروا بدون خوف.

كمـا يجب أن تعلموا، بأنّ سـيدتنا العـذراء كان لها طفل عندما كانت في الخامسـة عشـرة من العمر. وكانت قد بقيت مع ابنها فترة ثلاث وثلاثين سـنة وثلاثة أشهر. وبعد آلام سيّدنا المسيح عاشت أربعة وعشرين عاماً.

ومـن النّاصـرة يذهـب النّاس إلـى جبل تابـور Tabor الذي يبعد أربعـة أميال. وهو هضبـة عاليـة جـداً ورائعة الجمال، وقـد كان يوجد هنـاك مدينة وعـدّة كنائس ولكنها خربـت جميعها. لكـن ما يزال يوجد مكان يسـمّيه النّاس مدرسـة الـرّب، حيث اعتاد أن يُعلّم تلاميذه، وأخبرهم بأسـرار السّـماء. وعند أسـفل هذه الهضبة كان ملكيصادق Melchisedech الـذي كان ملـكاً علـى سـالم، قـد قابـل إبراهيـم بالتفافه حـول هذه الهضبـة أثناء عودته من المعركة عندما ذبـح أبيملك Abimelech. كما أن ملكيصادق Melchisedech هـذا كان ملـكاً وكاهنـاً على سـالم التـي تسـمّى الآن القدس. وعلى هضبة Tabor هذه غيّر مخلّصنا شكله أمام القدّيس بطرس، والقدّيس يوحنا والقدّيس يعقوب، وهناك رأوا طيفي النبيين موسى وإلياس بجانبهم. ولهذا قال القدّيس بطرس:
Domine, bonum est nos hic esse; faciamus hic tria tabernacula.

والـذي يعنـي «ربنا، أنـه من الجيد لنـا أن نكون هنـا، اصنع لنا هنا ثـلاث مظلات» وسَمِعوا صوتاً من ربنا الآب يقول:

Hic est Filius meus dilectus, in quo mihi bene complacui.

وقد حماهم ربنا على أن يحفظوا هذه الرّؤية إلى أن بُعث من الموت إلى الحياة.

وعلى هذه الهضبة وفي نفس المكان، سينفخ أربعة من الملائكة بأربعة أبواق في يوم القيامة ليُبعث كل الاموات. وبما أن العالم كان قد خُلق من الموت إلى الحياة، فسوف يعود إلى الجسد والرّوح للحساب، أمام وجه ربنا في وادي يهوشافاط Jehosaphat. والقيامة ستكون في يوم الفصح، في نفس الوقت الذي بُعث فيه مخلّصنا. وستبدأ القيامة في نفس السّاعة التي نزل فيها ربنا إلى جهنم وأطفأها، ففي نفس هذه السّاعة سوف يوقف العالم ويقود الذين يختارهم إلى النّعيم، وسيحكم على الآخرين بالعذاب الدائم. وبعدها سيذهب كل إنسان إلى مكانه سواءٌ كان جيداً أو شريراً، ولكن إذا تجاوزت رحمة الرّب صلاحه.

وعلى بعد ميل من جبل تابور Tabor يوجد جبل حرمون، وهناك كانت توجد مدينة نائين Nain، وعند بوابة هذه المدينة أحيا مخلّصنا ابن أرملة التي لم يكن لديها أيّ أبناء آخرين. وعلى بعد ثلاثة أميال من النّاصرة توجد قلعة Safra التي منها خرج أبناء زبَدي Zebedee وأبناء ألفايوس Alpheus. وعلى بعد سبعة أميال من النّاصرة يوجد جبل قايين Cain الذي تحته يوجد بئر وبجانب هذا البئر ذبح لامك Lamech والد نوح قايين Cain بسهم، وذلك لأن قايين ذهب خلال الشّجيرات والحشائش كحيوان بري، وقد كان عاش منذ أيام والده آدم حتى زمن نوح، وعُمّر أكثر من 2000 سنة، ولامك هذا كان أعمى لكبر سنه.

ومن صفّورية Safra يذهب الرّجال إلى بحر الجليل ومدينة طبريّة، التي تقع على نفس البحر. وبالرغم من أن النّاس يسموه بحراً فهو ليس بحراً وليس فرعاً من بحر، حيث أنه عبارة عن بحيرة من الماء النّقي يبلغ طولها مئة فرلنغ وعرضها أربعين فرلنغاً[1]، ويوجد فيها الكثير من أنواع السّمك الجيد، وماؤها يصبّ في نهر الأردن.

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

أمّا المدينة فهي ليست بالمدينة الكبيرة ولكن لها ممرات على هذا البحر.

وهناك حيث انشقاق نهر الأردن من بحر الجليل[1] يوجد جسر كبير، حيث يعبر النّاس من أرض الميعاد Land of Promission إلى أرض الملك باشان Bashan وأرض جِنيسارِت Gennesaret التي تمتد ممّا حول نهر الأردن حتى بداية بحر طبريّة. ومن هناك يذهب النّاس إلى دمشق في رحلة مدتها ثلاثة أيام عبر مملكة تراخونيتيس Traconitis المملكة التي تمتد من جبل الحرمون حتى بحر الجليل أو حتى بحر طبريّة أو بحر جِنيسارِت Gennesaret وكل هذه مسمّيات لبحر واحد، وهذا هو الحوض الذي أخبرتكم عنهم سابقاً، ولكن اسمه يتغير بتغير المدن التي تقع جانبه.

وفوق هذا البحر كانت قد عبر سيّدنا المسيح جاف الأقدام، وهناك رفع القدّيس بطرس عندما بدأ يتبلل بمياه البحر وقال له:

Modice fidei, quare dubitasti?

وبعد قيامته ظهر السّيد المسيح لتلاميذه على هذا البحر وقدّم لهم سمكاً، وملأ كل الشّبكة بأسماك كبيرة. وفي هذا البحر جذّف سيّدنا المسيح عدة مرات وهناك دعا إليه القدّيس بطرس والقدّيس أندراوس Andrew والقدّيس يعقوب James والقدّيس يوحنا، أبناء زَبَدي Zebedee.

وفي مدينة طبريّة هذه توجد الطّاولة التي عليها أكل سيّدنا المسيح وتلاميذه بعد قيامته، وقد عرفوه من تقطيعه للخبز، كما قال الإنجيل:

Et cognoverunt eum in fractione panis.

وبالقرب من مدينة طبريّة توجد الهضبة التي عليها أطعم سيّدنا المسيح 5000 شخص، بخمسة أرغفة من الشّعير وسمكتين.

وفي هذه المدينة رمى رجلٌ برمح ملتهب سيّدنا المسيح، وضرب رأس الرّمح الأرض فاكتست باللون الأخضر، ونمت فيها شجرة ضخمة وما تزال تنمو حتى الآن،

---

(1) بحر الجليل هو الاسم القديم لبحيرة طبريّة.

ولهذا لها لحاء يبدو مثل الفحم.

وعند رأس بحر الجليل هذا، باتجاه الشّمال توجد قلعة متينة وعالية حيث تبلغ من العلو ما تبلغه صفّورية Saphor. وبالقرب من هناك توجد كفر ناحوم. في داخل أرض الميعاد Promission توجد قلعة ولكنها ليست قوية، كما توجد مدينة بالقرب من هذه القلعة تدعى صفّورية Saphor أيضاً. في تلك القلعة ولدت القدّيسة حنة والدة سيدتنا العذراء، وأسفل ذلك المكان كان بيت قائد المئة Centurio. وقد سميت هذه البلد بالجليل لأن النّاس كانوا يدفعون الجزية لقبيلتي زبولون Zebulon ونفتالي Napthali.

وبالذهاب مسافة ثلاثين ميلاً من هذه القلعة توجد مدينة دان Dan التي كانت تسمّى بلبناس[1] Belinas أو قيصريّة فيليبي Cesarea Philippi وهي تقع على سفح جبل لبنان، حيث يبدأ نهر الأردن. من هناك تبدأ أرض الميعاد Land of Promission وتمتد طولاً حتى بئر السّبع، وبالذهاب شمالاً من الجنوب فإنها تبلغ ثمانية أميال، أما عرضاً فيمكننا القول بأنها تمتدّ من أريحا حتى حيفا وهذه المسافة تبلغ أربعين ميلاً لومبارديا، أو ميل بلادنا والتي هي ليست نفس الأميال المستخدمة في غسقونيا Gascony ولا تلك التي تستخدم في ألمانيا، حيث أن الأميال هناك أكبر قليلاً.

كما يجب أن تعلموا بأن أرض الميعاد Land of Promission توجد في سوريا، حيث أن مملكة سوريا تمتدّ من بوادي جزيرة العرب حتى كيليكيا، وهذه تدعى أرمينيا الكبرى، حيث يمكننا القول بأنها تمتدّ من الجنوب إلى الشّمال ومن الغرب إلى الشّرق من الصّحراء العربية الكبرى حتى البحر الغربي. ولكن في مملكة سوريا هذه أيضاً توجد مملكة يهوداه Judea وكثير من المقاطعات كفلسطين والجليل وكيليكيا الصّغرى وكثير غيرها.

وفي تلك البلد وفي بلاد أخرى أبعد أيضاً يلبس النّاس لباساً خاصاً عند الحرب وعندما يريدون حصار مدينة أو قلعة، كما أنهم لا يجرؤون على إرسال أيّة رسالة من

(1) سمّيت في العهد الإسلامي بانياس، وما زالت تعرف بهذا الاسم حتى اليوم، وهي من مدن الجولان المحتل.

أمير إلى آخر بقصد طلب المساعدة، ولكنهم يعلقون رسائلهم ويربطونها إلى عنق حمامة، ويتركون الحمامة تطير، وتكون قد عُلِّمت جيداً كيف تطير بهذه الرّسائل إلى أي مكان يريدونها أن تطير إليه، لأن هذه الحمائم كانت قد ربيت في الأماكن التي تُرسل اليها، وبهذه الطّريقة يرسلون رسائلهم لأن الحمائم تعود إلى الأماكن التي ربّيت فيها، وهذا ما تفعله عادة.

كما ينبغي أن تعلموا بأن بين المسلمين يسكن الكثير من المسيحيين من مختلف المِلل والأسماء، وكلهم كانوا قد عُمِّدوا ولديهم قوانينهم المختلفة ولباسهم المختلف، ولكنهم كلهم يؤمنون بالرّب الآب والرّب الابن وروح القدس، ولا يومنون بأشياء أخرى من عقائدنا. بعضهم يدعى اليعاقبة Jacobits، وذلك لأن القدّيس يعقوب James كان قد حوّلهم للمسيحية والقدّيس يوحنا كان قد عَمّدَهم. يقولون بأن الإنسان يجب أن يعترف لله فقط، وليس لإنسان، وبأن لله وحده ينبغي للإنسان أن يعترف بأنه مخطئ في حال ضل السّبيل. وأن الله لم يعيّن أي كاهن ولم يورث أي نبي ليحلّل النّاس من خطاياهم (كما يقولون) ولكن يجب فعل هذا لله وحده، كما كتب موسى في التّوراة، وكما قال داود في المزامير:

Confitebor tibi, Domine, in toto corde meo,
Delictum meum tibi cognitum feci,
Deus meus es tu, & confitebor tibi,
Quoniam cogitatio hominis confitebitur tibi, etc.

وذلك لأنهم يعرفون التّوراة والمزامير لذلك يزعمون بأنهم يتبعونها، كما أنهم يدَّعون بعدم ضرورة المرجعية للغة اللاتينية حيث أن لغتهم واضحة تماماً، ويقولون بأن داود وأنبياء آخرين قالوا كذلك.

وبالرغم من أن القدّيس أغسطين Augustine والقدّيس غريغوريوس Gregory قالا:

Augustinus *Qui scelera sua cogitat, & conversus fuerit, veniam sibi credat*

وقال القدّيس غريغوريوس:

Gregorius *Dominus potius mentem quam verba respicit*

وقال القدّيس هيلاريون:

Longorum temporum crimina, in ictu oculi pereunt, si cordis nata fuerit compunctio

وبناءً على هذه المرجعية كما يقولون، بأن الإنسان يجب أن يطلع الله وحده على أخطائه، ويعترف بذنوبه ويبكي ويطلب منه الرّحمة ويعده بأن يصلح نفسه. ولذلك عندما يَحِلّون أحداً من خطاياه، يجلبون ناراً ويضعونها بالقرب منه وينثرون فيها مسحوقاً من البخور، وفي الدّخان المتصاعد تذهب خطاياه إلى الله، فيعطيه بدلاً منها رحمة.

ولكن ومن الواضح أن الاعتراف بالخطايا كان على هذه الطّريقة في السّابق، ولكن القدّيس بطرس التلميذ والذين أتوا بعده شرَّعوا بأن يكون الاعتراف بالخطايا لإنسان وذلك لسبب منطقي، وهو أن يروا فيما إذا كان هذا الإنسان لا يعاني من مرض من الممكن معالجته، وعندها من الممكن أن يعطوه دواءً، فإذا لم يعرف أي إنسان بطبيعة مرضه فمن غير الممكن أن يعطى دواءً شافياً، وذلك لأن الخطيئة قد تكون مختلفة من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر أو من وقت إلى آخر، ولهذا ينبغي أن يعرف نوع الخطيئة إنسان ما، وهكذا يغفر له خطاياه.

كما يوجد آخرون يدعون بالسّريان، وهؤلاء يؤمنون بنفس عقائدنا ومنهم اليونان. ولهم لحى كاليونان تماماً، ويصنعون سرّهم المقدّس من الخبز، وفي لغتهم يستعملون الأحرف العربية، ولكن وبعد غموض الكنيسة المقدّسة أصبحوا يستخدمون الأحرف اليونانية، ويعترفون بخطاياهم تماماً كما يفعل اليعاقبة Jacobites.

كما يوجد أناس آخرون يدعون الجورجيين، هؤلاء الذين بشّرهم بالمسيحية القدّيس جورج، فإنهم يبجّلونه أكثر من أيّ قدّيس آخر، ويتوسّلون إليه ليساعدهم، وأصولهم من جورجيا. وهؤلاء النّاس لهم جُمّات شعر محلوقة، فالمحاسب له جُمّة

دائرية الشّكل والفاسقون لهم جُمّات مربعة. وهم يتبعون القانون المسيحي، كما يفعل النّاس في اليونان الذين ذكرتهم سابقاً.

ويوجد أيضاً هناك أناس آخرون يسمّيهم المسيحون بالمحزّمين Girding وذلك لأنهم يرتدون الأحزمة. كما يوجد آخرون يدعون بالنّساطرة Nestorians وبعضهم يدعون بالأريانيين Arians، وبعضهم يدعى بالنّوبيين Nubians وبعضهم من اليونان، وآخرون من الهند وبعضهم من أرض الرّاهب يوحنا[1]. وكل هؤلاء لديهم الكثير من قوانينا ومعتقداتنا، ولديهم الكثير غيرها مختلف. ولكثرة اختلافهم من غير الممكن ذكرهم، لذلك سأترك هذا بدون الإطالة في ذكرهم أكثر من ذلك.

* * *

(1) تقدّم ذكر هذا الملك الأسطوري أعلاه، في الفصل السادس.

الفصل الرّابع عشر

عن مدينة دمشق، وعن الطّرق الثّلاث المؤدية للقدس، أحدها براً وبحراً، الآخر براً أكثر منه بحراً والطَريق الثّالث للقدس كله براً

والآن وبعـد أن أخبرتكم عن جزء من النّاس في هذه البلاد، أعود ثانية على طريقي لأرجع إلى هذا الموضع:

فمن أراضي الجليل - التي تحدّثتُ عنها - يعود المسـافرون أدراجهم إلى دمشـق، وهـي مدينة جميلة وفخمة جـداً، ومليئةٌ بكل أنواع البضائع. تبعد عن البحر ثلاثة أيام، وعن القُدس خمسـة أيام. يحمل إليها التجّار بضائعهم على الجمال والبغال والخيول والهجـن والـدّواب الأخرى، كما تصل إليهـا البضائع بحراً من الهنـد وإيران والعراق Chaldea وأرمينيا، ومن ممالك أخرى عديدة.

كانـت مدينة دمشـق قد بُنيت أصـلاً على يـد «هِليزيوس داماسـكوس» Helizeus Damascus، الـذي كان تابعـاً لإبراهيم النبـي وخادماً، قبل مولد إسـحاق. ولأنه كان يأمـل أن يـرث إبراهيـم، فقد بنى المدينة وسـمّاها باسـمه الشـخصي «داماسـكوس» Damascus. وفي هذا المكان الذي شُـيِّدت فيه دمشـق قتل قابيل أخاه هابيلَ. وبقرب دمشق جبل سنير[1] Seir.

---

(1) جبل سَنير قديماً هو حرمون، لكن الشائع في القرون الوسطى أنه سلسة لبنان الشرقية. ومعنى اسم شنير في الكنعانيّة: المَجلَدة، أي القمم المكسوة بالثلوج.

يوجد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه، وتنتشر فيها وحولها البساتين الغنّاء المترعة بعموم أصناف الفاكهة. إنها مدينة لا تجارى من حيثُ نضارة بساتينها للاستجمام. وهي حاضرة كبيرة تغصّ بالسّكان، ويدور بها سورٌ قويّ مزدوج، وبها العديد من الأطبّاء.

والواقع أن القدّيس بولس نفسه كان بدمشق طبيباً، يزاول تطبيب أجساد الناس، قبل اهتدائه وتكريسه طبيباً للأرواح. كما كان لوقا الإنجيلي واحداً من مُريدي بولس وتلامذته في الطبّ، فضلاً عن الكثيرين غيره، إذ أن بولس كان يقوم على مدرسة لتعليم الطب. ثم اهتدى بالقُرب من مدينة دمشق، وعقب اهتدائه أقام بهذه المدينة ثلاثة أيام فاقد البصر، دون طعام أو شراب. وفي هذه الأيام الثلاثة رُفع إلى السّماء، فأطلعه الله على بعض حقائق الكون.

وغير بعيد عن دمشق تقع قلعة Arkes[1]، وهي قلعة جميلة وقويّة في آن واحد.

ومن دمشق يعود الرّجال إلى دير سيّدة صيدنايا Lady of Sardenak، وهو يبعد عن دمشق مسافة خمسة أميال. والدّير يستقرّ على صخرة، وهو مكان جميل ويبدو وكأنه حصن، كما كان أصلاً فيما مضى، لكنه صار الآن كنيسة بغاية البهاء، وفيها رُهبان وراهبات مسيحيون.

وثمّة دارة تحت الكنيسة يقطنها المسيحيون أيضاً، ولديهم كُروم جيّدة. وفي جدار الكنيسة خلف المذبح، توجد لوحة من الخشب الأسود، كان مرسوماً عليها بالسّابق صورة للسيّدة العذراء، وكانت تتجسّد إلى لحم حيّ، لكنها الآن تبدو بالكاد باهتة. غير أنها ما زالت على الدّوام - ببركة الله - ترشح زيتاً قريب الشّبه بزيت الزّيتون. ولقد وُضع تحت اللّوحة حوضٌ رُخاميّ، ليتجمّع فيه الزّيت الذي يقدّمون منه إلى الحجّاج،

(1) كذا بالأصل، ولم يكن غير الواضح ما يعنيه ماندڤيل بهذه القلعة غير البعيدة عن دمشق. يبدو الاسم قريباً من Krak (والاسم آرامي)، أي حصن الأكراد (قلعة الحصن)، كما تسمّى بالفرنسية، وعنها نقلت باقي اللغات الأوروبية: le Crac des Chevaliers، غير أنها لا تقع بالقرب من دمشق. ولكن من خلال كلامه أدناه (حيث يسمّيها Arkez) يتضح أنه يقصد بها قلعة عَرقة القريبة من طرابلس.

حيث أن له خواصاً في إشفاء الكثير من الأمراض. وهذا الزّيت يبقى صافياً لمدّة سنة واحدة، فإذا انقضت السّنة استحال إلى لحم ودم [1].

ومن صيدنايا Sardenak يذهب الرّجال عبر وادي البقاع Bochar وهو وادٍ جميل جداً يقع بين الهضاب ويوجد فيه الكثير من الفواكه من جميع الاشكال والألوان، وهناك توجد أيضاً أنهار ومروج ومراعٍ غاية في الجمال ترعى فيها الحيوانات. ويذهب الرّجال عبر جبال لبنان Lebanus التي تمتد من أرمينيا حتى شمال دان Dan، التي هي نهاية أرض الميعاد Repromission من جهة الشّمال، كما كنت قد ذكرت سابقاً. والتلال هناك مثمرة جداً ويوجد فيها الكثير من الينابيع وأشجار الأرز والسّرو، كما يوجد العديد من القرى الجميلة تمتدّ حتى رؤوس هذه الهضاب التي هي مليئة بالناس.

وبين مدينة عَرقة[2] Arkez ومدينة رفنية Raphane يوجد نهر يدعى Sabatory وهو يجري سريعاً يوم السّبت، أما باقي أيام الأسبوع فإنه يقف ولا يجري إلا قليلاً، وبين الهضاب المذكورة توجد مياه تتجمّد في أثناء الليل ولا تجد أي أثر للجليد عليها في أثناء النّهار. وبعد التقدّم عبر هذه الهضاب توجد تلة أعلى من غيرها، يسمّونها

---

(1) أفاض الرّحالون الغربيون بذكر هذه الأيقونة العجائبية وزيتها، ولا زالت تتمتّع بشهرة فائقة إلى يومنا هذا، يقصدها النّاس وأصحاب الأمراض، من جميع الملل والدّيانات. راجع ما يذكره ابن فضل الله العُمَري ؛ وانظر كتابي: وصف دمشق في القرن السابع عشر، ص 66. أما أوسع مرجع عن تاريخ صيدنايا وأديرتها وأيقونتها فهو: «خبايا الزّوايا من تاريخ صيدنايا» لحبيب الزيّات، المنشور في حريصا 1932. والزّيّات يدّعي في كتابه أن الأيقونة سُرقت منذ زمن بعيد. غير أن القائمين على الدّير من الرُّوم يرفضون ما جاء في كتابه، ويعدّونه مارقاً لا يُقبل كلامه.

(2) يخيّل لي هنا أنه يقصد عرقة في عكّار، التي تبعد عن طرابلس 25 كيلومتراً إلى الشمال، وعن حَلبا 3 كيلومترات إلى الغرب. وكذلك فرفنيّة موقع قريب من طرابلس. وعلى ذلك يتأكد لنا أن ماندفيل كان يقصدها عندما ذكر قلعة غير بعيدة عن دمشق. وكانت في عرقة قلعة صليبيّة تتبع كونتيّة طرابلس وتحتل موقعاً ستراتيجياً حيث تتحكم بالطريق بين طرطوس وطرابلس، وتشكّل مع حَلبا والقليعات مثلثاً يحمي طرابلس من غزو يأتي من ناحية حمص.

الهضبـة العاليـة[1]، حيث توجد مدينة كبيرة وجميلة تسـمّى طرابلـس، وبها الكثير من المسيحيين الصّالحين، الذين يتبعون نفس طقوسنا وتقاليدنا.

ومن هناك يمرّ الرّجال بمدينة تدعى بيروت، حيث قتل القدّيس جورج التنين، وهي مدينـة جيـدة ويوجـد فيها قلعة جميلـة، وهي تبعد رحلـة ثلاثة أيام من مدينـة صيدنايا Sardenak المذكورة سـابقاً. وبالذهاب سـتة عشر ميلاً من أحد أطراف بيروت نصبح بالقرب من مدينة صيدا. ومن بيروت يعبر الحجيج البحر للذهاب إلى قبرص، ويصلون إلى ميناء صور، وهكذا يصلون عبر مسافة صغيرة، أو بإمكان النّاس أن يذهبوا من مرفأ صـور Surry وقد لا يذهبـون إلى قبرص وإنما يذهبون إلى مكان مـا من بلاد اليونان، كما كنت قد ذكرت لكم سابقاً.

لقـد كنت قد ذكـرت لكم كيف يمكـن للناس الوصـول بطريقة طويلـة وبعيدة إلى القـدس، وذلـك كان عن طريق بابل وجبل سـيناء وعدة أماكن أخـرى أخبرتكم عنها، وكذلـك عبـر الطّريق التي يجب علـى النّاس أن يلتفوا بها للوصـول إلى أرض الميعاد Land of Repromission. أمـا الآن فسـأخبركم بالطريـق الصّحيحـة والقصيـرة إلى القـدس، وذلـك لأن بعـض النّاس لا يرغبـون بالذهاب مـن طرق أخرى بسـبب أنهم لا يريـدون صـرف الكثير من المال، أو بسـبب عـدم وجود رفقة جيدة مـع البعض، أو لعـدم قـدرة البعض الآخر على تحمل السّـفر الطّويـل أو لخوفهم البعـض من أخطار الصّحراء، أو بسـبب استعجال البعض الأخر في الوصول إلى أرض الوطن لاشتياقهم إلـى زوجاتهـم وأبنائهم، أو قد يكـون لدى الآخرين أسـبابهم المنطقيـة للوصول إلى بلادهم سريعاً.

ولهذا سـأعرض عليكم كيف يمكن للناس أن يصلوا بسرعة ويأدّوا حجّهم للقدس بوقـت قصير. فيمكـن للمرء القادم من بـلاد الغرب أن يذهـب عبر فرنسـا ومن ثم عبر

---

(1) كلام ماندڤيل تغلب عليه الدّقة وصحّة الوصف، وهو هنا يشير إلى قرنة السّودا، أو ظهر القضيب، التي هي فعلاً أعلى قمّة في بلاد الشّام ويبلغ ارتفاعها 3093 متراً. وهي بالفعل قريبة من طرابلس.

بورغونيا Burgoyne ولومبارديا Lumbardy. وكذلك يمكن أن يذهب إلى البندقية أو جنوة Genoa أو مدن أخرى ويبحر من هناك وينطلق عبر البحر إلى جزيرة Greff التي لها علاقة بالجنويين Genoans.

وعند وصوله إلى اليونان عند مرفأ ميروك Mirrok أو ڤالون Valoun أو دوراس Duras أو أي من المدن الجميلة الأخرى في هذا البلد، يريح نفسه هناك ويشتري مؤونته ويبحر مرة أخرى إلى قبرص حيث يصل إلى فاماغوستا Famagost وليس إلى جزيرة رودوس. حيث أن فاماغوستا هي أكبر المرافئ في قبرص، وهناك يرتاح وينتعش قليلاً ثم يشتري مؤونته ومن ثم يبحر ثانية، حيث أنه إذا أراد فلن يرسو على أي أرض مرة أخرى قبل ميناء يافا، التي هي المرفأ للوصول إلى القدس، وتبعد فقط رحلة يوم ونصف من القدس، أي مايقارب ثلاثة وستين ميلاً.

ومن ميناء يافا يذهب الرّجال إلى مدينة الرّملة Rames التي ليست ببعيدة من هناك، وهي مدينة جميلة وكبيرة ومليئة بالناس، ومن هذه المدينة باتجاه الجنوب توجد كنيسة لسيدتنا العذراء، حيث أظهر مخلّصنا لها نفسه على ثلاث غيمات، يمثلن الثّالوث المقدّس. وبالقرب من هناك يوجد مدينة أخرى يسميها النّاس Dispolis ولكنها سميت في وقت مضى اللُّدّ Lidda، وهي مدينة جميلة وفيها عدد جيد من السّكان، وهناك يوجد كنيسة للقدّيس جورج وكان قد توجّه اليها. ومن هناك يذهب الرّجال إلى قلعة عمواس Emmaus وكذلك إلى جبل المسرّة Joy ومن هناك يستطيع الحجّاج أن يروا القدس للمرّة أول.

وبجانب هذه الطّرقات توجد مدينة الرّامة Ramatha وجبل مودين Modyn ومن هناك كان متاتيا Matathia والد يهوداه المكابي Judas Machabeus. كما يوجد هناك قبور المكابيين Machabees. وما وراء الرّامة Ramatha توجد مدينة تقوع Tekoa والتي منها كان النّبي عاموس Amos وفيها قبره كذلك.

* * *

قد كنت قد ذكرت لكم مسبقاً كل شيء عن الأماكن المقدّسة في القدس، ولهذا لن أتكلم عنها مجدداً هذه المرة، ولكن سأنتقل لاخبركم عن طرق برّية أخرى يمكن للمرء أن يعبرها، وخاصة فيما إذا كان لا يريد أن يتكبّد مشاق السّفر في البحر كثيراً، وإذا أراد السّفر عبر البرّ أكثر، إذا كان السّفر عبر البحر يشكل له عذاباً أكبر. حيث يمكن للمرء أن يعبر البحر حتى أحد مرافئ لومبارديا Lumbardy حيث أنها أفضل المناطق للتزوّد بالمؤن، أو من الممكن أن يعبر إلى جنوة Genoa أو إلى البندقية أو أي مدينة أخرى. ويجب أن يعبر البحر إلى اليونان عند مرفأ ميروك Mirrok أو ڤالون Valoun أو دوراس Duras أو أي مرفأ آخر في هذا البلد.

ومن هناك يجب الذهاب عبر البرّ إلى القسطنطينية، ويجب على المرء عبور المياه التي تدعى دعامة القدّيس جورج، وهي فرع من البحر، ومن هناك يجب الذهاب عبر البرّ إلى Ruffynell حيث يوجد قلعة قوية وجميلة. ومن هناك يجب الذهاب إلى Puluual وعندها يصل إلى قلعة Sinope. ومن هناك إلى كپادوقيا Cappadocia التي هي بلد عظيمة، حيث يوجد كثير من التلال الكبيرة. ويجب عليه من ثم الذهاب عبر تركية إلى ميناء Chiutok وإلى مدينة نيقية Nicaea، التي تبعد مسافة سبعة أميال من هناك. هذه المدينة استولى عليها الأتراك من إمبراطور القسطنطينيّة، وهي مدينة جميلة ومسوّورة بشكل جيد من طرف واحد، أما من الطّرف الآخر فيوجد بحيرة كبيرة ونهر كبير، يسمّى Lay، ومن هناك يذهب الرّجال عبر تلال Nairmount وعبر وديان Mailbrins والمنحدرات الضيقة، كما يمرّون بمدينة Ormanx أو بالمدن التي على Riclay وعلى Stancon وهما نهران عظيمان وجليلان، ومن هناك إلى أنطاكية التي تقع على نهر Riclay. وحول المنطقة هناك يوجد الكثير من التلال الجميلة والكثير من الغابات الرّائعة والكثير من الحيوانات البرية للصيد.

كما من الممكن الذهاب من طريق أخرى، حيث يمكن للمرء الذهاب عبر سهول Romany المحاذية لبحر الرّومان. على هذا السّاحل توجد قلعة جميلة يسميها النّاس Florach وهي توجد في موضع منيع، وأعلى قليلاً بين الجبال توجد مدينة جميلة

تدعى طرسوس Tarsus ومدينة Longemaath ومدينة Assere كما توجد مدينة Marmistre. وعندما يعبر المرء هذه الجبال وهذه المنحدرات يمر من مدينة مرعش Marioch ومدينة Artoise حيث يوجد جسر عظيم فوق نهر Ferne، الذي يسمّى فرفر[1] Farfar وهو نهر كبير تعبر فيه السّفن وينبع من الجبال القريبة من مدينة دمشق، وبجانب مدينة دمشق يوجد نهر آخر يأتي من هضاب لبنان اسمه أبانا[2] Abbana، وعند عبور هذا النّهر فقد القدّيس أوستاخيوس Eustace الذي كان يسمّى في وقت مضى پلاكيداس Placidas زوجته وولديه. وهذا النّهر يعبر سهول Archades حتى البحر الأحمر، ومن هناك يذهب الرّجال إلى مدينة Phenice حيث يوجد ينابيع حارة وحمامات ساخنة.

وبعدها يذهب الرّجال إلى مدينة Fernc وبين مدينة Phencic ومدينة Fernc مسافة عشرة أميال، حيث يوجد الكثير من الغابات الجميلة. وبعدها يصل الرّجال إلى أنطاكية Antoioch التي تبعد عن هناك عشرة أميال. وهي مدينة جميلة ومسوّرة جيداً في جميع أطرافها كما يوجد عدة أبراج جميلة، وهي مدينة عظيمة ولكنها في وقت مضى كانت أعظم ممّا هي عليه الآن، لأنها كانت سابقاً تبلغ ميلين طولاً وميلين ونصف عرضاً. وعبر منتصف هذه المدينة تجري مياه نهر فرفر[3] Farphar كما يوجد فوقها جسر كبير، وفي وقت مضى كان يوجد على الأسوار التي حول المدينة ثلاثمئة وخمسون برجاً، وعلى كل عمود من عواميد الجسر كانت يوجد صخرة. وهذه تعتبر أكبر مدينة في مملكة سوريا. وعلى بعد عشرة أميال من هذه المدينة يوجد مرفأ القدّيس سمعان

---

(1) هذا غلط، والمقصود هنا نهر العاصي Orontes، فنهر فرفر في الواقع هو الأعوج الذي ينبع من سفح جبل الشيخ إلى الجنوب الغربي من دمشق.

(2) نهر أبانا ما هو إلا نهر بردى نهر دمشق، سمّي باليونانيّة: Βανvας (بانّاس) التي تعني نهر الحمّام، وذلك لأن أحد فروع بَرَدى (وهو بانياس الذي حافظ على التسمية) يدخل إلى المدينة متوجهاً إلى حمّامات معبد زيوس الوثني القديم (هَدَد سابقاً، ثم جوپيتر لاحقاً) الواقعة في جهته الجنوبية، وصار موضعها في عهد الحكم الرّوماني معبداً لحوريّات الماء. ولذلك أظن أن تسمية بانّاس غلبت على الاسم الكنعاني القديم: بَرَدى (وهو ليس آرامياً كما يُظن).

(3) ذكرنا أعلاه أن المقصود هنا نهر العاصي Orontes وليس فرفر الذي هو نهر الأعوج.

Symeon وهناك تصب مياه فرفر Farpar في البحر.

ومـن Antioch يذهب الرّجال إلـى مدينة تدعى اللاذقيّة Lacuth وبعدها إلى جَبلة Gebel وبعدهـا إلـى طرطوس Tortouse. وبالقرب من هنـاك توجد أرض Channel حيـث توجد قلعة منيعة تسـمّى قلعة المرقب[1] Maubek. ومـن طرطوس Tortouse يعبر الرّجال إلى طرابلس عبر البحر، وإلا كانوا سيعبرون في البرّ عبر المضائق التي في الجبـال والمنحدرات. وهناك مدينة تدعـى جبيل[2]. ويذهب الرّجال من طرابلس إلى عـكّا Acres ومن هناك يوجد طريقان للوصول إلى القدس، واحد منهما على النّصف الأيسر والآخر على النّصف الأيمن. فمن الطّريق الأيسر يذهب النّاس عبر دمشق وعبر نهـر الأردن. ومن الطّريق الأيمن يذهبـون عبر Maryn وعبر أرض Flagramy وقرب الجبال في أرض حيفا Cayphas. ويدعو النّاس القلعة التي هناك بقلعة الحجيج. ومن هنـاك إلى القدس رحلة ثلاثة أيام، يعبر الرّجال خلالهـا من قيصريّة فيليبي Caesarca Philippi وهكذا نصل إلى يافا وإلى الرَّملة Rames وإلى قلعة عمواس Emmaus إلى أن نصل بعدها إلى القدس.

* * *

الآن وبعد أن أخبرتكم عن بعض الطّرق البرية والبحرية التي يتبعها النّاس للذهاب إلى الأرض المقدّسة بعد المرور بعدة أقطار وبلدان مختلفة، أذكر مع ذلك أنّ كل هذه الطّرق تنتهي إلى نهاية واحدة. وما يزال هنالك طريق آخر يذهب إلى القدس وكله عن طريق البر، ولا يعبر البحر أبداً، والذي هو من فرنسا أو الفلاندر Flanders، ولكن هذا الطّريـق طويل جداً وخطر ومتعب، ولهـذا فقليل من النّاس من يذهب عليه. فمن يريد أن يذهب عبر هذا الطّريق ينبغي له أن يمرّ من ألمانيا وبروسيا Prussia وأرض التّتار[3]

(1) التسمية غير واضحة وقد أثبتّها المرقب على سبيل الترجيح، فهل يريد قلعة المرقب قرب بانياس، أم قلعة الحصن القريبة من طرطوس، أم مثلاً قلعة المضيق قرب أفاميا بمحافظة حماة؟ المفترض جغرافياً أنه يقصد قلعة المرقب أو قلعة الحصن.

(2) وفي هذه المدينة بالذات أخطّ هذه الكلمات وأحرّر هذا الكتاب.

(3) بلاد التتار Tartary تعبير شاع في أوروبا بالقرون الوسطى على سهوب آسيا الوسطى والشماليّة،

Tartary. وأرض التّتـار هذه تقع في مُلك خان كاثاي[1] Caan of Cathay الذي أفكر بذكره لاحقاً.

وهـذه الأرض القاحلة والرّملية لا تطرح مـن الثّمار إلا القليل، فهناك لا تنمو الذرة ولا العنب ولا البقول ولا أي شيء من الثّمار الأخرى التي من الممكن أن تكون صالحة للإنسـان أن يستخدمها للعيش، ولكـن يوجد هناك فقـط الحيوانات بكميـات كبيرة، ولهذا فالسّـاكنون هناك لا يأكلون إلا الأسـماك دون أي نوع من أنواع الخبز ويحتسون الحساء، ويشربون أي حليب من الممكن أن يستخرج من أي حيوان. كما أنهم يأكلون الـكلاب والقطـط والجـرذان الصّغيرة وكل أنـواع الحيوانات البرية، كمـا أنه لا يوجد أشجار أو أي شيء مشابه، ولهذا فإنهم يطهون لحومهم بروث الأحصنة وروث الأبقار أو أي روث من الحيوانات الأخرى، ويجففونه بالشمس. والأمراء والآخرون أمثالهم يأكلون مرة واحدة في اليوم، وهذا قليل جداً. كما أنهم أناس مفسدون وأشرار.

وفي الصّيف تعصف بجميع الأقطار هناك عواصف شـديدة والكثير من العواصف الرّعديـة المريعة، فتقضي على الكثير من النّاس والحيوانات وهذا يحدث في كثير من الأحيان. وفجأة تشتدّ الحرارة وفجأة تنخفض جداً، كما أنها من أقبح البلدان وأكرهها ويوجد فيها أفقر ناس يمكن أن نراهم. وأميرهم الذي يحكم البلاد يدعى Batho يسكن في مدينة Orda وحقاً لا يمكن لأي إنسـان عادي أن يسـكن هنـاك، حيث أنها صالحة لسـكن الكلاب فقط. وهي بـلاد صالحة لزراعة الشّـوكيات وبعـض النّباتات الجبلية والبرية والأشـواك، ولا يمكن لأي شـيء آخر أن ينمو هناك، مع أن بعض النّاس قالوا بأنه يوجد بعض الأراضي الجيدة في بعض المناطق ولكنها لا تعطي سوى القليل.

لـم أذهب إلـى هذه البلاد، ولا من هذه الطّرق، ولكني كنت في أراضٍ أخرى تصل

من بحر قزوين غرباً إلى جبال الأورال وصولاً إلى المحيط الهادي شرقاً، وتضمّ أراضي سيبيريا وتركستان ومنغوليا ومنشوريا.

(1) في تعابير أوروبا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة: Китай كيتاي. وقوله هنا خان كاثاي ينطبق على فرع إمبراطوريّة التّتار في الصّين.

إلى هذه البلاد، كروسيا وكأرض Nyflan، كما كنت في مملكة كراكوف[1] Cracow وليتو[2] Letto، وفي مملكة داغستان[3] Daristan وفي عدة مناطق أخرى تؤدي إلى هذه الطّرق. ولكنني لم أذهب أبداً إلى القدس من هذه الطّريق ولذلك لن أستطيع أن أخبركم جيداً عنها.

ولكن إذا كان هذا الأمر قد راق لأي رجل ذي شأن قد سبق له السّفر عبرها، فمن الممكن أن يخبر عنها إن كان يرغب بذلك، بقصد إرشاد الذين سوف يذهبون من هذه الطّريق ويسافرون عبر طرقها، لكي يعرفوا ما هي هذه الطّريق. هذا لأنه ليس من الممكن أن يعبر أحد هذه الطّريق بسلام، أما في الشّتاء، فتوجد المياه الخطرة والأمطار الكريهة التي تكون في هذه البلاد، وكذلك لا يمكن لأي إنسان أن يعبر، وبسبب الصّقيع والثّلوج أيضاً، حيث أن الثّلوج لا تبقي أحداً، فلا يستطيع أي إنسان أو حصان أو عربة أن يمرّ فوق ذاك الجليد هناك.

تستغرق الرّحلة ثلاثة أيام من هذه الطّريق للعبور من بروسيا Prussia حتى الوصول إلى أرض المسلمين المأهولة. وينبغي للرّجال المسيحيين أن يحاربوهم مرة في كل سنة ليأخذوا المؤونة منهم، لأنهم سوف لا يجدون أي شيء جيد، ولذلك فعليهم أن يحملوا مؤونتهم فوق الجليد بواسطة عربات دون عجلات، يسمّونها الزّلاجات. وبقدر ما تبقى مؤونتهم يبقون مقيمين هناك، ولكن ليس أكثر، وذلك لأنهم لا يستطيعون أن يجدوا أي مخلوق يبيعهم أيّة مؤونة أو أي شيء آخر. وعندما يرى الجواسيس أي رجل مسيحي اقترب منهم، فإنهم يركضون إلى المدن ويصرخون بصوت عالي: كيرّا، كيرّا، كيرّا.. *Kerra, Kerra, Kerra*. وبعد ذلك سرعان ما يهاجمونهم ويربطونهم معاً.

---

(1) كراكوف مدينة قديمة مشهورة في جنوبي بولونيا على نهر فيسلا (فيستولا بالإنكليزية).

(2) من الواضح أنه يعني ليثوانيا في شمال أوروبا على بحر البلطيق.

(3) هكذا يبدو لي الاسم كما يكتبه، وداغستان تقع في شمالي هضبة القفقاس الواقعة إلى الجنوب الغربي من روسيا وشمال شرقي البحر الأسود.

كمـا ينبغـي عليكم أن تعلموا بـأن الصّقيع في هذه البلدان هو أشـدّ فـي هذا الجزء منها، حيث أن كل إنسان يطبخ في بيته، ومن هذا الشّواء يأكلون ويمارسون مهنهم كلٌّ حسـب استطاعته، وذلك لأن هذا هو الجزء الشّمالي والنّاس يسمّونه Septentrional حيث لا يوجد إلا البرد، والشّـمس لا تسـطع إلا بشكل ضئيل جداً أو حتى شبه معدوم فـي هذه البـلاد. ولهذا ففي Septertrion التي هي أقصى الشّـمال تكون الأرض باردة جداً ولا يسـتطيع أحد أن يسـكن فيها، وعلى العكس باتجاه الجنوب يكون الجو حاراً جداً ولا يسـتطيع أيّ أحد أن يسـكن هناك، بسـبب الشّمس التي تسـقط أشعتها بشكل مستقيم على الجزء الجنوبي هذا.

* * *

الفصل الخامس عشر

عن عادات المسلمين، وعن قوانينهم
وكيف نصحني السُّلطان أنا مؤلف هذا الكتاب، وعن بداية محمّد

والآن، بما أنني قد تحدّثت عن العرب وعن بلادهم، وإذا كان لكم الرّغبة بأن تعرفوا شيئاً عن قانونهم ومعتقدهم، فسوف أخبركم عن كتابهم الذي يسمّى القرآن *Alkaron*، وبعضهم يسمّونه مصحف *Meshaf*، وآخرون يسمّونه حُرمة *Harme*، وذلك وفقاً لاختلاف لغة البلد. وهذا الكتاب هو الذي هداهم به محمّد. في هذا الكتاب ومن بين الأشياء الأخرى كُتِب كما رأيت وقرأت عدة مرات، بأن الصّالح سوف يذهب إلى الجنة والآثم يذهب إلى النّار، وهذا اعتقاد كل المسلمين.

وإذا سألهم أحدٌ ماذا يعنون بالجنّة، يقولون بأن الجنة هي ذلك المكان المضيء حيث يجد النّاس كل أنواع الثّمار في كل الفصول، وتجري فيها الأنهار بحليب وعسل، وبخمر ومياه عذبة، وبأنه سيكون لهم فيها بيوت جميلة وفخمة، وكل إنسان له فيها أرضه، جُعلت من أحجار كريمة وذهب وفضة، وبأن كل رجل سيكون له أربع زوجات عذراوات، وبأنه ينتابهن كل يوم، ودائماً يجدهن عذراوات.

كما يعتقدون ويتكلّمون بخير عن مريم العذراء وعن تجسّد المسيح. ويقولون بأن مريم عُلِّمت على يد ملاك، وبأن جبريل قال لها بأنها قد اختيرت من بداية الخلق وقد أراها تجسيد عيسى المسيح، وبأنها حملت ووضعت ولدها وهي عذراء ويصف كتابهم هذا الأمر.

كمـا يقولـون بأن يسـوع تكلّـم عند ولادته، وبأنـه كان نبيـاً كريماً وصادقـاً بكلماته وأفعالـه، وأنـه كان مسـكيناً ومسـتضعفاً، كما أنـه كان على حـق ومطهّراً مـن الرّذائل والعيوب.

ويقولـون أيضـاً، بأنـه عندمـا أرى الملاك تجسـيد المسـيح لمريم، كانـت صغيرة وخافـت منـه كثيـراً، وذلك لأنه في ذلـك الوقت كان يوجد سـاحر في البـلاد يمارس السّـحر والشّـعوذة وكان يدعى تكنيا Taknia، وبواسـطة سـحره كان يمكنه أن يحوّل نفسـه إلى هيئة ملاك ويذهب ليغشـى العذراوات، ولهذا خافـت مريم في ذلك الحين خشـية أن يكـون هذا المـلاك هو تكنيـا Taknia وقد جاء ليخدع العـذراوات. ولذلك وفي وقتها سألت الملاك بأن يقول لها فيما إذا كان هو تكنيا أو لا، فأجابها الملاك بأنها يجب ألا تخاف منه لأنه رسول ليبشّرها بيسوع المسيح.

كما أن كتابهم القرآن *Alkaron* يقول بأنها عندما كانت تضع مولودها تحت النّخلة كانت تشـعر بخجل كبير بسـبب هذا الطّفل، وبأنها بكت وتمنت لو أنها ماتت، وحينها تكلم المولود إليها وواسـاها، حيث قال: «يا أمي، لا تخافي ولا تحزني، لأن الرّب قد وضع فيكِ سرّه لخلاص البشـرية»، وفي مواضع كثيرة أخرى يقول قرآنهم بأن عيسى المسيح تكلّم حين ولادته، كما يقول بأن عيسى المسيح كان قد أرسل من ملكوت الله ليكون مرآةً وعبرة وآية لكل النّاس.

كمـا أن القـرآن *Alkaron* يتحدث عـن يوم القيامة، وكيف أن الرّب سـيأتي إلى كل النّـاس وبأنه سـيأخذ الصّالحين ويباركهم، والمفسـدين سـيضعهم فـي عذاب جهنم. ومـن بين كل الأنبياء كان يسـوع الأكثر امتيازاً وخصوصية والأكثر جدارة عند الرّب، وبأنـه جـاء بالإنجيل وفيـه القوانين الصّحيحـة والسّـليمة، وبأنه كامل ومليـء بالحق والإرشـادات الصّادقة للإيمان بالرّب. وبأنه كان نبياً صادقاً حتى أنه كان أكثر من نبي، وعـاش كل حياتـه دون أيّـة خطيئة، وأعـاد البصر للأعمى، وشـفى الأبـرص، وأحيى الموتى، ورُفع إلى الجنة.

وعندمـا يحمل النّاس هناك كتاب أناجيل سـيّدنا وتحديـداً *Missus est Angelus*

Gabriel، فإنهم يقدّسونه ويقبّلونه، ويردّدون مراراً في صلواتهم من فحواه.

وهم يصومون شهراً كاملاً في السّنة فلا يأكلون شيئاً في النّهار وإنما يأكلون فقط في الليل، كما أنهم يبقون بعيدين عن زوجاتهم طوال هذا الشّهر، ولكن النّاس المرضى لا يُجبرون على الصّيام.

كما أن هذا الكتاب يتحدّث عن اليهود ويقول بأنهم ملعونون، لأنهم لم يؤمنوا بأنّ يسوع قد أرسل من الله، ولأنهم ادّعوا بالباطل على مريم وابنها يسوع المسيح، ويقولون بأنهم أرادوا أن يصلبوا يسوع ابن مريم ولكنهم لم يفعلوا أبداً، كما يقولون، ولكن الرّب رفعه إليه دون موت أو سوء. ولكن شُبّه به يهوذا الإسخريوطي وهو الذي صلبه اليهود، وزعموا بأنه هو يسوع. ولكن يسوع رُفع إلى السّماوات بسرعة.

وبذلك يقولون بأن المسيحيين مخطئون وليس لديهم معلومات صحيحة حول هذا الموضوع، وبأنهم يؤمنون مخطئين بأن المسيح قد صُلب. ويقولون أيضاً بأنه وبصلبه فإن الله يكون قد فعل شيئاً مخالفاً لحكمته بأن يجعل المسيح يتعذّب على الصّليب وهو بريء، وأن يوضع على الصّليب دون أي ذنب جنته يداه. وبهذا الخصوص يقولون بأننا مخطئين وبأن حكمة الله وعدله من غير الممكن أن تفضي إلى هذا الخطأ الكبير، فهم يؤمنون بخطئنا هذا وبأنهم يعلمون جيداً بأن أعمال يسوع المسيح كانت كلها جيدة وبأن كلماته وأفعاله وإرشاداته التي في الإنجيل كانت كلها صادقة وصحيحة، ومعجزاته كلها كانت صحيحة وأن مريم العذراء امرأة قدّيسة وصالحة، وكانت عذراء مباركة قبل وبعد ولادة يسوع المسيح، وبأن كل أولئك الذين يؤمنون بالله حقيقة سينجون، ولذلك فإنهم يقتربون كثيراً من إيماننا، حتى من الممكن تحويلهم إلى الدين المسيحي إذا وعظهم بعض الرّجال وأروهم تمييز دين يسوع المسيح وأخبروهم عن النّبوءات.

ويقولون أيضاً بأنهم يعرفون بحسب النّبوءات بأن دين محمّد سوف يؤول إلى الختام، كما آل في السّابق دين اليهود، وبأن دين المسيح سيبقى حتى يوم القيامة، وإذا سألهم أحد ما عن معتقداتهم فيجيبون بهذا الشّكل: «نحن نؤمن بأن الله خلق

السّماوات والأرض وكل شيء آخر هو صانعه، ودونه لا يمكن لأي شيء أن يوجد، كما أننا نؤمن بأن في يوم القيامة سيأخذ كل إنسان ما يستحقة بناء على ما كان قد فعله، كما أننا نؤمن بأن كل شيء قيل من الله على لسان الأنبياء هو حق».

كما أن الله قد شرّع في قرآنه *Alkaron*، بأن كل رجل يجب أن يكون له زوجتان أو ثلاث أو أربع، ولكنهم الآن يتزوجون تسعاً، ومن الجواري يستطيع المرء أن يأخذ بقدر ما يريد، وفيما إذا عصت واحدة من هذه الزّوجات زوجها، يمكن له أن يطرحها خارج البيت، وينفصل عنها ويتّخذ غيرها، ولكن يجب أن يعطيها من ممتلكاته.

وأيضاً عندما يتحدث النّاس هناك عن الآب والابن والرّوح القُدُس يقولون بأنهم ثلاثة أشخاص، وليسوا إلهاً واحداً، ذلك لأن قرآنهم *Alkaron* لا يتحدث عن الثّالوث المقدّس، ولكنهم يقولون بأن الله قد تحدّث عن بعض الأشياء وترك أشياءَ أخرى، وبأن الله له روحٌ يعرفونها جيداً، كما يقولون بأنه لم يكن حياً. وعندما يحدّثهم أحد عن تجسيد المسيح وكيف أنه بكلمة مع ملاك من الله أرسل حكمته للأرض ووضعها في مريم العذراء، وبأنه بكلمة من الله سيبعث الأموات للحياة في يوم القيامة، يقولون بأن ذلك حق وبأن كلمة الله لها قوة عظيمة. كما يقولون بأنه من لا يعرف شيئاً عن كملة الله فإنه لا يعرف شيئاً عن الله نفسه. كما يقولون أيضاً بأن يسوع المسيح هو كلمة الله، وكذلك يقول قرآنهم، حيث ذكر أن ملاكاً تكلم إلى مريم وقال: «يا مريم، إن الله سيمنحك فضلاً من فمه واسمه سيكون يسوع المسيح».

ويقولون أيضاً بأن إبراهيم كان خليلاً للرّب، وأن موسى كان يتكلم مع الرّب، وأن يسوع كان كلمة الرّب وروحه، وبأن محمّداً كان الرّسول الحقيقي من الله، كما يقولون بأن من هؤلاء الأربعة، كان يسوع كان الأكثر جدارة والأكثر فضلاً وكمالاً وعظمة. وبذلك يوجد لديهم الكثير من المعتقدات من إيماننا، بالرغم من أنه ليس لهم الدّين الكامل والاعتقاد الصّحيح مثل الذي لدى المسيحيين، ولهذا من السّهل أن يتحولوا إلى المسيحية وبخاصة أولئك الذين يعرفون الكتاب المقدّس والنّبوءات، حيث أنّ لديهم الكتاب المقدّس والنّبوءات والأناجيل مكتوبة بلغتهم، فلذلك فإنهم يعرفون

الكثير عن الصّحف المقدّسة، ولكن لا يفهمونها بالشكل صحيح لأنهم يتبعونها حرفياً، وكذلك يفعل اليهود فإنهم لا يفهمون الرّسائل بشكل روحاني كامل ولكن بشكل مادي، ولذلك تحتاج إلى إعادة شرح ليتم فهمها روحانياً. ولهذا قال القدّيس بولس:

Litera occidit; spiritus autem vivificat.

كما يقول المسلمون بأن اليهود ملعونين، لأنهم حرّفوا دين الله بعدما أُرسل لهم مع موسى، وأنّ المسيحيّين ملعونون أيضاً، كما يقولون، لأنهم لم يحفظوا الوصايا والأوامر التي علّمهم إياها إنجيل يسوع المسيح.

* * *

ولهذا يجب أن أخبركم ماذا قال لي السُّلطان[1] Soldan يوماً ما في مجلسه. إذا أمر يومها جميع الرّجال بأن يخلوا المجلس، الأمراء والأخرين، لأنه أراد أن يتكلم معي وينصحني، وهنا سألني كيف يحكم الرّجال المسيحيون بلادهم، فأجبته: «بشكل جيد، حمداً لله».

ثم قال لي: «لا، الحقّ أنّ هذا غير صحيح، لأنكم أنتم المسيحيون غير منتبهين كيف أنكم تعبدون الله بشكل خاطئ! يجب عليكم أن تكونوا قدوة جيدة للناس الفاسدين ليصبحوا صالحين، ولكنكم قدوة سيئة تجعل النّاس يفعلون الشّر. وذلك بسبب عاداتكم في أيام الاحتفالات، حين يذهب النّاس الكنائس لعبادة الله وبعدها يذهبون إلى الحانات، حيث يأكلون ويشربون بشره تماماً كالبهائم التي بلا عقل ولا يكفّون عندما يشبعون. وكذلك فالمسيحيون يقوون أنفسهم في كل الأمور التي

(1) هذا مقطع مهمّ للغاية، ولا أتوقع أن يجرؤ من يؤلف كتاب رحلات وهي مقيم في بلده دون أن يسافر (كما يتهمه بعض النقّاد) بأن يدّعي لقاء سلطان في القاهرة، ويذكر ما دار بينهما من حديث. وكنت رجّحت أعلاه أن يكون السّلطان المملوكي المذكور هو المظفّر حاجي ابن النّاصر محمّد بن قلاوون، الذي حكم بين 1346-1347 م / 747-748 هـ، وقال عنه: الذي كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد. والجديد هنا أنه يبيّن لنا أنه كان يجيد الفرنسيّة.

تجعلهم يقاتلون بعضهم بعضهم ويخدعون بعضهم، وفوق ذلك تجدهم فخورين بأنفسهم بأنهم لا يعرفون كيف يلبسون، فحيناً طويلاً وحيناً قصيراً، حيناً ضيقاً وحيناً واسعاً، حيناً يضعون سيوفاً وأخرى يضعون خناجر، وجميع أشكال الملابس الأخرى.

«ينبغي لهم أن يكونوا بسيطين وواقعيين ومليئين بالمظاهر الحسنة، كما كان يسوع والذي به يؤمنون، ولكنهم يفعلون العكس تماماً، ودائماً يميلون لاتّباع السّوء وأتباع السّوء. كما أنهم جشعون جداً، فمقابل قليل من المال يبيعون أخواتهم وبناتهم وزوجاتهم ويضعونهن في أماكن الفسق والدّعارة، والواحد منهم يبادل زوجته مع الآخر، ولا أحد منهم يحفظ عهداً لأحد، ولكنهم يخالفون الدّين الذي أتى به يسوع المسيح الذي أتى لخلاصهم. وهكذا وبسبب ذنوبهم هذه خسروا أراضيهم التي نحكمها نحن الآن، بسبب خطاياهم أخذ الله منهم هذه الأراضي وأعطانا إياها، ليس فقط بسبب قوتنا، ولكن أيضاً بسبب ذنوبهم، حيث أننا نعرف جيداً ونؤمن بأنك عندما تعبد الله بإخلاص فإنّ الله يساعدك، وعندما يكون معك فلا أحد يستطيع أن يكون ضدك، ومعروف في نبوءاتنا بأنهم سيأخذون هذه الأراضي من أيدينا ثانيةً عندما يعبدون الله بإخلاص أكبر، ولكن طوال بقائهم فاسدين ومنغمسين في ضلالهم (كما هم عليه الآن) فلا خوف لدينا منهم بأي شكل من الأشكال، لأن ربّهم لن يساعدهم بأيّ طريقة».

وبعدها سألته، كيف له أن يعرف عن أوضاع المسيحيين، فاجابني بأنه يعرف كل هذا الأشياء عن أوضاع الملوك والأمراء المسيحيين، وأيضاً أوضاع العامّة، من موفديه الذين يبعثهم إلى جميع البلدان والأراضي، بصفة تجّار أحجار كريمة، أو ملابس فاخرة ذهبية أو أشياء أخرى، وذلك ليعرف أوضاع كل بلد ومن بينها بلاد المسيحيين. وبعدها دعى كل الأمراء الذين أخرجهم من مجلسه، وعرض علي أربعة منهم كانوا أسياداً في البلاد، حيث أخبروني الكثير عن بلدي وعن كثير من بلاد المسيحيين الأخرى التي كانوا فيها، كما أنهم يتكلمون الفرنسية بطلاقة وكذلك السُلطان، الشّيء الذي أدهشني فعلاً.

كمـا أنـه افتراء وتشـويه كبير لعقيدتنا وديننـا عندما يحاول النّـاس الذين بلا دين أن يحاولـوا إصلاحنا ويوبّخونا علـى خطايانا[1]، فيجب عليهـم أن يتحوّلوا ويعودوا إلى دين يسـوع المسيح وأن يكونـوا القدوة الحسـنة بقبولنـا ورضانا بالحيـاة التي منحها ياها الرّب، وهكذا فإنّ الرّجوع إلى دين يسـوع من الضّلال وحياة السّـوء التي نعيشـها والبعيـدة عن المعتقدات المقدّسـة، سـيحمينا مـن النّاس الحمقـى والكريهين. وحقاً قالوا بأن المسلمين صالحون ومخلصون، لأنهم قد حفظوا كل أوامر الكتاب المقدّس القرآن، الذي بعثه الله إليهم عبر رسوله محمّد، والذي كما يقولون كان القدّيس جبريل الملاك غالباً ما ينبئه بإرادة الله.

* * *

كمـا ينبغـي أن تعلمـوا بأن محمّداً قد ولـد في جزيرة العـرب، وكان في بادئ الأمر فتىً فقيـراً يرعى الجمال ويذهب مع التجار لبيـع البضائع، وفي مرة من المرّات ذهب مع التجار إلى مصر[2]، وهناك كان يوجد مسيحيون في بعض المناطق من هذه البلاد. وفـي جزيرة العـرب كان يذهب إلى معبد حيث كان يسـكن كاهـن، وعندما دخل إلى المعبـد وكان صغيـراً جداً وله باب صغير، تحوّل مدخل المعبد عند دخوله إلى مدخل عريض وعالٍ وكبير، وبدا وكأنه قصر كبير ومسكن عظيم، وهذه كانت المعجزة الأولى لمحمّد في صغره كما يروي المسلمون[3].

وبعدهـا بـدأ يغدو كبيراً وحكيماً وغنياً، ثم أصبح فلكياً مهماً وبعدها صار حاكماً وأميراً على أرض Cozrodane التي أدارها بحكمة بالغة[4]، فمثلاً عندما مات الأمير تزوج سيدة

---

(1) يقصد بهذا الكلام كما هو واضح الفاسدين من رؤساء الدّين في أوروبا، وليس أبناء المشرق، لأنه يبادر هنا أدناه لامتداح المسلمين والإشادة بإخلاصهم لمبادئ دينهم وصلاحهم الدّيني والخلقي، وهذا ما يدعو القارئ إلى احترامه ككاتب ورحّالة حرّ، وصف ما رآه بعين الناقد المنصف لا الحاقد الموتور.

(2) لم يؤثر عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أنه زار مصر، بل كان ينتاب الشام في رحلات التجارة.

(3) غريب، لم نسمع أبداً بمثل هذه الرّواية.

(4) جميع هذه المعلومات خياليّة وليس فيها أيّ شيء صحيح، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام

تدعى خديجة Gadrige، وكان محمّد يصاب في كثير من الأحيان بمرض شديد، وكان النّاس يسمّون هذا المرض بالتّقوط الشّرير، ومن أجل هذا كانت هذه السّيدة حزينة جداً بأنها تزوجت منه، ولكن محمّداً أسرّ لها بأنه في كل الأوقات التي يسقط فيها يأتي اليه جبريل الملاك ليتحدث معه، ومن شدّة ضياء هذا الملاك وسنا نوره فإنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه ويسقط أرضاً، ولهذا يقول المسلمون بأن جبريل أتى وتكلم معه.

محمّدٌ[1] هذا حكم جزيرة العرب في السّنة 610 بعد ولادة سيّدنا المسيح، وهو من سلالة إسماعيل الذي كان ابن إبراهيم، والذي حملت به هاجر زوجة إبراهيم الأولى. ولهذا يوجد بعض المسلمين الذين يسمّون بالإسماعيلين وآخرين يسمّون بالهاجريين نسبة إلى هاجر، والآخرون سمّوا بالسّاريين نسبة إلى سارة، وبعضهم سمّوا بالمؤابيين Moabites وآخرون بالعمونيّين Ammonites نسبة إلى ابني لوط مؤاب Moab وعمّون Ammon اللذين أنجبهما من بنتيه وأصبحا بعد ذلك أميرين عظيمين.

كما أن محمّداً أحبّ حباً عظيماً كاهناً كان يسكن في الصّحارى على بعد ميل من جبل سيناء، بنفس الطّريق التي يذهب منها النّاس من جزيرة العرب إلى بلاد الكلدان Chaldea والهند Ind، التي تبعد رحلة يوم واحد من البحر، حيث كان تجار البندقية يأتون غالباً للاتجار ببضائعهم. وكثيراً ما كان محمّد يذهب إلى هذا النّاسك، وكان أتباعه يحنقون كثيراً منه، لأنه كان يحبّ الاستماع إلى هذا الكاهن وهو يرشد ويعظ ويبقي أتباعه مستيقظين طوال الليل. ولذلك فكر أتباعه بأن يقتلوا هذا الكاهن، وهكذا حدث في ليلة أن محمّداً كان يشرب شراباً من النّوع الجيد[2]، وبعدها نام فعندها

لم يكن فلكياً ولا حاكماً، ولم نفهم ما هي أرض Cozrodane هذه التي حكمها. لكننا طبعاً نبقي على هذه العبارات رغم أخطائها لنحافظ على نموذج من تصوّر الغرب لأحوال مجتمعاتنا الإسلاميّة آنذاك.

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) أي من منقوع الزّبيب أو التّمر. وأمّا هذه القصّة فهي مغلوطة ومفبركة مئة في المئة، وليس في السّيرة النّبويّة العطرة مثل هذه الترّهات. ولولا الرّغبة في الحفاظ على فحوى الكتاب كنت حذفتها.

أخذ الرّجال سيف محمّد من غمده في أثناء نومه وبه ذبحوا الكاهن، وأعادوا السّيف المُدمى إلى غمده.

وفي اليوم التالي عندما وجد الكاهن ميتاً أصبح حزيناً جداً وغاضباً، وأراد أن يقتل كل أولئك الرّجال، ولكنهم جميعاً اتفقوا على أن يقولوا بأنه هو الذي قتل الكاهن في الليل، وأروه كيف أن سيفه مضمّخ بدم الكاهن، فظن أنهم يقولون الحقيقة، فبعدها لعن الشّراب وكل أولئك الذين يشربونه. ولهذا السّبب فمن الورع والتقى عند المسلمين عدم شرب ما يُسكر، ولكن بعضهم يشربه سرّاً، لأن شربه علانية يقتضي الحدّ على شاربه وتأنيبه. ولكنهم يشربون شراباً جيد الطّعم وحلو المذاق ومغذي، يصنع من الكراميل gallamelle ومنه يستخرج النّاس السّكر وله نكهة لذيذة، كما أنه مفيد للصدر.

ويحدث أحياناً بأن بعض المسيحيين يصبحوا مسلمين، إما بسبب الفقر أو بسبب بساطتهم أو بسبب جهلهم. وهكذا عندما يأتون إلى archflamen أو الإمام[1] flamen وهم كالقساوسة والرّهبان عندنا، يطلبون منهم أن يقولوا:
La ellec olla Sila, Machomete rores alla.

والذي معناه: «لا اله إلا الله، محمّد رسول الله».

الآن وقد أخبرتكم جزءاً من دينهم وعاداتهم، ينبغي لي أن أخبركم بأحرفهم مع أسمائها وبأشكالها كيف تكون، والتي هي:
Almoy, Bethath, Cathi, Ephoti, Delphoi, Fothi, Garothi, Hechum, Iotty, Kaythi, Lothum, Malach, Nabaloth, Orthi, Chesiri, 30ch, Ruth, Holath, Routhi, Salathi, Thatimus, Yrthom, A3a30th, Arrocchi, 30tipyn, Ichetus.

فهذه هي الألف باء تاء لديهم. أما الآن فيجب أن تعرفوا أشكالها... ولديهم أربعة أحرف زيادة عن الآخرين وذلك لاختلاف لغتهم وكلامهم، وذلك لأنهم يتكلّمون من حلوقهم، ونحن في إنكلترا لدينا حرفان زيادة عن أبجديّتهم والتي هي [حرف لا يمكن كتابته] وكذلك [حرف لا يمكن كتابته] اللذان يسمّيان شوكة و30gh.

(1) هذا ما أتخيّل أنّ المؤلف عناه بعبارة flamen.

الفصل السّادس عشر

عن أرض ألبانيا وليبيا
وعن الطموح لرؤية طائر الباشق
وعن سفينة نوح

والآن، بما أنني قد أخبرتكم سابقاً عن الأرض المقدّسة والبلاد التي حولها، وعن الطّرق العديدة المؤدية إلى جبل سيناء وإلى بابل الكبرى والصّغرى، وعن أماكن أخرى كنت قد ذكرتُها مسبقاً، فالآن حان الوقت لأخبركم عن الممرّات والجزر والحيوانات المختلفة، وعن الشّعوب المختلفة التي خلف هذه الطّرق.

فما وراء هذه البلدان، توجد بلدان أخرى متنوعة، حيث من الممكن أن توجد ممالك كبيرة، تكون مفصولة عن بعضها بالطوفان الذي جاء من الجنّة الأرضية، وذلك لأن بلاد ما بين النّهرين Mesopotamia ومملكة الكلدان وجزيرة العرب تقع بين نهري دجلة والفرات، ومملكة ميديا Media وبلاد فارس تكون بين نهري النّيل ودجلة ومملكة سوريا التي ذكرتها سابقاً، وفلسطين وفينيقيا تقع بين الفرات والبحر المتوسط، البحر الذي يمتدّ طولاً من المغرب حتى نهر إسپانيا وحتى البحر الكبير، وبذلك يمتد 3040 ميلاً لومباردياً ما وراء القسطنطينية.

وباتجاه البحر المحيط في الهند Ind توجد مملكة سكيثيا Scythia وهي مغلقة من جميع الأطراف بالتلال، وبعد Scythia ومن بحر قزوين إلى نهر Thainy توجد أرض Amazonia، التي هي أرض مؤنثة feminye حيث لا يوجد فيها أي رجل وكل سكانها

من النّساء. وبعدها توجد ألبانيا، وهي مملكة عظيمة وقد سمّيت ألبانيا لأن النّاس هناك أبريـاء أكثر مـن أماكن أخرى قربها، وفي هذه البلد توجـد كلاب قويّة وضخمة تهاجم الأسـود وتقضي عليها. وبعد هذا توجد Hircania، و Bactria، و Hiberia وعدد من الممالك الأخرى.

وبيـن البحر الأحمر والبحر المحيـط، باتجاه الجنوب توجد مملكـة إثيوبيا، وليبيا العليـا، وأرض ليبيا (التي تسمّى بليبيا الدنيا) تبدأ من بحر إسپانيا حيث توجد أعمدة هرقـل، وتمتد حتى مصـر وإثيوپيا. وفي أرض ليبيا البحر أعلـى من الأرض، وعلى ما يبـدو بأنه كان يغطي الأرض وحتى الآن ما تزال آثار البحر موجودة على اليابسـة. كما يشـاهد النّـاس في هذه البلد جبـلاً لا يأتيه أحد. وفـي أرض ليبيا هذه وباتجاه الشّـرق يكون ظل الأشـياء على يمينها، وهنا في بلادنا يكون الظل على يسارها. وفي بحر ليبيا لا يوجد أسـماك؛ حيث أنها على الأرجح لا تعيش هناك بسـبب شـدة حرارة الشّمس، لأن المـاء هناك يغلي من شـدة الحرارة. كما يوجد الكثير مـن الأراضي والبلدان التي يطول عنها الحديث. ولكني سأتحدّث عن بعضها لاحقاً.

ومـن يريد الذهاب نحو Tartary باتجاه بلاد فـارس أو الكلدان Chaldea أو الهند Ind ينبغـي لـه أن يدخـل في بحـر جنوة أو ڤينيسـيا أو أي مرفـأ آخر من التـي كنت قد أخبرتكم عنهم سابقاً. وبعدها يعبر النّاس البحر ويصلون إلى تريبيزوند[1] Trebizond التـي هي مدينة جميلة، وكان اعتاد النّـاس أن يتخذوها مرفأ لپونتوس Pontus. وهناك يوجد مرفأ لبلاد فارس وميديا وللأراضي التي وراءها. وفي هذه المدينة يرقد القدّيس أثناسـيوس Athanasius الذي كان أسـقفاً في الإسكندرية، وهو الذي وضع الأنشودة الدينية *Quicunque vult*.

كان أثناسـيوس هـذا طبيباً روحانيـاً عظيماً، ولهذا كان يتحـدث بعمق عن الألوهية والرّبوبيـة، وقـد كان قـد اتّهِم من قبل بابا روما بأنه منشـقّ عن العقيدة، ولذلك أرسـل وراءه البابا ووضعه في السّـجن، وفي الفترة التي قضاها في السّـجن ألف أنشودة دينية

---

(1) التسمية يونانيّة، وهي اليوم مدينة طرابزون في تركية.

وأرسلها للبابا وقال له: بأنه إذا كان منشقاً فإذن المكتوب في هذه الأنشودة هو ضلال، وهي التي تعبّر عن عقيدته. وعندما رآها البابا ودرسها جيداً وجدها بأنها رائعة وجميلة جداً، وتطابق تماماً معتقداتنا وإيماننا، وهكذا أخرجه من السّجن وأمر بأن تُغنى هذه الأنشودة يومياً في الصّباح، وهكذا فقد اعتُبر أثناسيوس Athanasius رجلاً صالحاً. ولكنه لم يعد إلى المكان الذي كان يتحدّث فيه سابقاً، وذلك لأن النّاس هناك ظلوا يعتبرونه منشقاً عن العقيدة.

كانت تريبيزوند Trobisond تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينيّة، ولكن اغتصبها منه رجل قوي كان قد أُرسل ليحمي هذه الأرض من الأتراك، فاحتفظ بها لنفسه وسمى نفسه إمبراطور تريبيزوند Trobisond.

ومن هناك يذهب النّاس عبر أرمينيا الصّغرى، ويوجد في هذا البلد قلعة قديمة تقبع فوق الصّخر، وتسمّى قلعة طائر الباشق والتي هي خلف مدينة Layas وبجانب مدينة Pharipee. والتي هي تحت سيادة Cruk وهو والٍ غني ورجل مسيحي صالح، وهناك وجد الرّجال طائر الباشق الرّائع الجمال واقفاً على عصا جميلة ومتقنة الصّنع، تعتني به امرأة جميلة من الجنّيات. وكما قال بعض النّاس بأن من يشاهد هذا الباشق وحيداً لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ وبعضهم قال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بلا نوم، فإن هذه الجنّية ستمنحه أول أمنية يتمناها على أن تكون الأمنية من الأشياء الدنيوية، وقد أُثبت هذا عدة مرات.

وفي يوم من الأيام حدث أن ملك أرمينيا، الذي كان فارساً باسلاً وجديراً بالاعتبار، وأميراً نبيلاً راقب هذا الباشق بعض الوقت، وفي نهاية السّبعة أيام والسّبع ليالٍ جاءت إليه المرأة وطلبت منه أن يتمنى أمنية لتحققها له، لأنه فعلاً يستحقها، فأجابها بأنه سيد عظيم ويعيش بهدوء وسلام، وأنّ له الكثير من الأموال، ولذلك فإنه لا يتمنى أكثر من ذلك، وأمنيته الوحيدة هي أن يضاجعها ويكون جسدها له كما يشاء. فأجابته بأنه لا يعرف ما يطلب وقالت بأنه أحمق بأن يطلب شيئاً ليس من الممكن تحقيقه، لأنه لا يمكن أن يتمنى منها إلاّ الأمنيات الدنيوية، وذلك لأنها لم تكن مخلوقة بشرية وإنما من

الجنّ، فقال لها الملك بأنه لا يريد أي شيء آخر، فأجابته: «الحقيقة أنني لن أسحبك من قلبك الفاسد هذا، ولكنّي سأحقق لك أمنية دون أن تتمناها، ولكل النّاس الذين تحت أمرتك. أنت أيها الملك من الآن فصاعداً لن تعيش بسلام أبداً ودائماً ستكون في نكد وتكون تحت إمرة أعدائك، وتكون فقيراً وبحاجة لكل الأشياء» ومنذ ذلك الحين، لم ينعم ملك أرمينيا ولا شعبه بأيّ سلام، وكانوا دائماً فقراء لكل الحاجات الأساسية، وظلّوا دائماً يدفعون الجزية للمسلمين.

أيضاً، ثمّة ابن رجل فقير راقب هذا الطّائر وتمنّى بأن يحقق شيئاً جيداً في حياته، وأن يُوفّق لكي يصبح تاجراً. وقد حققت المرأة له أمنيته وأصبح من أغنى وأشهر التجار على وجه الأرض، وأصبح من الثّراء لدرجة أنه لا يعرف كم من المال يملك. وهكذا كان حكيماً بطلبه أكثر من الملك.

وأيضاً، هناك فارس من المعبد راقب هذا الطّائر، وتمنّى بأن يكون لديه كيس من الذهب لا يفرغ أبداً، فحقّقت المرأة له طلبه ولكنها قالت له إنه بهذا الطّلب قد أفسد قانونهم، وذلك سيكون بتعلقه الزّائد واعتماده على هذا الكيس، وفخره الكبير به، وكذلك حدث فعلاً، فبسبب هذا الكيس كان يبقى مستيقظاً خوفاً من أن يضيع منه إذا نام ولأنه لا يريد أي أحد أن يراه.

هذه ليست الطّريق الصّحيحة للذهاب إلى الأماكن التي ذكرتها لكم، ولكن فقط لرؤية الأعجوبة التي ذكرتها. وأما من أولئك الذين يذهبون من الطّريق الصّحيحة فيذهبون من تريبيزوند Trebisond نحو أرمينيا الكبرى وصولاً إلى مدينة تسمّى أرضروم Erzeroum التي كانت مدينة جميلة ووفيرة الخير، ولكن الأتراك أضاعوا كل ما فيها. فما حولها لا يوجد أي نوع من العنب أو الفواكه، وإذا وُجد فيكون بكميات قليلة جداً أو معدومة. وفي هذا البلد مستوى الأرض أعلى من أي مكان آخر، ممّا يتسبب ببرودة في الطّقس، كما يوجد الكثير من المياه والينابيع العذبة التي تخرج من تحت الأرض من نهر في الجنة يسمّى الفُرات، ويستمرّ جريانه بجانب المدينة رحلة يوم كامل، ثم يتجه هذا النّهر نحو الهند Ind من تحت الأرض ويخرج ثانية فوق

الأرض عند Altazar. وهكذا يعبر النّاس أرمينيا هذه ويدخلون بحر بلاد فارس.

ويذهب الرّجال إلى هضبة تسمّى Sabissocolle وبجانبها يوجد هضبة أخرى تدعى أرارات Ararat ولكن اليهود يسمّونها Taneez، وهناك حيث رست سفينة نوح ولا تزال حتى الآن فوق هذه الهضبة، ومن الممكن للناس أن يروها إذا كان الطّقس صافياً. يبلغ ارتفاع هذا الجبل سبعة أميال، وبعض النّاس يقولون إنهم قد رأوا السّفينة ولمسوها، ووضعوا أصابعهم في الأماكن التي خرج منها الشّيطان عندما قال نوح: *Benedicite*، ولكن من الممكن أنهم يقولون ذلك وفقاً لأمانيهم فقط، وذلك لأنه لم يصعد أي إنسان إلى أعلى الجبل بسبب كميات الثّلج الكثيرة عليه والموجودة دائماً صيفاً وشتاء، ولذلك فمن غير الممكن أن يكون أحدٌ قد تسلق هذا الجبل، ما عدا راهباً وبرحمة من الرّب ذهب وجلب قطعة خشب من هناك، ما تزال موضوعة في كنيسة عند سفح الجبل.

وعلى جانب الجبل توجد مدينة Dain التي وجدها نوح، وقريباً توجد المدينة الوحيدة التي كان فيها ألف كنيسة.

وقد كان لهذا الرّاهب رغبة كبيرة بأن يذهب إلى أعلى الجبل، وفي يوم من الأيام تسلقه وعندما وصل إلى ثلثي الجبل أصبح منهكاً جداً ولم يستطع الذهاب أبعد، فاستراح قليلاً وغطّ في النّوم، وعندما استيقظ وجد نفسه مستلقياً عند سفح الجبل وعندها صلى بخشوع للرب وقال بأنه لا يستطيع أن يتحمل مشقة الصّعود مرة أخرى، فجاء إليه ملاكٌ وقال له بأنه يجب عليه الصّعود، وكذلك فعلاً فعل. ولكن في الواقع هذه القصة ليست حقيقية، ولا يجب على أي أحد أن يصدق ولا كلمه فيها.

ومن هذا الجبل يذهب النّاس إلى مدينة تبريز Thauriso التي جرت العادة على تسميتها Taxis، وهي مدينة جميلة وعظيمة، وواحدة من أفضل المدن في العالم للتجارة، يأتي إليها التجّار من بعيد ليشتروا بضائع بالوزن، وهي توجد في أراضي إمبراطور الفرس، ويقول النّاس إن الإمبراطور هناك يأخذ من التجار الذين في تلك المدينة ضرائب أكثر بكثير من التي يأخذها من الملوك المسيحيين الأغنياء وأكثر من

كل من يسكن في مملكته، فالضرائب هناك تصل لأرقام لا يمكن تخمينها. وبجانب هذه المدينة توجد هضبة من الملح، ويأخذ أيّ إنسان حاجته من هذا الملح كما يشاء. ويسكن هناك العديد من المسيحيين تحت جزية المسلمين. وبعد هذه المدينة يعبر النّاس الكثير من المدن والقلاع للذهاب إلى الهند Ind حتى الوصول إلى مدينة Sadonia التي هي على مسافة رحلة عشرة أيام من Thauriso وهي مدينة جليلة وعظيمة. وهناك يسكن إمبراطور الفُرس في الصّيف، لأن المكان هناك جميل البرودة وتعبر الكثير من السّفن في الأنهار هناك.

وبعدها يذهب النّاس إلى الهند Ind بعدة رحلات، ويمرّون بعدة بلدان حتى يصلوا إلى مدينة تسمّى Cassak، وهي مدينة جليلة وفيها الكثير من العنب والذرة ومن جميع الأصناف الأخرى. وفي هذه المدينة التقى الملوك الثّلاثة معاً عندما ذهبوا للبحث عن السّيد المسيح في بيت لحم، ليبجّلوه وليقدّموا له الذهب والبخور والمِرّ. ومن هذه المدينة حتى بيت لحم تستغرق الرّحلة خمسة وثلاثين يوماً. ومن هذه المدينة يذهب النّاس إلى مدينة أخرى تدعى Gethe وهي على بعد رحلة يوم واحد من البحر الذي يسمّى بحر Gravelly. وهي أفضل مدينة لإمبراطور الفرس في كل أرضه، ويسمّون اللحم هناك Dabago والنّبيذ Vapa. ويقول الوثنيّون Paynims بأنه لا يمكن لأيّ رجل مسيحي أن يسكن أو يتحمّل الحياة في هذه المدينة، فهو يموت في فترة قصيرة دون أن يعرف أي أحد سبباً لذلك.

وبعدها يذهب النّاس عبر عدة مدن وبلدات وبلدان كبيرة يطول الحديث عنها كثيراً، ثم يصلون إلى مدينة Cornaa التي كانت مدينة عظيمة جداً، حتى أن الأسوار حولها كانت بطول خمسة وعشرين ميلاً، وما تزال الأسوار موجودة حتى الآن، ولكنها ليست مأهولة. ومن Cornaa يذهب النّاس عبر عدة أراضٍ وكثير من المدن والبلدات حتى يصلوا إلى مدينة أيّوب Job. وهناك تنتهي إمبراطوريّة بلاد فارس، وإذا كنتم ترغبون بمعرفة الأحرف الفارسية وأسمائها، فإنها تماماً كما الأحرف الأخيرة التي ذكرتها قبلاً ولكن الكلمات تختلف عن تلك التي ذكرت سابقاً.

الفصل السّابع عشر

عن أرض أيّوب؛ وعن عمره
وعن نظام الكلدانيين
وعن الأرض التي تسكنها النّساء دون رجال
وعن معرفة وخصائص جميع أنواع الماس

بعد مغادرتهم كورناء Cornaa، يدخل الرّجال أرض أيّوب Job وهي بلاد جميلة جداً ووفيرة بكل المنتجات. ويطلق على هذه البلاد أرض سوسيانا Susiana. وفيها مدينة تيمان Theman.

كان أيّوب وثنياً، وكان ابنه آرام Aram of Gosre، وملك هذه الأرض بصفة حاكماً عليها. وكان غنياً جداً لدرجة أنه كان لا يعرف مئات الأجزاء من ممتلكاته. وبالرغم من كونه وثنياً، فإنه كان يعبد الرّب بشكل جيد حسب ديانته. وكان الرّب يقبل عبادته بقبول حسن. وعندما افتقر كان له من العمر ثمانية وسبعون عاماً. وبعد ذلك عندما اختبر الله صبره الذي كان شديداً، أعطاه ثانية الغنى والمكانة أكثر من ذي قبل. وأصبح ملكاً على أدوم Idumea بعد الملك عيسو Esau، وعندما أصبح ملكاً سمي يوباب Jobab. وعاش في تلك المملكة مئة وسبعين عاماً. ومات وله من العمر 248 سنة.

في أرض أيّوب تلك لم يكن هناك أي نقص لمتطلبات حياة الإنسان. وعلى التلال، كان بإمكان النّاس أن يجمعوا الكثير من المَنّ أكثر من أي بلد آخر. وكان المنّ يسمّى خبز الملائكة. وهو مادة بيضاء طعمها حلو ولذيذ جداً، وأحلى من العسل أو السّكر.

وهو ينشأ من ندى السّماء المتساقط على الأعشاب في تلك المنطقة. ويتكاثف لتصبح أبيـض وحلو الطّعم. وكانـوا يضعونه في أدوية الأغنياء كمليّـن للمعدة وللتخلّص من الدّم الفاسد. وبما أنه ينقّي الدّم فهو يبعد الكآبة. وتمتد أرض أيّوب حتى مملكة كلدان.

كانـت بلاد الكلدان رائعة. ولغة تلـك البلاد كانت أعذب من اللغات الأخرى على باقي السّـاحل. ويعبر الرّجال ليصلوا ما وراء برج بابل العظيم، الذي سبق وأخبرتكم عنـه، هناك حيث تغيّرت اللغات جميعها أولاً. وهو يقع على مسير أربعة أيام من بلاد الكلدان. كان الرّجال في تلك المملكة ذوي مظهر حسن ويلبسون ثياب نبلاء مصنوعة من ذهب، مرصعة باللآلئ الكبيرة والحجارة الثّمينة بفخامة تامة. والنّسـاء يرتدين ثياباً كريهة ومريعة. ويسرن حفاة الأقدام وبثياب رديئة كبيرة وعريضة، وقصيرة طولها حتى الرّكبـة، وأكمامها طويلة جداً حتـى القدمين مثل عباءة النّسّـاك. والأكمام معلّقة حول الأكتاف. وقد كنّ نسـاءً ذوات بشـرة داكنة كريهات وبشـعات، وبالفعل كان مظهرهن كريهاً ومريعاً مثلهن تماماً.

في مملكة كلدة، وفي مدينة تسمّى أور Ur، عاش تارح Terah، والد إبراهيم. وهناك وُلِـد إبراهيم. وذلك حين كان نينـوس Ninus ملك البابليين في جزيرة العرب ومصر. ونينوس هذا هو الذي أنشأ مدينة نينوى Nineveh، التي كان قد شرع بإنشائها نوح من قبل. ولأن نينوس هو الذي بناها فقد سمّاها نينوى نسـبة إلى اسمه. وفيها استقر طوبيا الرّسـول، الذي تحدّثت عنه الأسفار المقدّسة. وغادر إبراهيم من مدينة أور هذه، بأمر مـن الله، بعـد وفاة والده، واصطحب معه زوجته سـارة وابن أخيه لـوط. لأنه لم يكن عنده أولاد. وذهبوا ليسـتقرّوا في بلاد كنعان في مكان يدعى شـكيم Shechem. ونجا لـوط عندمـا احترقت مدينتـا سـدوم Sodom وعمـورة Gomorrah والمدن الأخرى وهَوَت في الجحيم، حيث يوجد البحر الميت الآن، كما أخبرتكم من قبل. وهناك في بلاد الكلدان كان لديهم لغات خاصة بهم وحروفهم الخاصة أيضاً، كما سترون لاحقاً.

وبالقـرب مـن بلاد كلـدة كانت تقـع بلاد الأمـازون، وهي بـلاد النّسـاء. وفي هذه المملكـة توجد نسـاء فقط دون رجال؛ وليس، كما يدّعـي بعض النّاس، بأن الرّجال لا

يريدون العيش هناك، ولكن لأن النّساء لا يرغبن بوجود الرّجال بينهن ليهيمنوا عليهن.

في زمن ما كان هناك ملك في تلك البلاد. والرّجال يتزوجون كما في البلاد الأخرى. وحدث أن قامت حرب بينهم وبين السّكيثيين Scythia، بقيادة ملكهم كولوپيوس Colopeus، الذي قتل في المعركة، كما حدث لكل نبلاء مملكته. وعندما وجدت الملكة نفسها مع كل نبيلات مملكتها وقد غدون أرامل، وأنّ الدّم الملكي قد أُهدر، جنّدن أنفسهن، وتصرفن كمخلوقات مجنونة، وقمن بقتل ما تبقى من الرّجال في المملكة، لتصبح كل النّساء أرامل كحالهن أنفسهن وكما الملكة أيضاً. ومن ذلك الزّمن وبعده لم يرغبن في أن يقطن بينهن رجل أكثر من سبعة أيام وسبع ليال؛ ولم يُسمح لأي طفل ذكر أن يعيش بينهن بعد فطامه، فكان يُرسل إلى والده.

وعندما يرغبن بصحبة رجل، كنّ يرافقنه إلى الأراضي المجاورة لمملكتهن حيث يعاشرنه ويقمن معه لثمانية أو عشرة أيام وبعدها يعدن إلى بلادهن. وإن أنجبن مولوداً ذكراً يحتفظن به حتى عمر معيّن، ثم يرسلنه إلى والده بعد أن يكون قد أصبح قادراً على أن يعتمد على نفسه ويأكل بمفرده، أو أنّهن يقمن بقتله. وإذا كانت المولودة أنثى كن يقمن بإزالة إحدى حلمتيها بكيّها بحديد محمّى، فإن كانت من سلالة عريقة فكن يكوين حلمتها اليسرى لتقوم فيما بعد بحمل الدرع، أما إذا كانت من العامة فيكوين الحلمة اليمنى لترمي بالسّهام عن القوس، حيث كنّ ماهرات برمي السّهام.

كانت في تلك البلاد ملكة تحكم كل المنطقة، وكلهن خاضعات لها. وكانت دائماً تُنصب ملكة بعد انتخابات لأنها مهمّة جداً للجيش، فقد كن مقاتلات ماهرات وفصيحات وحكيمات ونبيلات وذوات شأن. وكن غالباً ما يذهبن مع الجيوش لمساعدة الملوك الآخرين في حروبهم، من أجل الذهب والفضة كما يفعل باقي الجنود؛ وكن يحافظن على كامل قوتهن. وبلاد الأمازون هذه هي عبارة عن جزيرة، يحيط بها البحر من جانبين، ولها منفذان. وخلف تلك المياه كان يقطن الرّجال الذين كانوا عشاقاً لهن، حيث كن يذهبن لتسليتهن عندما يرغبن في ذلك.

بالقرب من بلاد الأمازون تقع أرض تارميغيت Tarmegytc وهي أرض واسعة

مليئة بالمباهج. وبسبب جودة تلك البلاد أنشأ الملك الإسكندر فيها أول مدينة تسمّى الإسكندرية، وبعد ذلك أنشأ اثنتي عشر مدينة أخرى تحمل الاسم ذاته؛ ولكنها تدعى الآن سيلسايت Celsite.

وعلى السّاحل الآخر لبلاد الكدانيين، باتجاه الجنوب، تقع إثيوبيا، وهي بلاد كبيرة تمتد حتى نهاية مصر. وإثيوبيا مقسمة إلى قسمين أساسيين هما الجزء الشّرقي والجزء الجنوبي؛ وهذا الجزء الجنوبي يسمّى موريتانيا؛ والقوم في هذه البلاد بشرتهم داكنة جداً حتى أنهم أشد سواداً منهم في الجزء الآخر، ويسمّون المغاربة. وفي هذه المنطقة يوجد بئر، وهذا البئر يكون في النّهار بارداً جداً بحيث لا يستطيع أحد أن يشرب منه، وفي الليل حاراً جداً لدرجة لا يستطيع معها أحد أن يضع يده فيه. وخلف هذا الجزء، باتجاه الجنوب، وبمحاذاة البحر المحيط، تقع أرض واسعة وبلاد كبيرة؛ لكن لا أحد يقطن تلك البلاد بسبب حرارة الشّمس الحارقة التي تجعل البلاد حارّة جداً.

في إثيوبيا كل الأنهار وكل موارد المياه تعتبر مشكلة، وهي مالحة نوعاً بسبب شدة الحرّ هناك. والنّاس في تلك البلاد يشربون قليلاً وشهيتهم قليلة للطعام. وهم يعانون من إسهال بشكل دائم، ولا يعيشون طويلاً. ويوجد في إثيوبيا أقوام مختلفة كثيرة؛ وتدعى إثيوبيا كوسيس Cusis. ومن الممكن أن يكون للقوم في هذه البلد قدم واحدة ويعتقدون أنها معجزة. وتكون القدم كبيرة جداً حتى أن ظلها في الشّمس عندما يستلقون للراحة ممكن أن يعادل كامل الجسم. ولون الأطفال في إثيوبيا أصفر عندما يكونون صغاراً، وبعد أن يكبروا قليلاً يتحوّل الإصفرار إلى سواد. وتقع مدينة سابا Saba في إثيوبيا، والأرض التي كان ملكاً عليها أحد الملوك الثّلاثة الذين قدّموا الهدايا للمسيح في بيت لحم.

وينطلق الرّجال من إثيوبيا باتجاه الهند ويعبرون بلاداً كثيرة مختلفة. وكانوا يطلقون على بلاد الهند العليا اسم «أملاك» Emlak. وتقسم الهند أساساً إلى ثلاثة أقسام: فكان هناك الهند الكبرى the more وهو القسم الحار جداً من البلاد، والهند الصّغرى the less وهي البلاد المعتدلة، والممتدة حتى أراضي ميديا؛ والقسم الثّالث الواقع باتجاه

الشمال Septentrion وهو البارد تماماً، ولذلك وبسبب البرد القارس والصّقيع الدائم أصبحت المياه جليدية. وعلى قمم هذه الصّخور الجليدية يتشكل ماسٌ جيد ملوّن. فالجليد الأصفر يعطي لوناً بلون الزّيت. وهذا الماس صلب جداً ولا يمكن لأحد صقله. ويسمّى الماس في تلك البلاد، وهَميس *Hamese* في بلاد أخرى. والماس الذي وُجد في جزيرة العرب لم يكن ذا جودة عالية، وكان لونه بنياً أكثر وأقل صلابة. كما وُجد الماس في جزيرة قبرص، وكانت صلابته أدنى حتى من ذاك، ولذلك استطاعوا صقله. كما وُجِد الماس في أرض مقدونيا أيضاً. لكن بقي الماس الأفضل والأثمن هو الموجود في الهند.

وكانوا ما يجدون الماس القاسي أيضاً في الكتل المستخرجة من الذهب، عندما كانوا يقومون بتنقيتها وتكريرها خارج المنجم؛ فحين تُكسر الكتلة إلى قطع صغيرة كانوا أحياناً يجدون فيها قطعاً من الماس بحجم حبة البازلاء وأحياناً بحجوم أصغر من ذلك، وكانت هذه الحبّات المستخرجة بقساوة تلك الموجودة في الهند.

وإن يكن النّاس وجدوا ماساً نفيساً في الهند، فإنهم وجدوه أيضاً وبشكل أكبر على الصّخور المتواجدة في البحار وعلى الهضاب حيث وجدت مناجم الذهب. وكان يوجد العديد من قطع الماس مع بعضها، منها صغير الحجم ومنها الكبير. فقد وجدت قطع كبيرة بحجم حبة الفول وقطع أخرى بحجم حبة البندق. وكانت مربعة وزواياها حادة أساساً، من الجهتين العليا والسّفلى كليهما، دون أن تتدخل في صنعها يد الإنسان. وتتشكل مع بعضها، ذكوراً وإناثاً. وترتوي من ندى السّماء. وكانت تتكاثر دائماً وتنتج أطفالاً صغاراً، تتراكب وتنمو على مدار العام.

وقد كنت أفكّر دائماً أنه لو ترك الإنسان هذه القطع الصّغيرة في الصّخور ورطّبها بندى شهر أيار، كانت لتنمو كل عام حتى لتصبح أصغرها هائلة الحجم. فكما هو صحيح أن اللؤلؤ يتحجّر وينمو بفعل ندى السّماء، كذلك هو حال الماس تماماً؛ وكما أن اللؤلؤ بطبيعته ذو شكل دائري، فإن الماس أيضاً وبإرادة الله ذو شكل مربع. ويضع النّاس الماس على جانبهم الأيسر لأنه أفضل من الجانب الأيمن؛ لأن قوة نموه تكون

باتجاه الشّمال الذي هو الجزء الأيسر من العالم، وبالنسبة للإنسان فإن الجهة اليسرى تكون عندما يدير وجهه باتجاه الشّرق.

وإذا رغبتم بعرفة خصائص الماس (فمعظم النّاس لا يعرفون شيئاً فيما يتعلق بفن صقل الحجارة الثّمينة)، سأخبركم ما يقوله ويؤكده النّاس الذين وراء البحر والذين خرج من بينهم جميع العلماء والفلاسفة. من يحمل الماس معه تمنحه القوة والرّجولة، وتحافظ على سلامة أطرافه، وتنصره على أعدائه في الخصومات والحروب، إذا كان على حق. وتجعله فطيناً، وتحفظه من النّزاعات والمشاجرات، ومن الأرواح الشّريرة evil swevens والحزن والسّحر، ومن خيالات وأوهام الأرواح الشّريرة. وإذا ما قامت أيّة مشعوذة ملعونة أو ساحر بعمل لسحر حامل الماس، فإن كل الأسى والنّحس الذي فعلاه سينقلب عليهما بفضل هذا الحجر. وأيضاً لن يجرؤ أي وحش على مهاجمة شخص يحمل ماساً. ويجب أن يُقدّم الماس مجاناً دون أن يشتهيه المرء أو يشتريه، وبذلك تكون قيمته أكبر. ويجعل المرء أشدّ قوة وشجاعة في مواجهة خصومه. ويشفي من أصيب بمسّ، ومن لازمه أو عذّبه شيطان. وإذا ما وضع سُمّ في وجود ماسة فإنها تصبح رطبة وتتعرق.

وهناك في الهند نوع من الماس يسمّى ڤيولاستر violastres «البنفسجي» (لأن لونه يشبه البنفسج، لكنه داكن أكثر)، وهذا النّوع قاس جداً وثمين جداً. لكن بعض النّاس لا يفضلون هذا النّوع بدرجة الأنواع الأخرى؛ أما في الواقع فبالنسبة لي كنت لأحب هذا الماس مثل غيره فقد رأيته وأختبرته.

وأيضاً هناك نوع من الماس الأبيض كما الكريستال، ومن الممكن أن يكون أدكن قليلاً. وهذا الماس ذو نوعية جيدة وعظيمة، وجميعه بشكل مربع وبزوايا حادة بشكل طبيعي. بعضه سداسي الشّكل، وبعضه رباعي، وبعضه مثلث حسبما شكّلته الطّبيعة. ولذلك عندما كان السّادة العظماء أو الفرسان يذهبون للمشاركة في الحروب، كانوا يحملون الماس معهم بسرور.

سأحدثكم أكثر قليلاً عن الماس، بالرغم من أنني أرجئ موضوعي قليلاً حتى

الخاتمـة، فهؤلاء الذيـن لا يعرفون الماس لن يخدعوا بالباعـة الذين يمرّون في البلاد لبيعه. فلأولئك الذين يرغبون بشـراء الماس من الضروري لهم أن يعرفوه. لأن النّاس يقومـون بتزييفه بالكريسـتال ذي اللـون الأصفر وبحجـر الصّفير ذي اللـون الليموني الـذي هـو أصفـر أيضاً، وبحجـر الصّفيـر loupe وحجـارة أخرى عديـدة. ولكن هذه الحجارة المزيفة ليسـت بصلابة الماس، ويمكن لزواياها أن تتكسّـر بسـهولة، ويمكن صقلها بسـهولة أيضاً. لكن بعض الحرفيين، بسـبب خبثهـم، لا يصقلونه وذلك بقصد جعـل النّـاس يعتقدون أنـه لا يمكن صقله. ولكـن يمكن للناس فحصـه، أولاً بالقصّ بواسطة الحجر أو الكتابة به على الصّفير أو أي حجر ثمين آخر. بعد ذلك، يؤخذ حجر المغناطيس adamant الصّلب، الذي يسـمّى حجر البحّـارة، الذي يجذب الإبرة إليه، وتوضع الماسـة فـوق الحجر، والإبرة أمامه؛ فإذا كانت الماسـة جيـدة وعالية الجودة فإن الحجر لا يتمكن من سـحب الإبرة بسـبب وجود الماسـة. وهذا الإثبات على أنها تشكلت خلف البحار.

ومـع ذلـك فكثيراً ما يحدث أن تفقد الماسـة مزاياها بسـبب إثـم حاملها وفجوره. ولذلك من الضروري أن يعود إلى فضائله وإلا فإن قيمتها ستصبح ضئيلة.

* * *

الفصل الثّامن عشر

حول العادات في الجزر المحيطة بالهند
والفرق بين الأوثان والصّور الزّائفة
وعن ثلاثة أنواع مختلفة من الفلفل تنمو على شجرة واحدة
وعن البئر الذي يغير نكهته كل ساعة في اليوم؛ وهذه معجزة

يوجد في الهند بلاد كثيرة مختلفة. وقد سميت الهند بهذا الاسم بسبب نهر يجري في تلك البلاد يدعى هِند Ind. وفي هذا النّهر توجد أسماك الأنقليس بطول ثلاثين قدماً وأكثر. والأسماك التي تعيش في تلك المياه ذات لون غريب، خضراء وصفراء.

يوجد في الهند وما حولها أكثر من خمسة آلاف جزيرة جميلة وواسعة وهي مأهولة بالسكان، هذا عدا عن الجزر غير المأهولة والأخرى الصّغيرة. في كل جزيرة كان يوجد العديد من المدن الكبيرة، والقرى، وعدد كبير من السّكان. والسّكان في الهند كان لديهم مبدأ بعدم مغادرة بلادهم أبداً، ولذلك فالتعداد السّكاني كبير جداً. ولكنهم كسولون وخاملون، لأنهم في المنطقة المناخية الأولى الواقعة تحت تأثير زحل؛ وزحل بطيء وقليل الحركة، وهو يقوم بدورته بين الإشارات الإثنتي عشرة خلال ثلاثين عاماً. بينما يمرّ القمر بين الإشارات الفلكية خلال شهر واحد. وبما أن زحل بطيء جداً في حركته، فإن سكان تلك البلاد الذين تحت تأثيره لم يكن لديهم الرّغبة في الحركة ولا النّشاط للبحث في بلاد مجهولة. بينما في بلادنا العكس تماماً؛ فنحن واقعون في المدار السّابع، وهو القمر. والقمر سريع الحركة، وهو كوكب ذو

مسار؛ وبسبب هذه الخاصية مُنحنا خفة الحركة واتباع اتجاهات مختلفة، والبحث في الأشياء الغريبة وفي الاختلافات الأخرى في العالم؛ فالقمر يدور حول الأرض بسرعة تفوق جميع الكواكب الأخرى(1).

ويعبر الرّجال في طريقهم إلى الهند بالعديد من البلاد المختلفة وصولاً إلى المحيط العظيم. وبعدها يجدون هناك جزيرة تدعى كروز Cruse يقصدها التجار من البندقية وجنوة، وجهات أخرى، ليشتروا بضائعهم. ولكن الحرارة مرتفعة جداً في هذه الوجهات، وتحديداً في تلك الجزيرة، ولشدة القيظ تتدلى خصى الرّجال حتى ركبهم نظراً لذبول أجسادهم. والرّجال في تلك البلاد، كونهم يعرفون ذلك، يقومون بربطها للأعلى وإلا فإنها ستذوي، كما يقومون بدهنها بمراهم خاصة لجعلها تتماسك للأعلى.

في تلك البلاد كما في إثيوبيا، وبلاد أخرى كثيرة، يستلقي النّاس عراة في الأنهار والمياه، رجالاً ونساءً مع بعضهم، من فترة الضحى وحتى بعد الظهر. ويبقون في الماء للمحافظة على أجسامهم نظراً لشدة الحرّ. ولا تبدي النّساء خجلاً من الرّجال، فكلهم يعومون مع بعضهم جنباً لجنب حتى تنخفض الحرارة. وممكن أن يُشاهد الكثير من الأشخاص محتشدين، وتحديداً قرب القرى الخصبة.

والسّفن في تلك الجزيرة ليس فيها مسامير مصنوعة من الحديد أو أربطة، بسبب الصّخور الصّلبة، المنتشرة في ذلك البحر، التي من المدهش الحديث عنها. فإذا ما عبرت سفينة من هذه المنافذ وكانت تحوي على أربطة أو مسامير حديدية، فإن مصيرها الهلاك فوراً؛ لأن هذه الصّخور تجرّ الحديد إليها. ومن الممكن أن تجرّ السّفينة بكاملها لوجود الحديد فيها، ولن يكون من الممكن فصلها ومن جرّاء ذلك لا يمكن أن تتحرك أبداً.

ومن هذه الجزيرة يمضي الرّجال إلى جزيرة أخرى تدعى شانا Chana، وفيها

---

(1) هذا لأنه قمر تابع وليس كوكباً، يا حاج ماندفيل. ودورته الفلكيّة قصيرة، إذ أنه يدور حول الأرض وهو قريب منها، وليس حول الشمس.

الكثير من الحبوب والخمور، وكانت جزيرة كبيرة وذات مرفأ ضخم وجيد؛ ولكن البحر خرّبه بشدة وأنهكه. كان الملك في تلك البلاد قوياً جداً وعظيماً جداً فقد شنّ حرباً على الملك الإسكندر.

وللناس في تلك الجزيرة أديان مختلفة. فبعضهم يعبد الشّمس، وبعضهم القمر، وبعضهم النّار، وبعضهم الشّجر، وبعضهم الأفاعي، أو أي شيء ممكن أن يقابلوه في الصّباح. والبعض منهم يعبد الصّور simulacres وآخرون يعبدون الأوثان idoles. وهناك فرق شاسع بين الصّور والأوثان. فالصور عبارة عن تصوير يشبه رجلاً أو امرأة، أو الشّمس، أو القمر، أو أي حيوان، أو أي شيء طبيعي. بينما الأوثان تصوير مبتذل لإنسان، لا يندرج تحت الأشياء الطّبيعية، كأن يكون تمثالاً له أربعة رؤوس، أحدها رأس إنسان وآخر رأس حصان أو ثور، وممكن أن يكون رأس حيوان، بحيث لا يمكن أن يكون رآها في الأحوال الطّبيعية.

وأولئك الذين يعبدون الصّور، يعبدونها كونها تصوّر شخصاً مهماً عاش في زمان ما، مثل هرقل، وآخرين كثر قاموا بعمل أشياء جليلة في زمانهم. ويقولون إنهم لم يكونوا آلهة؛ لأنهم يعرفون أنه يوجد إله واحد خلق كل شيء، ويوجد في السّماء. كما أنهم يعرفون أن هذا الشّخص لم يقم بهذا الفعل الجليل بنفسه، ولكن إن حدث فهو بفضل هبة من الله؛ ولذلك فهم يقولون إنه كان مطيعاً لله وبسبب طاعته له فإنهم يعبدونه. وهذا ما يقولونه عن الشّمس، فهي تغيّر الوقت، وتعطي الدِّفء، وتغذّي كل شيء على وجه الأرض؛ وبسبب أنها ذات فائدة عظيمة، ويعرفون أن هذا ممكن أن يكون صحيحاً، فإن الله يحبها أكثر من أي شيء آخر، ولذلك السّبب، أعطاها الله أعظم مكانة في العالم. وهذا سبب جيد، حسب ما يقولون، ليقوموا بعبادتها وتبجيلها. فهذا ما كانوا يقولونه لإيجاد أسبابهم عن الكواكب الأخرى وعن النّار أيضاً كونها مفيدة جداً.

وعن الأوثان يقولون إن الثّور هو الحيوان الأكثر قدسيّة على وجه الأرض والأكثر صبراً، وهو مفيد أكثر من أي مخلوق آخر. فهو يقوم بأعمال جيدة ولا يقدم على أفعال

شريرة؛ ويعرفون تماماً أنه لا يمكن أن يكون دون نعمة إلهية مميزة. ولذلك يقومون بتصوير جزء من إلههم على صورة ثور، والجزء الثاني على صورة إنسان. لأن الإنسان هو المخلوق الأنبل في الأرض، ولأن لديه سيطرة على كل الحيوانات، ولذلك كانوا يصنعون النّصف الأعلى من الوثن على صورة الإنسان والنّصف السّفلي على صورة ثور، أو أفعى، أو حيوان آخر وأشياء عديدة، من التي يعبدونها، والتي تكون أول ما يقابلونه في الصّباح.

ويعبدون أيضاً بوجه خاص كل تلك الأشياء التي كان لقاؤهم بها فأل خير؛ وعندما يوفّقون في رحلاتهم، بعد لقاءهم بها، وخصوصاً عندما يثبتون ذلك ويختبرونه بالتجربة على المدى البعيد؛ فهم يقولون إن ذلك اللقاء الجيد كان بفضل نعمة الله. ولذلك يصنعون تماثيلاً لتلك الأشياء التي آمنوا بها، ليحتفظوا بها ويعبدوها في بداية يومهم، وإلا فإنهم سيواجهون نقيض ذلك. وهناك أيضاً بعض المسيحيين الذين يقولون إن اللقاء ببعض الحيوانات فأل جيد، ويمكن القول عندما يكون اللقاء بها في بداية اليوم، وبعض الحيوانات فأل سوء؛ وأثبتوا مع الوقت أن اللقاء بالأرنب (hare) سيء جداً، كما هو الخنزير والعديد من الحيوانات الأخرى. وقد وجدوا أنه عندما يقوم باشق أو طائر آخر من الوادي بمطاردة فريسته ويتمكن من الإمساك بها قبل الرّجال المسلحين، فهذا مؤشّر خير، أما إذا أخفق بإمساك الفريسة فهذا مؤشر شرّ. وبالنسبة لهؤلاء النّاس فإن اجتماع الغربان دليل شر.

بهذه الأشياء وبغيرها يعتقد الكثير من النّاس؛ لأنه حدث كثيراً أن تتطابق مع أوهامهم[1]. ويوجد أيضاً العديد من النّاس الذين لا يؤمنون بهذه الأشياء. وبما أن ثمّة أشخاصاً مسيحيين لديهم هذه الاعتقادات، وهم يتعلمون ويدرسون طوال اليوم بالتعاليم المقدّسة، التي يجب أن يؤمنوا بها، فمن غير المدهش أن تجد الوثنيين، الذين ليس لديهم عقيدة جيدة غير طبيعتهم، يؤمنون بهذه الأشياء بشكل أكبر بسبب سذاجتهم. وفي الواقع لقد رأيت من الوثنيين والعرب أشخاصاً يُدعَون العرّافين،

---

(1) جيّد، هنا يبدأ الكاتب بالتفكير على نحو إيجابي، ولو كان طبّق هذا المبدأ على نفسه أيضاً لكان أفضل. إنما في عصره بالقرون الوسطى هكذا كان المستوى الفكري للنّاس.

وعندما كنا نسير مسلّحين ببلاد مختلفة خلف أعدائنا، من طيران الطّيور كانوا يخبروننا بتكهناتهم عما سيحدث لاحقاً؛ وهذا ما كانوا يفعلونه في أغلب الأحيان، ويعرّضون رؤوسهم للقطع إذا لم يحدث ما قالوه. ولذلك يجب على المرء ألا يؤمن بأشياء كهذه، بل يجب أن تكون ثقته وإيمانه بالله مولانا الجبّار.

لقد ظفر العرب بجزيرة شانا واستحوذوا عليها. وكان في تلك الجزيرة الكثير من الأسود والحيوانات البرية، والجرذان في تلك الجزيرة كبيرة حجمها بحجم الكلاب هنا؛ وكانوا يصطادونها بواسطة الكلاب الضخمة، لأنه من الممكن ألا تتمكن منها القطط. وعلى هذه الجزيرة الكثير من النّاس لا يقومون بدفن موتاهم، لأن الحرارة مرتفعة جداً، وبذلك يتحلّل الجسد عن عظام الجثة بفترة قصيرة.

ومن ذلك المكان يذهب الرّجال إلى الهند عن طريق البحر إلى مدينة تدعى سارش Sarche. وهي مدينة جميلة وخصبة، ويعيش فيها الكثير من المسيحيين المؤمنين حقاً. وفيها الكثير من الأتقياء، وتحديداً الرّهبان.

بعد ذلك يتّجه الرّجال إلى أرض لومب Lomb. وهناك تنمو ثمار الفلفل في الغابة والنّاس يسمّونها كومبر Combar. وهي لا تنمو في أي مكان آخر في العالم، فقط في تلك الغابة، وهذا ما أثبتته ثماني عشرة رحلة بطولها. وفي الغابة يوجد مدينتان جيدتان؛ واحدة تسمّى فلادرين Fladrine والأخرى زينغلانتز Zinglantz، ويسكن في كليهما المسيحيون واليهود بأعداد كبيرة. وبالرغم من كونها مدينة خصبة وفيها كثافة سكانية فيوجد فيها حرّ شديد جداً.

ولعلمكم فإن نبات الفلفل ينمو كما تنمو الكرمة التي تزرع بجانب أشجار الغابة كدعامة لها، كما هو حال الكرمة. وتتدلى الثّمار كما العنب. وعندما تنضج تكون كلها خضراء، مثل ثمار العلّيق. ويقومون بقطفها، مثلما يقطفون الكروم، ويضعونها على النّار حتى تصبح سوداء وهشة. وتوجد ثلاثة أصناف مختلفة من الفلفل على الشّجرة الواحدة؛ ثمار فلفل طويلة، وسوداء وبيضاء. تسمّى الطّويلة بالسوربوتين *sorbotin*، والسّوداء فلفلة *fulfulle*، والبيضاء بانو *bano*. والثّمار الطّويلة تبدأ بالنمو أولاً عندما

تُورق الشّجرة، وتظهر قبل نمو الأوراق بشكل كرات بندقية اللون، وتتدلّى للأسفل. وبعد ذلك تصبح سوداء مع الأوراق، ومثل عناقيد العنب، كلها خضراء. وبعد جنيها تنمو الثّمار البيضاء والتي تكون بكميات أقل من السّوداء. ويحضر النّاس قسماً يسيراً من هذه الثّمار إلى هذه البلاد؛ لأنهم يحتفظون بها لأنفسهم لأنها أفضل وأطيب من السّوداء. ولذلك لا تتوافر بكميات كبيرة مثل السّوداء. attcmpre

في تلك البلاد يوجد الكثير من الأفاعي والهوام نظراً لارتفاع الحرارة الشّديد وبسبب الفلفل. والبعض يقول، عندما يجنون الفلفل يقومون بإضرام النّار وإحراق الجوار لجعل الأفاعي والهوام تهرب. ولكن لا يفعلون شيئاً ممّا يقولونه، لأنهم لو كانوا ليضرموا النّار حول الأشجار المثمرة لاحترقت ثمار الفلفل، وليبست تماماً، كما يحدث لأي شيء آخر؛ وأيضاً لتأذوا هم أنفسهم، ولما تمكنوا من إخماد النّيران. ولكن هذا ما يقومون بفعله: يدهنون أيديهم وأقدامهم [بسائل] مصنوع من الحلزون وأشياء أخرى مصنوعة لهذه الغاية، تعاف الأفاعي والوحوش الضارية طعمها وتنفر منه؛ ممّا يجعلها تفرّ هاربة من وجههم، بسبب الرّائحة، ثم يقومون بجني الثّمار بأمان.

وأعلى تلك الغابة تقع مدينة پولومبه Polombe، وفوق المدينة يوجد جبل ضخم يسمّى پولومبه أيضاً. وهذه المدينة تسمّى باسمه.

وفي أسفل ذلك الجبل يوجد بئر واسع وكبير، وله رائحة ومذاق بكل النّكهات. وفي كل ساعة من اليوم تتغيّر رائحته ومذاقه كلياً. ومن يشرب من ماء هذا البئر ثلاث مرات على الرّيق يتعافى من كل أمراضه. وأولئك الذين يقطنون هناك ويشربون من مائه دائماً لا يمرضون أبداً؛ ويبدون دائماً شباباً.

لقد شربت منه أربع أو خمس غرفات، ومع ذلك، أعتقد، بأنني أشعر بتحسّن. بعض النّاس يسمّونه بئر الشّباب، لأن الذين يشربون منه دائماً يبدون وكأنهم شباب، ويعيشون دون أمراض. ويقول النّاس إن هذا البئر ينبع من الجنة، ولذلك فإن له مزايا كثيرة.

وفي جميع تلك البلاد ينمو الزّنجبيل الجيد، ولذلك يقصدها تجار البهارات.

يعبد النّاس في تلك الأرض الثّور لبساطته وخنوعه، وللفائدة التي يقدمها. ويقولون إنه أقدس حيوان على وجه الأرض. لأنهم يعتبرون أن كل من كان يتحلّى بالخنوع والصّبر فهو مقدّس ومفيد؛ ولذلك فهم يقولون إنه يشتمل على كل الفضائل. إنهم يجعلون الثّور يكدح لست أو سبع سنوات وبعد ذلك يأكلونه. وملك البلاد يلازمه ثور دائماً. ويُمنح كل من يقتني ثوراً أجراً يومياً مجزياً، ويحتفظ بمخلفاته البول والرّوث في إناءين ذهبيين ويعرضها على أسقفهم الذي يسمّونه archi-protopapaton الذي يقوم بحملها إلى الملك ويقوم عندها بعبادة عظيمة. ويرطب الملك يديه منها، وهذا ما يطلقون عليه اسم gall، ويدهن جبهته وصدره بها. وبعد ذلك يقوم بالفرك بالرّوث والبول بإجلال عظيم، فأن تتحلى بفضائل الثّور وتصبح مقدّساً بفضل هذا الشّيء المقدّس هو شيء لا يقدّر بثمن. وعندما ينتهي الملك من ذلك، يقوم الأمراء بذلك؛ ثم بعدهم وزراؤهم وباقي الرّجال، إن بقي شيء لهم.

وهم يصنعون في تلك البلاد الأوثان، نصفها إنسان ونصفها ثور. ولهذه الأوثان أرواح شريرة تتكلم وتجيب على أسئلة النّاس لهم. وكثيراً ما يذبح النّاس أبناءهم أمام هذه الأوثان، ويتركون الدّم ينفر على الأوثان؛ وكذلك يقدّمون أضاحيهم.

وعندما يموت أحد في هذا البلد يقومون بإحراق جثته باسم الكفّارة، وبفضل ذلك لن يعاني من الألم في الأرض عندما تأكله الديدان. وإذا لم يكن لدى زوجته أولاد أحرقوها معه، ويقولون إن السّبب في ذلك، لتكون رفيقته في العالم الآخر كما كانت في هذا العالم. وإذا كان لديها أبناء منه، يدعونها لتعيش معهم، لتربيهم إذا رغبت في ذلك. وإذا أحبّت العيش مع أبنائها أكثر من أن تموت مع زوجها اعتبروها مخادعة وملعونة؛ ولن يحبّها أحد أبداً أو يثق بها النّاس. وإذا ما ماتت المرأة، قبل زوجها، يحرقونه معها إن رغب في ذلك؛ وإذا لم يرغب، لا يجبره أحد على ذلك، ومن الممكن أن يتزوّج مرة ثانية دون لوم أو توبيخ.

وينمو في ذلك البلد الكثير من الكروم القوية. وتشرب النّساء الخمر. وتحلق النّساء لحاهن بينما لا يقوم الرّجال بذلك.

الفصل التاسع عشر

عن القدر الذي وقع على يد القدّيس توما
وعن الإخلاص والأضاحي التي تقدّم للأوثان هناك، في مدينة كالاماي
وعن الموكب الذي سيجوب في المدينة

يعبـر الرّجال حدوداً كثيرة من ذلك البلد، مسـيرة عشـرة أيام، حتـى يصلوا إلى بلد تسمّى مابارون Mabaron؛ وهي مملكة كبيرة، وفيها الكثير من المدن الجميلة والقرى.

ويرقد في تلك المملكة جثمان القدّيس توما الرّسول بلحمه وعظمه، في قبر جميل في مدينة كالاميه Calamyc؛ حيث استشـهد ودفن. ونقل الآشوريون جثمانه إلى بلاد الرّافدين إلى مدينة تسمّى إيديسا[1] Edessa، ومن ثمّ نقل إلى هنا ثانية. وما تزال ذارعه ويده التي وضعها على جنب المخلّص عندما ظهر أمامه بعد انبعاثه وقال له:

Noli esse incredulus, sed fidelis.

أي: «لا تـدع الشّـك يـراودك، كن مؤمنـاً»، واليـد موضوعة في وعاء خـارج القبر. ويعتمـدون في قضائهم على هذه اليد، مَن على حق ومَن على باطل. فعند نشـوب أيّ نـزاع بين طرفين، وكل منهما يقدم الأدلة على حجته، ويقول إن حجته هي الصّحيحة، والطّـرف الآخـر يقول عكـس ذلك، يقـوم الطّرفان كلاهمـا بكتابة حجّته فـي ورقتين توضعـان فـي يد القدّيـس توما. وحالاً يقـوم برمي الورقـة التي تحوي الحجـة الزّائفة ويمسك الورقة ذات الحجّة الصّحيحة. ولذلك يأتي النّاس من البلاد البعيدة للتحكيم

(1) هي مدينة أورفا اليوم في كيليكيا جنوبي تركية، وكانت تُدعى في القرون الوسطى: الرُّها.

عندما يواجهون مسائل مشكوكاً في أمرها. ولا يتمكنون من فصلها.

وأيضاً الكنيسة، حيث يرقد القدّيس توما، كبيرة وجميلة، وتملؤها الصّور، وهذه تماثيل الكبيرة يدعونها بآلهتهم، وأصغرها بحجم رجلين.

وبين هذه التماثيل يوجد تمثال ضخم أكثر من البقية، ومغطى كلياً بذهب جميل وأحجار كريمة ولآلئ فخمة؛ وذلك الوثن هو إله المسيحيين الضالين الذين نقضوا إيمانهم. وهو يجلس على كرسي ذهبي، بجلال مُتناهٍ، ويحيط بجيده طوق مصنوع من الذهب والحجارة الكريمة واللآلئ. وهذه الكنيسة بكاملها مصنوعة بترف، وداخلها كله من الذهب. ويحج النّاس إلى ذلك الصّنم، كما يذهب المسيحيون عادة إلى القدّيس يعقوب وبالإخلاص ذاته، أو كحال الحجّاج الآخرين.

ويأتي أقوام كثر من بلاد بعيدة إلى هذا الصّنم بسبب إخلاصهم العظيم، وهم لا ينظرون أبداً باتجاه الأعلى، فأبصارهم تتجه إلى الأرض، خشية أن تقع أبصارهم على أي شيء من شأنه أن يزعزع إخلاصهم هذا. والبعض ممّن يأتون للحج إلى هذا الصّنم يحملون في أيديهم السّكاكين، القاطعة والحادة جداً، وبينما هم يسيرون يطعنون أنفسهم في أذرعهم وأرجلهم وأفخاذهم مسببين جروحاً مريعة؛ وبذلك هم يريقون دماءهم حباً في ذلك الصّنم. ويقولون إنه مبارك ومقدس، لأنه مات حباً في ربه. وآخرون يسوقون أولادهم إليه ليذبحوهم، ويقدمونهم قرباناً له؛ وبعد ذبحهم يرشون الدّماء على الصّنم. وبعض أولئك الذين يأتون من البعيد؛ يسعون إلى هذا الصّنم، وبعد كل ثلاث خطوات يمشونها من بيتهم يركعون؛ ويتابعون السّير حتى يصلون إليه. وعندما يأتون إلى هناك يأخذون معهم البخور والأشياء الأخرى العطرية ذوات الرّوائح الزكيّة، ويبخّرون الصّنم، كما يمكن أن نفعل هنا لجسد المخلّص العزيز. وأيضاً تأتي أقوام لعبادة هذا الصّنم، بعضهم من بعد مئة ميل، والبعض الآخر من مسافة أبعد من ذلك بكثير.

يوجد أمام كاندرائية هذا الصّنم، مَربى vivary وهي بحيرة كبيرة يملؤها الماء. ويلقي فيها الحجّاج الذهب والفضة، واللآلئ والأحجار الكريمة بأعداد لا تحصى،

بدلاً من تقديمها. وعندما يريد الوزير القائم على تلك الكنسية أن يقوم بترميم الكنيسة أو أيّ من الأصنام، يأخذ الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحيرة ليسدّد نفقات الأعمال والإصلاحات؛ وبذلك لا يكون هناك أي خلل لأنه حالاً سيتمّ تصحيحه. وللعلم فإنه عندما يكون هناك عيد أو احتفال يتعلق بهذا الصّنم، كتكريس الكنيسة أو تنصيب الصّنم، تتجمع كل البلدة هناك. ويضعون الصّنم على عربة بإجلال كبير، بأبهى حلّة يلبس ثياباً من الذهب، مصنوعة من القماش التتري الفاخر من الكمخة، وأقمشة أخرى نفيسة.

ثمّ يسيرون به عبر المدينة بوقار شديد، وتسير أمامه في الموكب كل الفتيات اثنتين اثنتين بنظام تام، وبعد الفتيات يسير الحجّاج. ويقع بعضهم أرضاً تحت عجلات العربة، ويتركون العربة تسير فوقهم، فيموتون فوراً. ومنهم من تنكسر ذراعه أو أحد أطرافه وبعضهم أضلاعه. وكل ذلك يقومون به بسبب حبّهم لربهم، وبإخلاص عظيم. ويعتقدون أنه كلما ازداد ألمهم، وكلما عانوا من المحن في سبيل ربّهم، سعدوا في الحياة الأخرى. وباختصار، إنهم يعانون من آلام جسيمة ومن عذاب عظيم في سبيل حبهم لربهم، وحسب اعتقادي، إنه لا يمكن لأيّ مسيحي أن يجرؤ على تحمل عُشر هذا الألم في سبيل حب سيّدنا المسيح. وبعد ما الموكب أمام العربة الذي أخبرتكم عنه، يسير العازفون بأعداد كبيرة ويحملون معهم آلات متنوعة ويعزفون كل الألحان التي يعرفونها.

وبعد أن ينتهوا من الطواف حول المدينة، يعودون إلى الكاتدرائية ويعيدون الصّنم إلى مكانه. ثم ومن أجل حبّهم وعبوديتهم لذاك الصّنم، وتوقيراً للعيد، يذبحون أنفسهم، مئتان أو ثلاثمئة شخص، بمدى حادة، ويقومون بوضع الجثث أمام الصّنم. ويقولون عن هؤلاء الأشخاص إنهم قدّيسون لأنهم قتلوا أنفسهم بملء إرادتهم الطّيبة لأجل حبّهم لهذا الصّنم. وبالنسبة للناس الذين يوجد قدّيس من أنسابهم يعتقدون أن ذلك تبجيلاً كبيراً لهم كما نعتقد نحن هنا، وممكن أن يكتب النّاس بإخلاص حياة القدّيسين العظماء ومعجزاتهم، ويلتمسوا تمجيدهم، لأنهم في ذلك المكان

قتلوا أنفسهم عن قصد في سبيل حبّهم لصنمهم. ويقولون لقد كانوا شهداء وقدّيسين عظماء، ويذكرونهم في كتبهم وفي ابتهالاتهم، ويتفاخرون فيما بينهم، بأقربائهم الذين يصبحون قدّيسين أيضاً، ويقولون لدينا في عائلتنا قدّيسين أكثر منكم في عائلتكم.

وهذه أيضاً إحدى العادات هناك، عندما يكون لديهم الإخلاص والنّية لقتل أنفسهم بسبب حبّهم لربهم، يرسلون في طلب كل أصدقائهم ويحضرون أكبر عدد من العازفين؛ فيذهبون إلى أمام الصّنم ويقودون معهم الشّخص الذي سيقوم بذبح نفسه من أجل إخلاصه، وبرهبة عظيمة. ويكون ذلك الشّخص عارياً تماماً يحمل بيده مدية حادة جداً، ويقوم باقتطاع قطعة كبيرة من لحم جسده ويرمي بها على وجه صنمه، مردداً صلواته، مزكياً بها لربه. ثم يطعن نفسه بقوة محدثاً جروحاً كبيرة وعميقة، هنا وهناك، حتى يسقط ميتاً. وبعدها يقوم أصدقاؤه بتقديم جثته إلى الصّنم. ويقولون، مغنين: «أيها الرّب المقدّس! انظر ماذا فعل العبد الحقيقي بنفسه لأجلك. لقد نبذ زوجته وأولاده وممتلكاته، وكل ما في هذا العالم وحياته لأجل حبّك، وقدّم لك قرباناً لحمه ودمه. ولذلك، أيها الرّب المقدّس، ضعه مع قدّيسيك الأثيرين في جنّتك المباركة، لأنه يستحقها». وبعد ذلك يضرمون ناراً كبيرة، ويحرقون جثته. ثمّ يقوم كل واحد من أصدقائه بأخذ كمية من الرّماد، ويحتفظ بها بدلاً من الرّفات، ويقول إنها شيء مقدّس. وهم لا يخشون أيّ خطر طالما لديهم هذا الرّماد المقدّس معهم. ويضيفون اسمه إلى ابتهالاتهم كقدّيس.

* * *

الفصل العشرون

عن العادات الغريبة المتبعة في جزيرة لاماري وكيف أن الأرض والبحر تبدو على شكل دائري، بدليل النّجم المسمّى بالقطبي الجنوبي Antarctic، المتوضع في الجنوب

يبحر الرّجال من ذلك البلد عبر البحر المحيط، ويمرّون بالعديد من الجزر المختلفة والكثير من البلاد التي يطول الحديث عنها هنا. وعلى مسافة اثنين وخمسين يوماً من البلد الذي حدثتكم عنه يوجد بلد آخر رائع جداً ويسمّى لاماري Lamary. الحرارة في تلك البلد مرتفعة جداً. والعادات هنا هي أن الرّجال والنّساء يتجولون عراة تماماً، ويسخرون إذا ما رأوا أي قوم غرباء يرتدون ثياباً. ويقولون إن الله خلق آدم وحواء عاريين، ولذلك لا يجب على أي إنسان أن يخجل من أن يظهر كما خلقه الله، فلا شيء يلوّث طبيعته الطّيبة. ويقولون إن أولئك الذين يرتدون الثّياب إما أنهم من عالم آخر أو أنهم لا يؤمنون بالله. وأنهم يؤمنون بالله الذي خلق العالم، والذي خلق آدم وحواء وكل الأشياء الأخرى.

وهم لا يرتبطون بزوجات، لأن النّساء هناك مشتركات ولا يرفضن أي رجل. ويقولون إنهن يرتكبن إثماً إذا ما رفضن أي رجل؛ وهذا ما أمر الله به آدم وحواء وكل من يأتي بعدهم عندما قال:

Crescite et multiplicamini et replete terram.

لذلك من الممكن ألا يقول أحد في تلك البلد: هذه زوجتي؛ وممكن أن لا تقول أيّ

امرأة: هذا زوجي. وعندما يضعن طفلاً، ممكن أن يعطينه لأي رجل كان في صحبتهن. وأيضاً كل الأرض مشاع؛ ففيها كلها يقوم رجل بأخذ أرض هذه السّنة، وفي السّنة القادمة يأخذها رجل آخر؛ وكل شخص يأخذ الجزء الذي يعجبه. ومحاصيل الأرض مشاع أيضاً، الحبوب وكل المحاصيل الأخرى: فلا يحتفظ بأي شيء في أماكن مغلقة، ولا يوضع أي شيء وراء قفل، وكل شخص يأخذ ما يريده دون أيّة ممانعة، والجميع أغنياء بنفس القدر.

ولكن يوجد في تلك البلد عادة بغيضة، فهم يأكلون لحوم البشر بشهية أكثر من أي شيء آخر؛ مع أنه يوجد عندهم فائض من اللحوم والأسماك والحبوب والذهب والفضة وكل شيء آخر. يذهب التجار إلى هناك ومعهم أولاد ليبيعوهم لهم، وهم يشترونهم. فإن كانوا بدينين يأكلونهم فوراً. أما إن كانوا نحيلين فهم يطعمونهم حتى يسمنوا ثم يأكلونهم. ويقولون: هذا أفضل أنواع اللحم وأطراه على الإطلاق.

وفي تلك البلاد، وفي العديد من البلاد المحيطة، لا يتمكن الجميع من رؤية النّجم المقابل[1] Transmontane الذي يسمّى بنجم البحر، وهو ساكن لا يتحرك وموقعه باتجاه الشّمال، ونسميه نحن نجم الطّريق Lode-star. ويتمكن النّاس من رؤية نجم آخر، يواجه ذاك النّجم، باتجاه الجنوب ويسمّى القطبي الجنوبي Antartic. وكما يقوم البحارة هنا بالاقتداء بنجم الطّريق، فتماماً يفعل البحارة خلف تلك الأجزاء ذلك مع نجم الجنوب، الذي لا يظهر لنا. وهذا النّجم الذي بالجهة الشّمالية الذي نسميه نجم الطّريق فهم لا يرونه. وبسبب ذلك يمكن للنّاس أن يدركوا تماماً أن الأرض والبحر ذات شكل دائري؛ وقبة السّماء تظهر في بلد ولا تظهر في البلد الآخر. ويمكن لهم أن تمكنوا من الإثبات بالتجربة وبالتحقق الدقيق أنه إذا شق الإنسان طريقه بواسطة سفينة ليستكشف العالم، فمن الممكن أن يتمكن وبواسطة السّفينة من الدّوران حول العالم والذهاب إلى فوقه وتحته.

وهو الشّيء الذي تمكنت من إثباته بعدما كنت قد رأيته. فقد ذهبت باتجاه

---

(1) المقصود به نجم القطب North Pole Star.

أجـزاء برابانت Brabant، وبفضل الأسـطرلاب وجدت أن النّجـم الذي يدعى النّجم المقابـل Transmontane على ارتفاع ثلاث وخمسـين درجة؛ وأبعد بقليل في ألماين Almayne وبوهيميـا فهـو على ارتفاع ثمان وخمسـين درجة؛ وأبعـد باتجاه الجهات الشـماليّة septentrional علـى ارتفاع اثنين وسـتين درجة وبضع أجـزاء؛ حيث قمت أنا بنفسـي بقياسـه بواسـطة الأسـطرلاب. والآن أعلمكم أنـه مقابل النّجـم المقابل[1] يوجد نجم جنوبي ويسـمّى القطبي الجنوبي، كما أخبرتكم سـابقاً. وهذان النّجمان لا يتحرّكان أبداً، وتدور بهما قبة السّماء كما تدور العجلة حول محورها[2]. وبذلك تقسم هذه النّجوم قبّة السّـماء إلى قسـمين متسـاويين، فيكون القسـم العلوي مساوياً للقسم السّفلي.

وبعـد ذلـك اتجهتُ نحو الجنوب، ووجدت أن النّاس فـي ليبيا Lybia هم أول من يـرى النّجـم القطبي الجنوبي. وحتى الآن لقد جُبت أكثـر في تلك البلاد، ووجدت أن النّجم يكون أعلى؛ وباتجاه إلى أعلى ليبيا يكون على ارتفاع ثمانية عشرة درجة وبضع أجـزاء (والدرجـة عبارة عن سـتين جزءاً). وبعد السّـفر بحـراً وبرّاً خلـف ذلك البلد، وجدتُ النّجم القطبي الجنوبي على ارتفاع ثلاث وثلاثين درجة وأجزاء أكثر. ولو كان لدي الصّحبة ووسيلة للإبحار للذهاب أكثر من ذلك، أعتقد أننا، وبكل تأكيد، كنا رأينا دائرية قبّة السّـماء كاملة. لأنه وكما أخبرتكم من قبل، يقع نصف قبة السّـماء بين هذين النّجميـن، النّصـف الذي كنـت أراه. والنّصـف الآخر قـد رأيته، باتجاه الشّـمال تحت النجم المقابل[3]، بارتفاع اثنتين وسـتين درجة وعشـرة أجزاء، وباتجاه الجزء الجنوبي رأيتُ النّجم القطبي الجنوبي، بارتفاع ثلاث وثلاثين درجة وستة عشر جزء.

وهكـذا فـإن نصف قبـة السّـماء بمجموعـه الكامل لا يتجـاوز التسـع مجموعات

---

(1) المقصود به نجم القطب North Pole Star.

(2) كلام جميل جداً وصحيح تماماً، وسبق به نظرية نيكولا كوبرنيك الشهيرة «مركزيّة الشمس» Heliocentrism التي وضعها عام 1532، لكن كلام ماندفيل لا يعدو الجانب الوصفي، دون حسابات فلكيّة رياضيّة كاملة.

(3) المقصود به كما ذكرنا نجم القطب North Pole Star.

scores من الدرجات. وهذه التسع مجموعات من الدرجات، قد رأيتُ اثنتين وستين منها في هذا القسم وثلاثاً وثلاثين في القسم الآخر؛ فيكون مجموعها خمساً وتسعين درجة وتقريباً نصف الدّرجة. وبذلك بكل تأكيد رأيتُ قبّة السّماء كاملة، وهي تشكل أربع مجموعات وأربع درجات ونصف درجة، وهذا ليس الجزء الرّابع من الأفق؛ لأن الجزء الرّابع من دائرية الأفق يشكل أربع مجموعات وعشر درجات، وبالتالي فهناك خمس درجات وخمس في الجزء الرّابع.

وقد رأيتُ أيضاً ثلاثة أجزاء من الدائرة الكاملة للأفق وفوقها خمس درجات ونصف. والتي حدثتكم عنها أنه لا بدّ أن يكون النّاس قد أحاطوا بكل أرض العالم، وأيضاً من أعلاها إلى أسفلها، وعادوا إلى بلدهم، وكان لديهم الرّفقة والسّفن والإدارة. ويجب أن يكونوا دائماً يجدون النّاس، في الأراضي والجزر، كما يوجد تماماً في هذه البلد. فكما تدركون تماماً أنهم عندما يكونون في الاتجاه القطبي الجنوبي، تكون أقدامهم تواجه تماماً أقدام أولئك الذين يسكنون تحت النجم المقابل؛ وأيضاً فإن أقدامنا نحن تواجه أقدام الذين يسكنون تحتنا. لأن كل أجزاء البحر والأرض يوجد ما يقابلها، ومأهولة بالسكان، ويوجد نصف هنا ونصف فوق.

ويجب إدراك أنه بعد أن لاحظتُ وفهمت، وجدت أن أرض يوحنّا الكاهن Prester John، إمبراطور الهند، تقع تحتنا. لأنه بالذهاب من اسكتلندا أو إنكلترا باتجاه القدس يتجه النّاس نحو الأعلى دائماً. لأن أرضنا تقع في الجزء السّفلي للأرض وباتجاه الغرب، وأرض يوحنّا الكاهن «بريستر جون» تقع في الجزء السّفلي من الأرض باتجاه الشّرق. وهناك يكون عندهم نهار حين يكون عندنا الليل؛ وأيضاً العكس، فيكون عندهم ليل حين يكون عندنا نهار. لأن الأرض والبحر ذات شكل دائري، كما ذكرت مسبقاً[1]؛ عندما يتجه النّاس إلى الأعلى باتجاه أحد السّواحل، فهم يذهبون

(1) كلام رائع وجميل وينطبق على حقيقة كوكب الأرض، لكنه لو تكلم عن «كروية» الأرض بدلاً من استدارتها لكان أصحّ. وعبارته بحرفيتها ترد في الأصل:

For the earth and the sea be of round form and shape.

نحو الأسفل باتجاه ساحل آخر.

ولعلمكم فإن القدس تقع في وسط العالم. وهذا ما تم إثباته، ويظهر ذلك من خلال وضع رمح مثبت في الأرض، وفي منتصف النّهار، في وقت الاعتدال الرّبيعي، فلا يظهر أيّ ظل ولا بأي جهة. ويجب أن يحدث هذا في منتصف العالم[1]، وذكر داود ذلك في سفر المزامير عندما قال:

Deus operatus est salutem in media terrae.

لذا فإلى ذلك الجزء من تلك الأجزاء من الغرب التي باتجاه القدس، قامت رحلات كثيرة باتجاه الأعلى للذهاب إليها، وأيضاً الكثير من الرّحلات من القدس إلى الحدود السّطحية للأرض التي تقع خلفها. وعندما ذهبوا خلف تلك الرّحلات باتجاه الهند والجزر الخارجية، أظهرت كلها دائرية الأرض والبحر الذي يقع تحت بلادنا في هذا النّصف.

وقد حدث أمر عدة مرات فقد سمعت كثيراً، عندما كنت صغيراً، قصة شخص مهم غادر بلادنا في وقت مضى لاستكشاف العالم. ومرّ بالهند والجزر التي خلفها، والتي تتجاوز الخمسمئة جزيرة. ومضى طويلاً بحراً وبراً، وأحاط بالعالم بعدة فصول، ووجد جزيرة يتكلم النّاس فيها بنفس لغته، ينادون الثّيران التي تحرث، بنفس الكلمات التي يستخدمها النّاس في حديثهم إلى الحيوانات في بلده وهذا ما أدهشته جداً، فهو لم يكن ليعرف كيف يمكن أن يكون ذلك. وأقول، إنه ذهب طويلاً بالبحر والبر، حول الأرض كلها؛ وأنه عاد للدوران، أي أنه عاد تقريباً من حيث مضى، ولو أنه ذهب أبعد من ذلك، لوجد بلده ومعارفه. لكنه ارتدّ ثانية من هناك، وعاد من حيث أتى. وبذل الكثير من العناء والتعب، لأنه قال هو نفسه إنه وصل إلى بلده بعد فترة طويلة. وحدث بعدها أن ذهب إلى النّروج. وأخذته عاصفة بحرية إلى أن وصل إلى جزيرة. وعندما كان في تلك الجزيرة، عرف أنها الجزيرة نفسها التي سمع فيها لغته

---

(1) هذا الكلام ينطبق على خط الاستواء Equator وليس على القدس التي تقع على خط العرض 31 ونيّف.

ذاتها والنّداء للثيران أثناء الحراثة؛ وكان ذلك شيئاً ممكناً.

ولكن كيف يبدو الأمر للناس البسطاء غير المتعلمين أنه يمكن للناس أن يذهبوا إلى تحت الأرض، وأن الإنسان يمكن أن يسقط إلى السّماء من الأسفل. والأمر ليس كذلك، فهو لا يتعدّى عن كوننا ممكن أن نسقط باتجاه السّماء من الأرض التي نقف عليها. لأنه حسب الجزء من الأرض الذي يسكنه النّاس، إما العلوي أو السّفلي، يبدو لهم دائماً أن السّكن حيث هم هو أفضل من أي قوم غيرهم. وصحيح أنه يبدو لنا أنهم يعيشون تحتنا، وأنه يبدو لهم أننا نعيش تحتهم. فإذا ما وقع إنسان من قبة الأرض باتجاه قبة السّماء، من الرّوعة، أن المنطق يقول أن الأرض والبحر أكبر وأثقل فيجب أن يسقط إلى السّماء: لكن ذلك لا يحدث، ولذلك قال إلهنا الرّب:

Non timeas me, qui suspendi terram ex nihilo?

أي: «لا تخف مني، فمن ذا الذي جعل الأرض معلقة بلا شيء؟».

ولو أنه من الممكن أن يحيط الإنسان بكل العالم، فكيف بألف شخص، لما تمكن أحد منهم من أن يعود إلى بلده. نظراً لعظمة الأرض والبحر، فمن الممكن أن يذهب النّاس عبر ألف طريق وطريق، وأن لا يستذكر أيّ منهم الطّريق الذي أتى منه، وإن حدث بالمغامرة والحظ، أو بنعمة من الله. لأن الأرض كبيرة جداً وعظيمة جداً، وشكلها دائري ومحيطها، من الأعلى ومن الأسفل، حوالي 20425 ميل، حسب رأي الفلكيين الحكماء القُدامى؛ والذين لا يمكنني أن أنكر قولهم. ولكن بعد إدراكي البسيط، يبدو لي، مع احترامي لهم، أن محيطها أكثر من ذلك[1].

ولفهم أفضل أقول التالي: تخيل شكلاً ذا انحناء شديد، وحول النّقطة التي في الانحناء الكبير التي تسمّى المركز يوجد انحناء آخر صغير. وبعد ذلك، اقسم الانحناء الكبير بخطوط إلى أجزاء كثيرة، ولتكن كل الخطوط ملتقية في المركز. وبذلك فإن عدد الأجزاء التي سينقسم إليها الانحناء الكبير، يساوي عدد الأجزاء التي يتقسم إليها

(1) هذا أيضاً صحيح، فمحيط الأرض يبلغ 24859.82 ميلاً، لكن هذا الرقم لا يتجاوز بكثير تقدير الفلكيين القدامى الذين يستحقون الاحترام على قربهم من معرفة القيمة الحقيقية.

الانحنـاء الصّغيـر، الذي يحيط بالمركز بالرغم من أن مسـاحته أصغر. والآن، إذا بدّلنا الانحنـاء الكبيـر بالأفق، والانحناء الصّغير بالأرض. والأفق مقسّـم مـن قبل الفلكيين إلى اثنتي عشـرة إشـارة، وكل إشارة مقسـمة إلى ثلاثين درجة؛ والمجموع 360 درجة التـي يقسـم إليها الأفـق فوق. وأيضاً تقسـم الأرض إلى عدد الأجزاء فـي الأفق، وكل جـزء يعـادل درجة في الأفـق. ويجب الإدراك تماماً، أنه، حسـب مؤلفـي علم الفلك، كل 700 فرلنـغ[1] في الأرض تعـادل درجة في الأفق، ويكون هذا سـبعة وثمانين ميلاً وأربعـة فرلنغات. وعند ضرب هذا النّاتج بـ 360 المذكورة، يكون الحاصل 31.500 ميلاً لكل ثمانية فرلنغات، بعد أميال من بلدنا. فالأرض ذات شكل دائري أكثر ومحيط أكبر، حسب رأيي وفهمي.

ولعلمكم، أنه حسـب رأي الفلاسـفة وعلماء الفلك الكبار والحكماء، فإن لا بلدنا ولا أيرلندا ولا ويلز ولا اسـكتلندا ولا النّروج ولا الجزر الواقعة على سـواحلهم يعتبر سـطحها فوق الأرض، كما تظهر في كتب الفلك. حيث أن سـطح الأرض مقسّـم إلى سـبعة أقسام لسبعة كواكب، وتسـمّى المناخات. ولا يقع جزءنا في المناخات السّبعة، لأنها تنحدر باتجاه الغرب [تنسـحب] باتجاه دائرية العالم. وهذه الجزر في الهند التي تقابلنا لا تعتبر من المناخات أيضاً. لأنها تقع مواجهة لنا في بلد منخفض. والمناخات السّبعة تمتدّ لتغطي العالم.

* * *

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

الفصل الحادي والعشرون

عن قصر الملك في جزيرة جاوة
وعن الأشجار التي تثمر الطّحين والعسل والخمر والسّم
وعن أشياء أخرى عجيبة، والعادات السّائدة في الجزر المجاورة

بجوار تلك الجزيرة التي حدثتكم عنها، توجد جزيرة أخرى تدعى سوموبور Sumobor. وهي جزيرة كبيرة، وملكها عظيم جداً. والنّاس في تلك الجزيرة يَسِمون أنفسهم على جبهاتهم بواسطة قطعة حديد محماة، رجلاً ونساءً، وهذا بدافع النّبالة، وليتميزوا عن الأقوام الآخرين؛ كونهم يعتبرون أنفسهم أكثر نبلاً وأعظم شأناً من سائر الآخرين في العالم. وهم في حالة حرب دائمة مع أولئك القوم الذين يسيرون عراة.

وبقربها تقع جزيرة أخرى، تسمّى بيتيمغا Betemga، وهي جزيرة خصبة ووافرة. وأيضاً ثمّة جزر كثيرة بالجوار، وفيها الكثير من الأقوام المختلفون، ويطول الحديث عنها.

ولكن بالقرب من تلك الجزيرة، بعد عبور البحر، يوجد جزيرة كبيرة وبلد عظيم يسمّونها جاوة. ولا يتجاوز محيطها الألفي ميل. وملكها حاكم عظيم وثري وقوي، ويوجد تحت سلطته سبعة ملوك آخرين يحكمون سبع جزر حوله. وهذه الجزيرة مأهولة بشكل كبير، وفيها أناس كثر. ويزرعون فيها كل أنواع التوابل وبوفرة أكثر من أي بلد آخر، مثل الزّنجبيل والقرنفل والقرفة canell والسّيدوال seedwal وجوز الطّيب والتّوابل mace. والمعروف أن جوزة الطّيب تحمل التّوابل maces؛ فكما أن البندق

تغطيها قشرة، تبقى بداخلها حتى تنضج ثم تنفصل عنها كذلك هو حال جوزة الطّيب والتّوابل maces. وغيرها الكثير من التوابل والمحاصيل التي تنمو في هذه الجزيرة. وكل شيء متوفر بكثرة باستثناء الخمر. ولكن يوجد الذهب والفضة وبكميات كبيرة.

وملك تلك الجزيرة لديه قصر فخم جداً ورائع، ومترف أكثر من أي قصر آخر في العالم. وكل أدراجه المؤدية إلى القاعات والغرف مصنوعة واحدة من الذهب والأخرى من الفضة. وأيضاً ممرّات القاعات والغرف كلها مصنوعة بشكل مربعات واحدة من الذهب والأخرى من الفضة. والجدران كلها مكسوة بالذهب والفضة بشكل لوحات جميلة، وهذه اللوحات تحكي وتصوّر الفرسان المميّزين enleved والتيجان والأكاليل حول رؤوسهم مرصعة بالحجارة الكريمة واللآلئ الغالية والنّفيسة. والقاعات والغرف بالقصر كلها مغطاة بالذهب والفضة ولا يمكن لأحد تصور فخامة ذلك القصر حتى يراه. وملك تلك الجزيرة عظيم جداً، وتمكن في مرات عديدة من أن يقهر خان كاثاي[1] الأعظم في المعارك، وهو الإمبراطور الأعظم تحت هذه السّماء سواء ما وراء البحر أو في هذا النّصف. وقد كانوا في حالة حرب غالباً، لأن الخان الأعظم أراد أن يجبره على ضمّ بلاده إليه؛ ولكن الآخر كان دائماً يتمكن من الدفاع عن نفسه ضده.

وبعد تلك الجزيرة، وبعد الإبحار، يجدون جزيرة أخرى، خصبة وكبيرة، وتسمّى باثن Pathen، وهي مملكة عظيمة فيها الكثير من المدن الجميلة والقرى. وفيها أشجار تنتج الطّحين، الذي يصنعون منه خبزاً جيداً وأبيض وطيب المذاق؛ ويبدو وكأنه مصنوع من الحنطة، ولكن بمذاق مختلف. وهناك أشجار أخرى تنتج العسل الجيد والحلو، وأشجار أخرى تنتج السّم، الذي لا يوجد ترياق له إلا [واحداً]؛ وهو أن يأخذ المرء أوراقها الجيدة ويسحقها ويلطفها بالماء ثم يشربها، وإلا فإنه سيموت؛ لأنه لا يوجد ترياق أو أي دواء آخر. وطلباً لهذا السّم قام اليهود بإرسال بعض أصدقائهم

---

(1) في تعابير أوروبا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة إلى اليوم: Китай كيتاي.

ليسمّموا كل المسيحيين، كما سمعتهم يقولون في اعترافاتهم قبيل موتهم، ولكن الحمد لله العظيم! فشلوا في مسعاهم؛ ولكنهم دائماً يسببون الموت للكثير من النّاس.

وهناك أشجار أخرى تحمل خمراً ذا مفعول قوي. وإذا رغبت أن تعرف كيف يخرج الطّحين من الشّجر فسأخبرك بذلك، يقوم الرّجال بضرب الشّجرة بفأس صغير، في أسفل الشّجرة، حتى ينقسم لحاؤها إلى أجزاء كثيرة، ثم يخرج منها سائل كثيف، يقومون بتعبئته في أوانٍ، ويجففونه بواسطة حرارة الشّمس؛ ثم ينقلونه إلى الطّاحون لطحنه ويصير طحيناً ناعماً وأبيض. والعسل والخمر والسّم يتم استخراجها من الشّجرة بالطّريقة ذاتها، ثم توضع في الأواني وتحفظ.

يوجد في تلك الجزيرة بحر الموت، وهو عبارة عن بحيرة ليس لها قاع؛ وإذا ما سقط أي شيء في تلك البحيرة فإنه لن يخرج أبداً. وينمو فيها القصب على شكل عصي ويسمّى تابي thapy، طوله حوالي الثّلاثين قامة[1] fathom، ويصنع النّاس من هذا القصب بيوتاً جميلة. ويوجد قصب أيضاً أقصر من هذا، ينمو على الضفاف وله جذور عميقة تصل إلى ثلاثة أرباع الفرلنغ أو أكثر من ذلك؛ وفي عُقد هذا القصب توجد أحجار كريمة ثمينة جداً. ومَن يحمل أياً منها معه، لا يمكن أن يؤذيه لا الحديد ولا الفولاذ، ولا ينزف منه دم؛ لذلك، فإن الرّجال يحملون هذه الحجارة معهم حتماً في البحر والبر، لأنه لا يمكن للآخرين إيذاؤهم ولا بأي جزء. ولذلك أيضاً، فإن الذين يعرفون خصائصه ويشتبكون معهم في قتال، يرمونهم بسهام ويتقاتلون دون استخدام الحديد والفولاذ، وبذلك يتمكنون من إيذائهم وذبحهم. وهم أيضاً يبنون من هذا القصب البيوت والسّفن وأشياء أخرى، كما لدينا نحن هنا بيوت وسفن من السّنديان والأشجار الأخرى. ولا يعتقدنّ أحدٌ أنني أقول هذا عبثاً، فقد رأيت بأم عيني، مرّات عدة، القصب طافياً على سطح نهر تلك البحيرة، ولم يتمكن عشرون شخصاً من جماعتنا من رفعه أو نقله إلى اليابسة.

بعد هذه الجزيرة اتجه الرّجال إلى جزيرة أخرى تدعى كالوناك Calonak، وهي

(1) مقياس القامة fathom يعادل 1,8288 متراً.

جزيـرة جميلـة وفيها مزروعات وفيرة. ولدى ملك تلـك الجزيرة من الزّوجات بالقدر الـذي يريـد. فهو يرسـل فـي البحث فـي كل أصقاع البلد حتـى يجدوا لـه أجمل فتاة، ويحضروهـا إليـه. وهو يتزوج واحدة في هـذه الليلة وأخرى في الليلـة التالية، وهكذا دواليـك؛ حتى أصبح لديـه ألف زوجة وربما أكثر. وهو لا يبقى مع الواحدة منهن أكثر من ليلة واحدة، وفي الليلة التالية مع أخرى؛ إلا إذا كانت تلك أكثر قدرة على إسـعاده مـن الأخرى. ولذلك فلديه الكثيـر من الأولاد، أحياناً مئة، أحيانـاً مئتين، وأحياناً أكثر من ذلك، ولديه أيضاً 1400 فيل أو أكثر من ذلك وقد جمعها من السّكان في كل مدنه. ففـي حال نشـبت حرب بينـه وبين أي من الملوك من حوله، فهـو واثق من قدرة رجال جيشـه على الصّعـود باتجاه القصور المبنية من الأشـجار من أجـل المعارك، ويقفون ببراعـة على ظهور الفيلة ليقاتلوا الأعداء. وهذا ما يفعله الملوك الآخرون من حولهم. لأن أسـلوب الحروب هناك ليس كما هو عليـه هنا أو في البلاد الأخرى، ولا حتى في طقوس الحرب. وهـم يسمّون الفيلة: *Warkes*.

وفي تلك الجزيرة أمرٌ مدهش جداً، والحديث عنه أكثر منه في أي جزء في العالم. فكل أنواع السّمك، الموجودة في البحر المحيط بهم، تأتي مرة في العام - من كل أنواع السّمك المختلفة، كل نوع يلي النّوع الآخر. وهي تلقي بنفسها على ضفاف الجزيرة بكميات كبيرة ووافرة، ولا يمكن لأحد أن يرى شيئاً سوى السّمك. وتبقى هناك لمدة ثلاثة أيام، وكل امرئ في البلد يأخذ منها بمقدار ما يريد. وبعد ذلك، وبعد اليوم الثّالث ترحل أسـماك هذا النّوع وتعود إلى البحر. ثم تأتي أسـماك بكميات وافرة من نوع آخر وتقوم بما قامت به سـابقتها، ولمـدة ثلاثة أيام أخرى. وبعدها تأتي غيرها، حتى تتوافد أنواع السّـمك كلها، وحتى يأخذ النّـاس منهـا الكمّيات التي يريدون. ولا أحد يعرف السّـبب وراء ذلـك[1]. ولكنهم يقولون إنهـا تقـوم بذلك إجلالاً لملكهم، كونه الملك الأعظم في العالـم، كما يقولون؛ لأنه يمتثل لأمر الله الذي فرضه على آدام وحواء، عندما قال:

(1) السّبب في ذلك هو البحث عن مياه ضحلة ودافئة لطرح البيوض وتخصيبها، ولو كان في ذلك موت الأبويين. إنها سنّة الكون العظيمة التي لا تأبه للملوك ولا غيرهم من بني البشر.

Crescite et multiplicamini et replete terram.

ولذلك السّبب فهو يضاعف أعداد العالم بالأولاد، والله يرسل له هذه الأسماك من كل الأنواع الموجودة في البحر، ليأخذ ما يشاء منها هو وكل شعبه. ولذلك تأتي الأسماك لتقدم له فروض الطّاعة كونه أنبل وأفضل ملوك العالم، والأثير إلى الله، حسب أقوالهم. لا أعرف السّبب في ذلك، الله أعلم؛ ولكن بالنسبة لي يبدو الأمر الأكثر غرابة في كل ما شاهدت. فهذه المعجزة غريبة كل الغرابة is against kind and not with kind، فكيف لهذه الأسماك التي تملك حرية التنقل على كل شواطئ البحر كما يحلو لها، أن تأتي بملء إرادتها لتقدم نفسها للموت ودون إجبار من الإنسان. ولذلك أنا متأكد أن ذلك لم يكن ليحدث إلا لدلالة عظيمة.

ويوجد في تلك البلد حلزونات كبيرة جداً، ويمكن لعدة أشخاص أن يدخلوا إلى قواقعها، كما يجلسون في بيت صغير. وهناك حلزونات كبيرة ولكنها ليست بحجم تلك. وهذه الحلزونات هي ديدان بيضاء كبيرة ولها رأس أسود بحجم فخذ إنسان، وبعضها أصغر حجماً بحجم الديدان التي يجدها النّاس في الغابات، ويحضّرون منها طعاماً فاخراً للملك وكبار الحكّام. وفي تلك البلاد إذا مات رجل متزوج، يدفنون زوجته معه؛ لأنهم يقولون إأن السّبب في ذلك أن ترافقه في العالم الآخر كما فعلت في هذا العالم.

ومن ذلك البلد يبحر الرّجال عبر المحيط ويمرّون بجزيرة تسمّى كافولوس Caffolos. والنّاس في تلك الجزيرة عندما يمرض أصدقاؤهم يعلقونهم في شجرة، ويقولون من الأفضل أن تقوم الطّيور، التي هي ملائكة الله، بأكلهم من أن تأكلهم ديدان الأرض.

ومن تلك الجزيرة يمضون إلى جزيرة أخرى، حيث يوجد قوم بغيضون. فهم يربون كلاباً ضخمة ويعلمونها كيف تخنق رفاقهم عندما يمرضون، وبذلك لا يموتون برفق، فهم يقولون إنهم سيعانون من آلام شديدة إذا تُركوا ليموتوا من تلقاء أنفسهم، عندما تشاء الطّبيعة. وعندما يُخنقون بهذه الطّريقة يأكلون لحمهم بدلاً من لحم الطّرائد.

وبعدما يجتاز الرّجال الكثير من الجزر وصلوا إلى جزيرة تسمّى ميلكه Milke وفيها الكثير من النّاس البغيضين، فليس هناك شيء أكثر متعة لديهم من مهاجمة البشر وقتلهم. وهم يشربون بابتهاج دماء البشر، ويسمّونه ديو Dieu. وكلما قتل الرّجل منهم عدداً أكبر من البشر أصبح أكثر كرامة بينهم. وإذا نشب شجار بين شخصين، وللمصادفة، أن يحدث بين أحد أصدقائهم أو حلفائهم، فعندها على كل واحد منهم أن يشرب من دماء الآخر، وإلا فإن الترابط والتحالف يكون بلا قيمة. ولا شيء يمنع توجيه التوبيخ للذي يخرق التحالف والتآلف، إلا بأن يشرب كل منهم من دم الآخر.

ومن تلك الجزيرة يبحر الرّجال من جزيرة إلى جزيرة، حتى يصلوا إلى جزيرة تسمّى تراكودا Tracoda، والأقوام في تلك الجزيرة مثل الوحوش، وغير عاقلين، ويسكنون في كهوف حفروها في الأرض، لأنهم لا إدراك لديهم لبناء البيوت. وإذا ما رأوا أيّ إنسان يمر بجزيرتهم اختبأوا في كهوفهم. وهم يأكلون لحوم الأفاعي، وبكميات قليلة. ولا يتكلمون بل فقط يصدرون هسيساً مثل الأفاعي. وليس لديهم لا أسعار ولا أوزان ولا مال، فقط لديهم حجر ثمين ذو ستين لوناً، ونسبة إلى اسم الجزيرة يسمّونه «تراكودون» Tracodon. ويحبّون هذا الحجر أكثر من أي شيء آخر؛ بالرغم من عدم معرفتهم لخواصه، لكنهم يعشقونه ويحبونه فقط لجماله.

ويبحر الرّجال بعد هذه الجزيرة في المحيط بالقرب من جزر عديد حتى وصلوا إلى جزيرة ناكوميرا Nacumera، وهي جزيرة خصبة وجميلة. وتقع على مساحة تتجاوز الألف ميل. وكل الرّجال والنّساء في تلك الجزيرة لديهم رؤوس كلاب، ويسمّونها سينوسيفال cynocephales. وهم قوم عقلاء ومتفهمون، باستثناء أنهم يعبدون الثّور كإله لهم. وكل واحد منهم يحمل ثور من الذهب أو الفضة على جبهته، كدليل على صدق حبهم لربهم. ويسيرون عراة باستثناء خرقة صغيرة يغطون فيها عوراتهم حتى الرّكبة. وهم قوم أشداء ومقاتلون جيدون. ولديهم درع targe يغطي كامل جسدهم، ويحملون رمحاً في يديهم ليقاتلوا به. وإذا أخذوا شخصاً في المعركة فهم يأكلونه فوراً.

وملـك هـذه الجزيرة غني جداً وقوي جداً وملتزم حقـاً بقوانينه. ويضع حول رقبته حوالـي 300 لؤلؤة متألّقـة، جيدة وكبيرة ومعقودة، كالرقية مـن الكهرمان عندنا. وكما نتلو نحن صلوات «أبانا» *Pater Noster* و«السّـلام عليك يا مريم» *Ave Maria* بعدد *Pater Nester* فملكهـم يتلـو بخشـوع 300 صـلاة لربـه، أو ما يـأكل[1]. وأيضاً يضع حـول رقبته ياقوتة متألقة، فخمة وجميلة، طولها قدم وعرضها خمسـة أصابع. وعندما يختـارون ملكهم، يعطونه هذه الياقوتة ليحملها بيـده؛ ويقودونه ليطوف بكل المدينة. ومـن تلـك اللحظة وصاعـداً يكونون تحت طاعتـه. ويحمل تلك الياقوتـة دائماً حول رقبته، لأنه إن لم يفعل ذلك يمكن ألا يعدّه النّاس بمثابة الملك. لقد اشتهى خان كاثاي العظيـم هذه الياقوتة كثيـراً، ولكنه لم يحصل عليها لا بحـرب ولا بالمقايضة ببضائع. وهـذا الملك عادل ومنصف جداً في أحكامه، وبإمكان النّاس التجول بحرية في بلاده وأن يحملـوا معهـم ما لديهم، ولن يقوم أحد بسـلبهم بضائعهـم، وإن حدث هذا، فإن الملك سيحاكمه فوراً.

ومن تلك الجزيرة يبحر الرّجال إلى جزيرة أخرى تسـمى سـيلها Silha. وهي تبعد 800 ميلاً تقريباً. وهي أرض خاوية تماماً لأنها مليئة بالأفاعي والتنانين والكوكودريل[2] cockodrills، لذلـك لا يجـرؤ امـرؤ على السّـكن فيها. وهـذا الكوكودريـل نوع من الأفاعـي، لونـه أصفر وأعلاه مخطّط، وله أربعة أقدام وأرجـل قصيرة، وأظافر ضخمة كأنهـا مخالب. وبعضه يصـل طوله إلى خمس قامات[3] fathom، ومنه سـتة أو ثمانية أو حتى عشرة. وعندما يدبّ في أماكن منخفضة، يبدو وكأن إنساناً يجرّ شجرة ضخمة بهذا المكان المنخفض. ويوجد أيضاً الكثير من الوحوش البرية، وتحديداً الفيلة.

يوجد في تلك الجزيرة جبل عظيم. وفي وسـط قمته توجد بحيرة كبيرة على مكان منبسط جميل؛ ويوجد فيها الكثير من الماء. وفي تلك البلاد يقولون إنّ آدم وحواء بكيا

---

(1) لم أفهم معنى العبارة، وهي في الأصل: or that he eat ولا بدّ أنها مصحّفة.

(2) هكذا يكتب ماندفيل العبارة، وصوابها crocodile وهو يعني التّمساح بالطبع، ومن البديهي أن التّماسيح لم تكن مألوفة للأوروبيين آنذاك، وكانت من الأعاجيب.

(3) مقياس القامة fathom يعادل 1.8288 متراً.

على قمة هذا الجبل لمدة مئة عام، عندما طُردا من الجنة، وهذا الماء، حسب أقوالهم، هو دموعهما؛ لأنهما ذرفا دموعاً كثيرة، وهكذا تشكلت البحيرة المذكورة. وفي قاع هذه البحيرة يوجد الكثير من الأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة. وينمو فيها الكثير من القصب والخيزران الكبير؛ ويوجد بينه الكثير من الكوكودريل cockodrills والأفاعي والطّفيليات المائية الضخمة. وملك تلك البلاد، مرة في كل عام، يسمح للناس الفقراء بالذهاب إلى البحيرة لجمع الأحجار الكريمة واللؤلؤ، كصدقة، حباً في الله الذي خلق آدم. وعلى مدار العام يجدون الكثير منها. وبالنسبة للهوام الموجود في البحيرة، فهم يدهون أيديهم وأفخاذهم وأرجلهم بمرهم مصنوع من شيء يسمّونه ليمون lemon، وهو نوع من الفواكه يشبه البازلاّء الصغيرة، وبذلك لا يخشون أيّاً من الكوكودريل ولا الهوام الأخرى السّامة. ويجري هذا الماء، بين مَدّ وجَزر، على جانب الجبل، ويجد النّاس في هذا النّهر الأحجار الكريمة واللؤلؤ، بكميات كبيرة. ومن الأقوال الشّائعة بين النّاس في تلك البلاد، أن الأفاعي والوحوش البرية لا تؤذي ولا تمسّ بشرّ أي شخص غريب يدخل هذه البلاد، فقط النّاس الذين يولدون في هذه البلاد.

في هذه البلاد وما حولها يوجد إوز بري له رأسان. ويوجد أسود، لونها أبيض بالكامل وحجمها كبير بحجم الثّيران، ووحوش أخرى متنوعة وطيور لا نشاهدها بيننا.

وللعلم فإن في هذه البلد وفي الجزر المحيطة بها، البحر عالٍ جداً، ويبدو وكأنه معلق بالغيوم، وكأنه سيغطي العالم كله. ومن الإعجاز الكبير أن يحدث هذا، فبمشيئة الله فقط، يمسكه الهواء. ولذلك قال داود في المزامير:
Mirabiles elationes maris.

* * *

الفصل الثّاني والعشرون

كيف يعرف النّاس بفضل أوثانهم إذا كان الشّخص المريض سيموت أم لا
وعن قوم ذوي أشكال مختلفة ومشوهين بشكل غريب
وعن الرّهبان الذين يقدّمون بقايا طعامهم إلى السّعادين والقردة والحيوانات الأخرى

من تلك الجزيرة، وعبر البحر باتجاه الجنوب، يوجد جزيرة كبيرة تسمى داندن Dandun. والأقوام في تلك الجزيرة من أنواع مختلفة، والأب يأكل ابنه والابن أباه، والزّوج زوجته والزّوجة زوجها. وإن حدث ومرض الأب أو الأم أو أحد أصدقائهم، يذهب الابن فوراً إلى كاهنهم ويطلب إليه أن يسأل صنمهم فيما إذا كان أبوه أو أمه أو صديقهم سيموت بذلك المرض أم لا. ثم يذهب الكاهن والابن معاً إلى أمام الصّنم ويركعان بخشوع ويسألانه مطلبهما. وإذا أجاب الشّيطان الذي بداخله أنه سيعيش، فيتركونه على حاله؛ أما إذا كان الجواب أنه سيموت، يذهب الكاهن مع الابن مع زوجة الشّخص المريض، ويضعون أيديهم على فمه حتى يتوقف عن التنفس، ثم يذبحونه. بعد ذلك يقطعون جسده إلى قطع صغيرة، ويدعون كل أصدقائه ليأتوا ويأكلوا من الميت. ويرسلون في طلب كل العازفين في البلاد ويقيمون احتفالاً مهيباً.

وبعد أن يأكلوا اللحم، يأخذون العظام ويدفنونها، ويغنّون ألحاناً مهيبة. وكل أنسباؤه والذين يدّعون أنهم أصدقاؤه، الذين لم يأتوا إلى تلك الوليمة، يوبَّخون على الدّوام ويُنعتون بالعار، ويواجهون بنقد كبير، ومن بعد ذلك لا يمكن أن يُتخذوا

أصدقاء. ويقولون أيضاً، إنّ النّاس يأكلون لحومهم ليخلصوهم من العذاب؛ لأنهم إذا أكلتهم ديدان الأرض ستتكبد الرّوح آلاماً جسيمة، حسب قولهم. وإذا كان اللحم رقيقاً ونحيلاً، يقول الأصدقاء إنهم ارتكبوا إثماً كبيراً بتركه بهذا الوهن طويلاً وليعاني الكثير من الألم دونما داع لذلك. وعندما يجدون اللحم كثيراً، يقولون إنهم أحسنوا صنعاً بإرساله فوراً إلى الجنة، ولم يتركوه يعاني طويلاً ويتحمّل الألم.

وملك هذه الجزيرة حاكم عظيم جداً وقوي، وتقع تحت سلطته خمس وأربعون جزيرة كبيرة تقدّم الجزية له. ويوجد في كل جزيرة من هذه الجزر ملك متوّج؛ وكلهم تحت ولاء ذلك الملك. ولديه في تلك الجزر الكثير من الأقوام المختلفين.

في إحدى هذه الجزر يوجد أقوام ذوو بنية ضخمة، مثل العمالقة، ومرآهم مريعٌ جداً. ولهم عين واحدة، في منتصف جبهتهم، ولا يأكلون سوى اللحوم والأسماك النّيئة.

وفي جزيرة أخرى باتجاه الجنوب يقطن قوم ذوو قوام كريه وشكل بغيض وليس لديهم رؤوس. وعيونهم تقع على أكتافهم[1].

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم وجوههم مسطّحة تماماً، ومنبسطة، دون أنف ولا فم. لكن لديهم فتحتان صغيرتان، مدورتان تماماً، بدلا من العيون، وفمهم دون شفاه.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم شكلهم مقيت فشفتهم العليا كبيرة جداً، وعندما ينامون تحت الشّمس يغطون كامل وجههم بتلك الشّفة.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم صغار جداً، كالأقزام. وليس لديهم فم؛ فبدلاً من الفم

---

(1) هذه الأوصاف جميعها خياليّة وغير معقولة أبداً، وفيها خيال جامح بأشدّ ممّا ذكره رحّالتنا الكبير ابن بطّوطة المعاصر لماندفيل. وقد ظهرت رسوم كثيرة لهذه الأشكال التي وصفها ماندفيل، وقد حصلت عليها جميعاً من طبعة آوغسبورغ الألمانيّة المطبوعة عام 1481 م، لكن نشرها يستلزم موافقة من المكتبة العامّة صاحبة النسخة الأصليّة، الأمر الذي سيستدعي منا إصدار طبعة مصوّرة لاحقاً من هذا الكتاب النفيس تضم الصور الكاملة المنفذة بنُقيشات على الخشب.

يوجد لديهم فتحة صغيرة مدورة، وعندما يريدون أن يأكلوا أو يشربوا، يأخذونه بواسطة أنبوب أو قلم أو ما شابه، ويمتصّونه لأنه ليس لديهم لسان؛ ولذلك فهم لا يتكلمون، ولكن يصدرون هسيساً كالصوت الذي تصدره الأفعى، ويستخدمون الإشارات فيما بينهم كما يفعل الرّهبان، ويتفاهمون من خلالها.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم لهم آذان كبيرة وطويلة، تتدلّى حتى ركبهم.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم لديهم حوافر الخيول. وهم أقوياء وأشدّاء، ويجرون بسرعة؛ فهم يمسكون الحيوانات البرية بالجري ويأكلونها.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يسيرون على أيديهم وأرجلهم مثل الحيوانات. ويغطيهم جلد وريش، ويقفزون بخفّة إلى الأشجار وينتقلون من شجرة إلى أخرى كما لو كانوا سناجب أو قروداً.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يمثل الواحد منهم رجلاً وامرأة معاً، ولديهم شكل يتراوح بين الرّجل والمرأة. ولديهم حلمة ثدي واحدة في جهة واحدة، ولا يوجد في الجهة الثّانية. ويوجد لديهم أعضاء تناسل ذكرية وأنثوية، ويستخدمون الجهازين كليهما كما يريدون، مرة هذا ومرة ذاك. ويحملون عندما يستخدمون العضو الذكري، ويلدون عندما يستخدمون العضو الأنثوي.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يمشون على ركبهم بشكل غريب حقاً. ومع كل خطوة يمشونها، يبدون كأنهم سيقعون. ولهم في كل قدم ثمانية أصابع.

ويوجد الكثير من الأقوام المختلفين وبطبيعة مختلفة في الجزر الأخرى، ولكن الحديث عنهم يطول جداً، ولذلك مررتُ على ذكرهم باختصار.

ومن هذه الجزر وعبر البحر المحيط باتجاه الشّرق وبعد أيام طويلة، يصل الرّجال إلى بلد كبيرة ومملكة عظيمة تسمى مانسي Mancy. وهي تقع في الهند. وهي أفضل أرض ومن أجمل البلاد الموجودة في العالم، والأكثر بهجة ووفرة بكل أنواع المحاصيل التي يعرفها الإنسان. ويعيش في تلك البلاد الكثير من المسيحيين

والمسلمين، لكونها بلداً خصبة وكبيرة. وفيها أكثر من 2000 مدينة كبيرة وغنية، عدا عن القرى الكبيرة. وفيها الكثير من السّكان أكثر من أي مكان آخر في الهند، بسبب سخاء هذه البلاد. لا يوجد في هذه البلاد أناس محتاجون، ولا يوجد متسولون. والنّاس ذوو شكل حسن، ولكنهم كلهم شاحبون. وللرّجال لحى خفيفة وشعر قليل، لكن طويل؛ ولا يتجاوز تعداد شعر لحية الرّجل منهم الخمسين شعرة، وشعرة هنا وشعرة هناك كلحية الفهود أو القطط. ويوجد هناك الكثير من النّساء الأكثر جمالاً من كل البلاد الأخرى ما وراء البحر، ولذلك يسمي النّاس تلك البلاد ألبانيا Albany لأن النّاس فيها ذوو بشرة بيضاء[1].

والمدينة الرّئيسية في تلك البلاد تسمى لاتورين Latorin، وهي قريبة من البحر، وهي أكبر من باريس. وفيها نهر كبير يحمل السّفن المبحرة إلى كل الشّواطئ على البحر. ولا توجد أيّة مدينة في العالم تمتلئ بالسفن مثلها. وكل سكان المدينة والبلد يعبدون الأوثان. وفي تلك البلد حجم الطّيور ضعفا ما هو عليه هنا. ويوجد إوز أبيض اللون، وله خط أحمر حول الرّقبة، وعُرف كبير مثل عرف الدّيك يعتلي رؤوسها؛ وأعدادها أكثر ممّا هي عليه هنا، ويشتريها النّاس هناك حتّى وبسعر زهيد جداً. ويوجد الكثير من الأفاعي التي يولم النّاس عليها ويأكلونها باحتفالية كبيرة؛ والذي يقوم بوليمة لا تكلفه كثيراً، والذي لا يقدّم الأفاعي لا يُشكر على عنائه.

وهناك الكثير من المدن الجميلة في تلك البلاد، والنّاس لديهم الكثير الوافر والرّخيص جداً من كل أنواع الخمر والطّعام. وفيها الكثير من المعابد لرجال الدين، حسب دينهم. في هذه المعابد أصنام ضخمة جداً مثل العمالقة؛ ويقدّمون الطّعام لهذه الأصنام في أيام المهرجانات الكبيرة. يحضرون إليهم الأطعمة فوراً وحارّة كلحظة خروجها من النّار، ويتركون الدُّخان يتصاعد باتجاه الأصنام؛ وهكذا يقولون إن صنمهم قد أكل؛ وبعد ذلك يأكل رجال الدين.

يوجد في تلك البلاد دجاج أبيض دون ريش، ولكن يغطيه صوف أبيض كما

---

(1) في اللغة اللاتينيّة ألبينو albino تعني: الأبرص، شديد البياض.

الخراف هنا. والنّساء غير المتزوجات يوجد علامة على رؤوسهن مثل الإكليل ليُعرف أنهن عازبات. وأيضاً هناك حيوانات علّمها النّاس أن تذهب إلى المياه، إلى الأنهار والبحيرات العميقة لتصطاد السّمك؛ وهذه الحيوانات صغيرة وتسمى اللوير loirs. وعندما يرمي بها النّاس إلى الماء، فوراً تجلب سمكاً كبيراً، بقدر ما يريد النّاس. وإن أرادوا كمية أكبر يرمون بها مرة ثانية إلى الماء، فتخرج من السّمك الكمية التي يريدها النّاس.

ومن تلك المدينة وعلى بعد أيام إبحار كثيرة توجد مدينة أخرى، من أكبر مدن العالم، وتسمى كاساي Cassay وهي تعني «مدينة الجنة». مساحة هذه المدينة حوالي خمسين ميلاً، وهي مأهولة بالسكان بشكل كبير، ففي البيت الواحد تقطن عشر أُسر. ولهذه المدينة اثنتا عشرة بوابة رئيسية؛ وأمام كل بوابة، بطول ثلاثة أو أربعة أميال، توجد قرية كبيرة أو مدينة كبيرة. وتقع هذه المدينة على بحيرة كبيرة في البحر مثل البندقية. وفيها أكثر من 1200 جسر. وعلى كل جسر توجد حصون منيعة، يقطن فيها الحرّاس لحماية المدينة من الخان العظيم. وفي جزء آخر من المدينة يجري نهر كبير على طول المدينة. ويسكن فيها مسيحيون وتجار وأقوام مختلفة من أمم متنوعة، لأن هذه الأرض خصبة ووفيرة. ويُنتج فيها خمر جيد يسمّونه بيغون bigon، وهو ذو مفعول قوي ولطيف عند الشّرب. وهي مدينة ملكية وكان ملك مانسي Mancy يرغب أن يسكن فيها. ويقطن فيها الكثير من رجال الدين، وكأنها دير للرهبان، وهم يعيشون على الهبات.

يبحر الرّجال من تلك المدينة، ويتسلون ويتلهّون، حتى يصلوا إلى دير رهبان، وهم رجال أتقياء ملتزمون بدينهم ومعتقداتهم. وفي ذلك الدّير توجد حديقة كبيرة وجميلة، وفيها أشجار كثيرة تحمل فاكهة متنوعة. وفيها تلة صغيرة تملؤها أشجار بهيجة. وفي تلك التلة وتلك الحديقة توجد حيوانات متنوعة، مثل القرود، والقرود الصّغيرة، والسّعادين وحيوانات أخرى متنوعة. وفي كل يوم، بعد أن يأكل الرّهبان في هذا الدّير، يقوم الوكيل على الصّدقات بحمل بقايا الطّعام إلى الحديقة، ويطرق على

بوابة الحديقة بواسطة هراوة من الفضة يحملها في يده، فتبادر حالاً كل الحيوانات في التلة وفي أماكن أخرى في الحديقة يصل عددها إلى 3000 أو 4000، إلى القدوم كالفقراء، فيقدّمون لها بقايا الطّعام في أوانٍ فضية، نظيفة ولامعة. وبعد أن تأكل، يطرق الرّاهب على بوابة الحديقة بالهراوة، وفوراً تعود الحيوانات كلها من حيث أتت.

ويقولون إن لهذه الحيوانات روحاً كما للإنسان ومن العدل التساوي معها، ولذلك يعطونها الطّعام لأجل حبهم لله؛ وعن الحيوانات الأخرى الكريهة يقولون إن لديها أرواح النّاس الفقراء والعامّة البسطاء. ولذلك يعتقدون، أنه لا يجب على كل النّاس التفكير بها. وتلك الحيوانات المذكورة أعلاه أخذوها عندما كانت صغيرة وغذّوها بالصدقات، بقدر ما وجدوا. وسألتُهم فيما إذا كان من الأفضل أن يعطوا هذه البقايا للفقراء، بدلاً من هذه الحيوانات، فأجابوني أنه لا يوجد فقراء في تلك البلد، وأنه من الأفضل التصدّق لهذه الأرواح التي تؤدّي كفاراتهم. وهناك الكثير من الأمور العجيبة في تلك المدينة وتلك البلاد والتي يطول الحديث عنها.

ومن تلك المدينة يمضي الرّجال في تلك البلاد مسير ستة أيام إلى مدينة أخرى تسمى خيلينفو Chilenfo، والتي يحيط بها سور بطول عشرين ميلاً. وفيها ستون جسراً من الحجر، جميلة جداً لا يمكن أن يُرى أجمل منها. وفي تلك المدينة كان أول حصار لملك مانسي بسبب كونها جميلة ووفيرة بكل شيء.

وبعد ذلك يعبر الرّجال نهراً كبيراً يسمّى دالاي Dalay، وهو أكبر نهر ذي ماء عذب في العالم. فهو، في أضيق أجزائه، يصل عرضه إلى أكثر من أربعة أميال. ثم يدخل الرّجال إلى أرض الخان الأعظم.

ويمرّ ذلك النّهر في أرض الأقزام، حيث يوجد قوم بنيتهم صغيرة، وطولهم لا يتعدّى الثّلاثة أشبار. وهم جميلون ودمثون، بأجمعهم رجالاً ونساءً. وهم يتزوجون بعمر نصف سنة وينجبون. ولا يعيشون أكثر من ست أو سبع سنوات كحدّ أقصى؛ ومن يعيش ثماني سنوات، يعتبرونه مسناً جداً. وهم أفضل حرفيي الذهب والفضة والقطن والحرير وما شابه ذلك، أكثر من أي أحد آخر في العالم. ولديهم حرب دائمة

مـع الطّيـور في تلـك البلاد ليصطادوهـا ويأكلوها. وهـؤلاء القوم الصّغـار لا يعملون فـي الأرض أو فـي الكـروم؛ لكـن يوجد بينهـم أناس كبـار بحجمنا يحرثـون الأرض لهـم ويعملون في الكـروم. والنّاس الذين بحجمنا موضع سـخرية وعجب كما يكون العمالقة بيننا، إن وجدوا بيننا.

وتوجـد مدينة خصبة، بين المدن الأخـرى، ويقطنها الكثير من القوم الصّغار، وهي مدينة كبيرة وجميلة. ويوجد ناس بحجم كبير يعيشون بينهم، ولكن عندما يولد لديهم أطفـال يكونـون صغاراً جـداً بحجم الأقزام. ولذلـك فهم كلهم بأغلبيتهـم أقزام؛ لأن طبيعة هذه الأرض كذلك. والخان الأعظم يحافظ على هذه المدينة بشكل جيد، فهي ملكـه. وإن يكن الأقزام صغاراً فإنهم عقلاء جداً حسـب عمرهم، ويمكنهم أن يكونوا ظرفاء وطيبين وخبثاء أيضاً.

ومـن تلك المدينـة يذهب الرّجال عبر تلـك البلاد وعبر الكثير مـن المدن والقرى وصـولاً إلى مدينة تسـمى جامـكاي Jamchay، وهي مدينة راقيـة ومترفة وذات فائدة كبيـرة للحاكـم، ويتجه الرّجـال إلى هنـاك ليتبضعوا مـن كل البضائع. ولهـذه المدينة إيرادات سـنوية كبيرة تعود على سيد البلاد. فهو يحصل لقاء خراج هذه المدينة (كما يقولون في المدينة) 50,000 قطعة عملة ذهبية cumants of florins، فهم يحسبون كل شيء بالكومانت، وكل كومانت يعادل 10,000 فلورين من الذهب. والآن يمكنكم أن تعرفوا تماماً كم يعادل هذا المبلغ.

وملـك تلك البلاد قوي جداً. ولكنه تحت سـلطة الخـان الأعظم. وتقع تحت إمرة الخـان الأعظم اثنتا عشـرة مقاطعة كهـذه. وفي هذه البلاد وفي المـدن المعتبرة توجد عادة جيدة: فأيّ شـخص يريد أن يقيم وليمة لأصدقائه، توجد خانات مخصّصة لذلك في كل مدينة جيدة، ويطلب هذا الشّخص صاحب الوليمة إلى صاحب الخان[1] قائلاً:

---

(1) أرجو التمييز هنا بين لقب الخان في اللغات الأورالو ألطائيّة (ومنها التركيّة)، وعبارة الخان التي تعني النُزل. وأنبّه إلى أنه ليس في التركيّة حرف الخاء على الإطلاق، بل لفظ العبارة: Han هان، وهو الصّواب وليس الخان. وثمّة لقب شبيه به هو: Hakan يُلفظ: هاكان، وشاع في

رتّب لي عشاءً ليوم غد لكذا شخص، ويذكر له العدد، ويزوّده بالمؤونة، ويقول له: هذا القدر الذي سأقدّمه وليس أكثر من ذلك. وفوراً يقوم صاحب الخان بالترتيب له بشكل جميل وجيد وبأمانة، بحيث لا ينقصه شيء، ويتم التحضير بسرعة وبكلفة أقل ممّا يفترض أن يدفعه الشّخص في بيته.

وعلى بعد خمسة أميال من تلك المدينة، باتجاه منبع نهر دالاي، توجد مدينة أخرى تسمى مينكه Menke. وفيها أسطول بحري قوي، وسفنه كلها بيضاء مثل الثّلج بلون خشب الأشجار التي صنعت منها. وهي سفن كبيرة وجميلة، ومشيّدة بشكل جيد، وفيها قاعات وغرف ومرافق أخرى، وكأنها على اليابسة.

ومن هناك يذهب الرّجال، مروراً بالكثير من القرى والمدن، عبر البلاد إلى أن يصلوا إلى مدينة تسمى لانتيرين Lanterine، وهي على بعد مسيرة ثمانية أيام من المدينة آنفة الذكر. وتقع هذه المدينة على نهر جميل، كبير وعريض، ويسمّونه كاراماارون Caramaron. وهذا النّهر يجري عبر كاثاي، وغالباً ما يسبب أذى عندما تزداد غزارته، كونه غزيراً جداً.

* * *

التراث العربي بالقرون الوسطى بلفظ: خاقان. ومعنى الخان في التّركية والمغوليّة الأويغوريّة: السيّد. لكن اللفظ التتري أقرب إلى: قان، وهكذا ترد في نص المملوك صارم الدّين أوزبك الذي نذكره أدناه.

الفصل الثّالث والعشرون

عن خان كاثاي الأعظم، وعن فخامة قصره
وكيف يجلس إلى الطّعام؛ وعن عدد الموظفين الكبير الذين يخدمونه

بلاد كاثاي[1] كبيرة وجميلة، فخمة وغنية، ومليئة بالتجّار. فهم يؤمونها على مدار العام طلباً للتوابل وكل أصناف البضائع، بشكل أكبر من أي جزء آخر. وكما تعلمون فإن التجار القادمين من جنوة أو البندقية أو رومانيا أو أيّة أجزاء أخرى من لومبارديّا، يأتون عن طريق البحر والبرّ لمدة تتراوح بين أحد عشر شهراً أو اثني عشر، أو أكثر من ذلك، ليصلوا إلى جزيرة كاثاي المنطقة الرّئيسية بين المناطق التي حولها؛ وهي بلاد الخان الأعظم.

ومن كاثاي يبحر الرّجال شرقاً لعدة أيام. ثم يجدون مدينة خصبة أكثر من المدن حولها، وتسمى سوغارماغو Sugarmago. وهذه المدينة هي أفضل منتج في العالم للحرير والبضائع الأخرى.

وبعدها اتجهوا إلى مدينة أخرى قديمة باتجاه الشّرق. وتقع في مقاطعة كاثاي. وبجانب تلك المدينة سمح رجال دولة التّتار Tartary بإنشاء مدينة أخرى تدعى كايدون Caydon. ولهذه المدينة اثنتا عشرة بوابة، والمسافة بين بوابة وأخرى ميل دائماً؛ ولذلك فإن المدينتين، أي القديمة والجديدة، يزيد محيطهما على العشرين ميلاً.

---

(1) في تعابير أوروبا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة: Китай كيتاي. وحديثه هنا عن كاثاي ينطبق على فرع إمبراطوريّة التّتار في الصّين.

في هذه المدينة عرش الخان الأعظم في قصر منيف، وهو الأجمل في العالم، محيط سوره يتجاوز الميلين. وداخل هذا السّور توجد القصور الأخرى. وفي حديقة القصر الكبير توجد تلة، وعليها يوجد قصر آخر؛ وهو الأجمل والأغنى ممّا يمكن أن يتصوره إنسان. ويوجد حول القصر وعلى التلة الكثير من الأشجار المتنوعة. وحول التلة توجد قنوات مياه كبيرة وعميقة، وبجانبها يوجد حظائر vivaries على هذه الجهة واحدة وعلى الجهة الأخرى واحدة. ويوجد جسر جميل للعبور فوق القنوات. وفي هذه الحظائر vivaries يوجد الكثير من الإوز البري والبط والبجع ومالك الحزين بأعداد لا تحصى. وحول هذه القنوات والحظائر توجد حديقة كبيرة تملؤها الحيوانات البرية. وبذلك عندما يريد الخان الأعظم أن يلهو فيمكنه أن يصطاد أي حيوان أو طير من النّافذة دونما حاجة ليغادر غرفته.

وهذا القصر، حيث يوجد العرش، كبير وجميل جداً. وبداخله، في القاعة، يوجد أربعة وعشرون عموداً من الذهب الخالص. وكل الجدران مغطاة بجلود حمراء لحيوانات يسمّونها النّمور panthers، وهي حيوانات جميلة وذات رائحة شذية؛ وبسبب تلك الرّائحة الجميلة الصّادرة عن هذه الجلود لا يمكن أن تدخل إلى القصر روائح كريهة. وهذه الجلود لونها أحمر بلون الدم، وهي تلمع بشدّة عند تعرّضها للشمس، وعندها لا يمكن لأي إنسان أن يمسك بها. والكثير من النّاس يعبدون هذا الحيوان، عندما يكون أول ما يشاهدونه في الصّباح، نظراً لصفاته المميزة ورائحته الجميلة. وهم يثمّنون هذه الجلود أكثر من لو كانت صفائح من ذهب.

وفي وسط هذا القصر يوجد عرش mountour للخان الأعظم، وهو مزخرف بالذهب والأحجار الكريمة واللآلئ الثّمينة. وعلى أركان العرش الأربعة توجد أربع أفاعٍ من الذهب. وحوله يوجد شبكة كبيرة منسوجة من الحرير والذهب واللآلئ الكبيرة معلقة فوق العرش. وتحته توجد قنوات للمشروبات التي يتناولونها في قصر الإمبراطور. وبجانب القنوات توجد أوانٍ ذهبية، يستخدمونها للشرب من الأقنية.

وقاعة القصر مصمّمة بفخامة كاملة، ومزينة بشكل رائع بكل جوانبها وبكل الأشياء

التـي يزيّـن بها النّاس أي قاعـة. فأولاً، في صدر القاعة يوجد عـرش الإمبراطور، وهو عـالٍ جداً، حيث يجلس إلـى الطّعام. وقد صُنع من الحجـارة الثّمينة الجميلة، محاطة بالذهـب الخالص والأحجار الكريمة، واللآلئ الكبيـرة. والدرج المؤدي إلى المنصة من الأحجار الثّمينة المموّهة بالذهب.

وعلـى الجانب الأيسـر من عرش الإمبراطور يوجد عـرش زوجته الأولى، أخفض بدرجـة واحدة من عرش الإمبراطور؛ وهو من حجر اليشـب الكريم، يحيط به الذهب والحجارة الكريمة. ثم عرش زوجته الثّانية، وهو أيضاً أخفض بدرجة من عرش الزّوجة الأولى؛ وأيضاً مصنوع من اليَشب ومحاط بالذهب مثل السّابق. وعرش الزّوجة الثّالثة أخفض أكثر، بدرجة عن الزّوجة الثّانية. لأنه يكون مع ثلاث زوجات دائماً، أينما حلّ.

وبعد زوجاته، وبنفس الجهة، تجلس سيدات ذرّيته ولكن بمجالس أخفض، وبعد ذلك الحاشـية. وكل النّسـاء المتزوجات يضعن على رؤوسهن قلنسوة على شكل قدم رجـل، طولها ذراع، مرصعة باللآلئ الكبيرة، الجميلـة والمتلألئة، وفوقها يوجد ريش طاووس وريش آخر ملون؛ وترتفع فوق رؤوسـهن مثل العُرف، كإشـارة على وقوعها تحت قدم رجل وأنها خاضعة لرجل. أما العازبات فلا يضعن شيئاً كهذا.

ويلـي الإمبراطور على الجهة اليمنى ابنه الأكبر الذي سـيحكم من بعده. وهو أيضاً يجلـس أخفض عن الإمبراطور بمقدار درجة، وعلى عرش شـبيه بعرش الإمبراطورة. ثـم يجلس كبار الشّـخصيات من ذرّيته، كل واحد أخفض بدرجة عن سـابقه، حسـب مكانتهم.

وللإمبراطور طاولته الخاصة به وحده، المصنوعة من الذهـب والحجارة الكريمة، ويحيـط بها الكريسـتال والذهـب. وهي مليئة بالحجـارة الثّمينة أو الجمشـت، ونبات الصّبـر lignum aloes الـذي يأتي مـن الجنة، أو بحواف من العـاج أو الذهب. ولكل واحـدة مـن زوجاتـه الطّاولـة الخاصة بها أيضـاً. ولابنه الأكبـر ولكبار الشّـخصيات، وللنبيـلات، وكل مـن يجلس مع الإمبراطور يكون له طاولـة خاصة، فخمة تماماً. وما من طاولة إلا وتكون ممتلئة بالأطعمة الغنية.

وتحت طاولة الإمبراطور يوجد أربعة كتّاب يكتبون كل ما يقوله الإمبراطور، سواء كان خيراً أم شرّاً؛ لأن كل ما يقوله يجب أن يحفظ، حتى لا يغيّر أقواله أو يتراجع عنها.

وفي طقوس احتفالية مهيبة، يدني الرّجال من الإمبراطور طاولة كبيرة من الذهب، وعليها طاووس من الذهب وطيور أخرى مختلفة، كلها من الذهب ومرصعة بسخاء ومصقولة. والنّاس يجعلون الطيور ترقص وتغنّي، وتصفّق بأجنحتها، وتحدث ضوضاء كبيرة. وإن كانت خدعة أو سحراً فلا يمكنني إدراكها أبداً؛ ولكن كان من الجيد رؤية مشهد كهذا، وكان جميلاً؛ وأمراً مثيراً للدهشة بشدة. ولكن دهشتي كانت أقل بهذا، لأنهم كانوا القوم الأكثر براعة بكل العلوم والمهارات في العالم كله؛ فهم يتفوّقون على كل النّاس الموجودين تحت السّماء بالبراعة والحيلة والتكهن. ولذلك يقولون عن أنفسهم إنهم يرون بعينين اثنتين بينما يرى المسيحيون بعين واحدة، لأنهم أكثر براعةً منهم. ويقولون عن باقي الأمم كلها أنه عميان blind في فنون البراعة والعمل مقارنة معهم. أنجزتُ عملاً عظيماً بتعلّم تلك الخدعة، ولكن معلّمي أخبرني أنه أقسم لربّه ألا يعلمها لأي مخلوق، فقط لابنه الأكبر.

وأيضاً على طاولة الإمبراطور والطّاولات الأخرى، وعلى جزء كبير من القاعة توجد نباتات كرمة مصنوعة من الذهب. ومنتشرة في كل أرجاء القاعة. وفيها عناقيد كثيرة من العنب، بعضها أبيض وبعضها أخضر والبعض أصفر والبعض أحمر والبعض أسود، كلها من أحجار ثمينة. الأبيض مصنوع من الكريستال والبيريل beryl والإيريس iris؛ الأصفر من حجر الطّوباز، والأحمر من الياقوت والغريناز grenaz والألبراندين alabrandines؛ الأخضر من الزّمرد والپيريدوز perydoz والكريسوليت chrysolites؛ والأسود من العقيق والغارنتيز garantez. وكلها مصنوعة بدقة متناهية فتبدو وكأنها كروم حقيقية تحمل هذا العنب.

وأمام طاولة الإمبراطور يقف كبار السّادة وأغنياء الأعيان وآخرون ليقوموا بخدمة الإمبراطور على الطّعام. ولا يتفوّه أحد بكلمة، إلا عندما يخاطبه الإمبراطور؛ أو إذا وجد منشدون ليغنوا أو للمزاح أو التسالي الأخرى لإبهاج الإمبراطور. وكل الأواني

التي تقدم فيها الأطعمة في القاعة وفي الغرف من الحجارة الثّمينة، وخصوصاً الأطباق الكبيرة فيجب أن تكون من اليشب أو الكريستال أو الجمشت أو من الذهب الخالص. والكؤوس من الزّمرد أو الزّفير، أو الطّوباز أو البيريدوز peryodoz، والعديد من الأحجار الكريمة الأخرى. ولا يوجد أنية من الفضة، لأنها ليست ذات قيمة، لكنهم يعملون من الفضة grecings وأعمدة والممرات للقاعات والغرف. وأمام مدخل القاعة يقف الكثير من الأعيان والفرسان يحملون أسلحة ليمنعوا النّاس من الدخول، إلا إذا كانت تلك رغبة أو أوامر الإمبراطور، أو إذا كان من الخدم والعازفين العاملين في القصر؛ وغير أولئك لا يُسمح لأحد أن يصل إلى مدخل القاعة.

ولعلمكم، أنني قمت ورفاقي مع مساعدينا بخدمة هذا الإمبراطور، وكنا جنوداً عنده لمدة خمسة عشر شهراً ضد ملك مانسي، الذي وقف ضده. والتّبب في ذلك كان توقنا لرؤية فخامة وحالة بلاطه وكل أملاكه، لنرى فيما إذا كانت كما سمعنا عنها أم لا. وبالفعل وجدناها أكثر فخامةً وأكثر تميزاً، وأفخم وأكثر روعة ممّا كنا سمعناه عنها، بشكل لم نكن لنصدقه ما لم نره. فأنا متأكد أن أحداً لن يصدّق مدى الفخامة والترف والحشد الكبير من النّاس الموجود في قصره، إن لم يكن رأى ذلك؛ لأنها هناك ليست كما هي عليه هنا. لأن النّبلاء هنا لديهم من الحاشية عدد محدّد وهو ما يفي بالغرض؛ لكن الخان الأعظم لديه كل يوم من النّاس في ضيافته وعلى نفقته أعداد لا تحصى. لكن الطّقوس، في تقديم الطّعام والشّراب، وفي الأمانة وفي النّظافة، ليست منظمة كما هي هنا؛ فكل العامة هناك يأكلون دون فوطة على ركبهم، ويأكلون كل أصناف اللحوم وبعض الخبز، وبعد اللحوم يمسحون أيديهم بملابسهم، ويأكلون مرة واحدة في اليوم. ولكن الوضع مع النّبلاء فخم جداً ومترف ونبيل.

وإن لم يكن البعض ليصدقني، ويعتقدون أنني أختلق الكلام عن فخامة شخصه وحاله وقصره والعدد الكبير من النّاس الذين يعملون عنده، ومع أنني أخبركم القليل عنه وعن قومه، بعد أن رأيت عاداتهم ونظامهم مرات عدة. فليصدقني من يشاء، وليكذبني من يشاء. لأنني أعرف جيداً أنه لو وصل أحد إلى هذه البلاد، وحتى إن لم

يصـل إلى المكان الذي يقطن فيه الخان الأعظم، سيسـمع النّاس يتكلمون عنه أشـياء رائعة جداً، والتي لن يصدقها بسهولة. وفي الواقع، حتى أنا شخصياً، لم أصدقها حتى رأيتها. وهؤلاء الذين حدث أن كانوا في ممتلكات الخان الأعظم يعرفون تماماً الشّيء الذي أقوله. ولا أسـتثني منهم بأنه لا يعرف ولا يصدُق إلا مَن رأى بنفسـه، وسـأروي لكم شيئاً عنه وعن أحواله عندما يسافر من بلد لآخر وعندما يقوم باحتفالاته المهيبة.

* * *

الفصل الرّابع والعشرون

لماذا يسمّى الخان الأعظم، وعن أسلوب رسائله ومضمون خاتمه الكبير وخاتمه السّرّي

أولاً سأخبركم عن سبب تسميته بالخان الأعظم.

لعلمكم، أنه تدمّر العالم بأسره بعد فيضان نوح، وأبقي فقط على نوح وزوجته وأولاده. وكان لديه ثلاثة أبناء هم سام Shem وحام Cham ويافث Japhet. وحام هذا رأى مرة عورة أبيه وهو نائم، واستهزأ به، وأومأ إلى أخويه بإشارة من إصبعه متهكماً، ولذلك لعنه الله. أما يافث فقد أشاح بوجهه وغطّى أباه.

وانتشر الأخوة الثّلاثة في كل البقاع. وحام هذا، بسبب جشعه، اتجه إلى أكبر وأفضل جزء، باتجاه الشّرق، والذي يسمّى آسيا. وسام أخذ أفريقيا، ويافث أوروبا. وبذلك قسم الأخوة الثّلاثة العالم إلى ثلاثة أقسام. كان حام الأعظم والأقوى، وكانت ذريته أكثر من الآخرين. وابنه كوش Chuse أنجب النّمرود الجبار، الذي كان أول ملك في العالم؛ والذي بدأ بإنشاء برج بابل. وفي ذلك الوقت، كان شياطين جهنم يأتون باستمرار ويواقعون نساء ذرّيته وينجبون مخلوقات غريبة، كالوحوش ومشوّهة، بعضها دون رؤوس، وبعضها بآذان كبيرة، وبعضها ذوات عين واحدة، ومنها العملاقة، ومنها من له حافر الأحصنة، وأشكال أخرى مختلفة عن الشّكل البشري. ومن ذرّية حام أتى الوثنيّون paynims وأقوام مختلفة وتوضعت في الجزر في البحر بكل الهند. ولأنه كان جباراً ولا يمكن لأحد مقاومته فقد أطلق على نفسه اسم ابن الله وسيطر

على العالم كله. وبسبب حام هذا، أطلق هذا الإمبراطور على نفسه اسم حام، وسيطر على العالم.

ومن ذرّية سام جاء العرب. ومن يافث بنو إسرائيل. وعلى الرّغم من أننا نقطن في أوروبا، فالمُعتقد أن السّريان والسّامريين بينهم البعض منهم. وهذا ما أخبروني به قبل أن أذهب باتجاه الهند، ووجدت العكس. بالرغم من أن الحقيقة هي كالتالي: أن التّتار الذين يسكنون آسيا الكبرى، هم ذرّية حام؛ ولكن إمبراطور كاثاي لم يسمِّ نفسه حام وإنما «خان» Can، وسأخبركم كيف كان ذلك.

إنها لم تكن أكثر من ثمان سنوات وكان التّتار خاضعين وفي خدمة الأمم التي حولهم. لأنهم كانوا قوماً همجيين وكل ما كانوا يقومون به هو تربية الحيوانات وأخذها إلى المراعي. وكان بينهم سبع أمم أساسية كانت تسيطر عليهم جميعهم. ومنهم: الأمة الأولى أو الذرّية الأولى كانت تسمى التّتار Tartar، وكانت الأرقى والأعلى قدراً. والذرّية الثّانية كانت تسمّى التانغوت Tanghot، والثّالثة Eurache، والرّابعة Valair، والخامسة Semoche، والسّادسة Megly، والسّابعة Coboghe.

وحدث أن تولّى حكم الذرّية الأولى رجلٌ ذو شأن لكنه لم يكن غنياً، وكان يسمّى جنگيز[1] Changuys. ومرة نام هذا الرّجل في فراشه ورأى في منامه أن فارساً مسلحاً وقف أمامه وهو يرتدي البياض، وكان يمتطي جواداً أبيضَ، وقال له: أيها الخان Can، أنائمٌ أنت؟ إن الله الحي قد بعثني إليك، وهذه مشيئته، أن تذهب أنت إلى الأقوام السّبعة وتخبرهم بأنك ستصبح إمبراطورهم. لأنك ستفتح الأراضي والبلاد الواقعة حولك، وهؤلاء الذين سيمضون معك سيكونون تحت سيطرتك، كما كنت أنت تحت سيطرتهم، وتلك هي إرادة الله الحي.

---

(1) أكتب الاسم هنا جنگيز على طريقة الرّسم العثماني القديم، وهكذا يُكتب الاسم عادة في العربيّة: جنكيز، ومثله أيضاً اسم هولاگو (هولاكو). وهنا اضطررت مرغماً إلى عدم كتابته بغين موسومة بثلاث نقاط، جرياً على القاعدة التي اصطلحتُ عليها في هذه السلسلة لكتابة حرف الجيم اللهويّة. وهذا مثال على صعوبة إقرار طريقة موحدة في التعبير عن الحرف، بعد مئات من السنين اعتادت بها العين على رؤيته مكتوباً بصورة مغايرة.

وعندما كان اليوم التالي، نهض جنگيز Changuys، وذهب إلى الأقوام السّبعة، وأخبرهم بما قاله الفارس الأبيض. فاستهزؤوا به، وقالوا عنه إنه أحمق. وغادر من بينهم وهو خجل جداً. وفي الليلة التالية، جاء هذا الفارس الأبيض إلى الأقوام السّبعة وأمرهم بالنيابة عن الله الحي، أنّ عليهم أن يجعلوا من جنگيز Changuys هذا إمبراطوراً عليهم، وأن يكونوا كلهم طاعة، وأن يستولوا على المناطق الأخرى التي حولهم كما فعلوا أولئك بهم في السّابق. ولما كان الغد، اختاروه إمبراطوراً عليهم. وأجلسوه على مقعد fertre أسود، ورفعوه بإجلال كبير ووضعوه على كرسي من ذهب وأبدوا له كل الاحترام، وسمّوه «خان»، كما سمّاه الفارس الأبيض.

وعندما تم اختياره بهذا الشّكل، فكّر فيما إذا كان يمكنه أن يثق بهم أم لا، وفيما إذا كانوا سيغدون له طائعين أم لا. وبعدها سنّ الكثير من الشرائع والقوانين التي سمّوها ياسا[1] خان *Yasa Chan*. التشريع الأول كان أنّ عليهم أن يؤمنوا بالله الحي، القادر، الذي ينجيهم من الكرب، وأن يدعوه دائماً ليساعدهم في المحن. وكان التشريع الثّاني، أنه ينبغي إحصاء جميع الرّجال القادرين على حمل السّلاح، وأن يُعيّن على كل عشرة رئيس، وعلى كل مئة رئيس، وعلى كل ألف رئيس، وعلى كل عشرة آلاف رئيس. وبعد ذلك أمر كبار الأقوام السّبعة، بأن يتركوا ويهجروا كل ما لديهم من أموال وأملاك، ومنذ ذلك الحين فصاعداً سيقوم بالدّفع لهم لأجل ذلك وسيعطيهم من كرمه. فنفّذوا ذلك حالاً. ثم أمر كبار الأقوام السّبعة، أن يحضروا أبناءهم البكور ليمثلوا أمامه، وأن يضربوا رؤوسهم بأيديهم دون أي تلكؤ. وفوراً نُفّذت كل أوامره.

وعندما رأى الخان أنهم لم يضعوا أيّة عوائق في تنفيذ أوامره، عندها وقر في ظنّه أنه يمكنه الوثوق بهم، وأمرهم أن يستعدوا حالاً للسّير تحت لوائه. وبعد ذلك، وضع الخان كل الأراضي المحيطة تحت سيطرته.

وبعد ذلك، حدث في أحد الأيام أن مضى الخان مع حاشية قليلة لتعزيز قوّة بلد

---

(1) في اللغة التركية بالقرون الوسطى كانت تستخدم عبارة yasak بمعنى: القانون والدّستور، وهي في التركية الحديثة تعني أيضاً: الممنوع، المحظور. والمصدر واحد.

كان قد ظفر به. وهذا ما جرى: واجهه عدد كبير من الأعداء، وليظهر مثالاً جيداً عن الشّجاعة لشعبه، كان هو أول من بدأ بالقتال، وفي منتصف الالتحام مع الأعداء سقط عن جواده، وقُتل حصانه. وعندما رآه قومه على الأرض، ارتبكوا جميعهم وظنوا أن قد مات، فهربوا بأسرهم وأعداؤهم خلفهم يلاحقونهم، ولم يدركوا أن الإمبراطور كان هناك. وعندما كان الأعداء يلحقون بالفارّين، اختبأ الإمبراطور في غابة كثيفة. وعادوا ثانية من المطاردة، وأخذوا يبحثون في الغابة إذا ما اختبأ أحد منهم في الغابات الكثيفة؛ ووجدوا الكثيرين فقاموا بذبحهم فوراً. وما حدث أنهم فيما اتجهوا للبحث في المكان الذي اختبأ فيه الإمبراطور، وجدوا بومة تجلس على الشّجرة فوقه؛ فكانوا يقولون فيما بينهم: لا يوجد أحد هنا، لأنهم يجدون الطّير هناك، ثم ذهبوا في طريقهم؛ وهكذا نجا الإمبراطور من الموت.

ثم مضى متخفياً طوال الليل، حتى وصل إلى قومه الذين فرحوا كثيراً بقدومه، وتوجهوا بالشكر الكبير لله الحيّ، ولذلك الطّائر الذي بفضله نجا سيدهم. لذلك وعلى رأس كل الطّيور في العالم قدّسوا البوم؛ وإذا حصلوا على ريشة منه، احتفظوا بها كالنفائس بدلاً من الذّخائر، ووضعوها فوق رؤوسهم باحترام كبير؛ فهم يحافظون على أنفسهم مباركين وسالمين من كل خطر بينما يضعون هذه الرّيشة على رأسهم[1]، لذلك يحملون ريش البوم على رؤوسهم.

بعد كل هذا استعدّ الخان، وجمع شعبه، ومضى إلى أولئك الذين أغاروا عليه سابقاً ومزّق شملهم، ووضعهم تحت سيطرته وهيمنته. وبعدما انتصر ووضع كل البلاد الواقعة في هذا النّصف في جبال بيليان Mount Belian تحت سيطرته، جاءه الفارس الأبيض مرّة أخرى في منامه، وقال له: أيها الخان! إنّ إرادة الله الحي أن تعبر جبال بيليان. وإنك سوف تحتل الأراضي وتضع أمماً كثيرة تحت سيطرتك، ولأنك لا تجد ممراً جيداً للوصول إلى تلك البلاد، فعليك أن تذهب إلى جبل بيليان الواقع فوق البحر، وأن تسجد هناك تسع مرّات باتجاه الشّرق عبادةً لله العظيم، وسوف يريك

---

(1) من هنا إذن أتى المثل الدّمشقي: ما حدا على راسه ريشة.. أي كل إنسان سيدركه الموت حتماً.

الطّريق الذي ستسلكه. وهذا ما فعله الخان، وحالاً بدأ البحر الذي يلمسه والمتاخم للجبل بالانسحاب أمامه، ورأى طريقاً جيداً عرضه تسعة أقدام؛ وهكذا عبر مع قومه، وحصل على أراضي كاثاي وهي أعظم مملكة في العالم.

ولأجل التسع سجدات وعرض الطّريق التسع أقدام، فقد أجلّ الخان وكل التّاتر العدد تسعة. ولذلك فمن أراد أن يقدّم للخان هدية، سواء كانت خيولاً، أو طيوراً، أو سهاماً وأقواساً، أو فاكهة، أو أيّ شيء آخر، كانوا يجعلون عددها دائماً تسعة[1]. وكان يسرّ بتلك الهدايا ويتسلّمها بلطف أكبر من تلك التي تقدّم بالمئة والمئتين. فبالنسبة له العدد تسعة مقدّس جداً، لأن رسول الله العظيم أوصاه به.

وأيضاً، عندما ظفر خان كاثاي ببلاد كاثاي، وضمّها إلى سيطرته بالإضافة إلى بلاد أخرى كثيرة حولها، وقع مريضاً. وعندما شعر يقيناً أنه سيموت، قال لأبنائه الاثني عشر إنه على كل واحد منهم أن يحضر أحد سهامه، فنفّذوا ذلك فوراً. وأمرهم أن يقوموا بربطها مع بعضها في ثلاثة مواضع. ثم أعطاها لابنه الأكبر، وطلب منه أن يكسرها، لكنه لم يستطع. ثم طلب من ابنه الثّاني أن يكسرها؛ وهكذا، باختصار، طلب منهم جميعاً واحداً تلو الآخر، ولم يتمكن أحد منهم أن من كسرها. وبعد ذلك طلب من ابنه الأصغر أن يفصلها عن بعضها، وأن يكسر كلاً منها على حدة بنفسه. وهذا ما فعله. ثم قال الخان لابنه الأكبر والآخرين جميعهم: لماذا لم تتمكنوا من كسرها جميعها؟ وأجابوا لم نتمكن لأنها كانت متماسكة بشدة. ولماذا، سأل، تمكن أخاكم الصّغير من كسرها؟ أجابوا: لأنها كانت متفرقة بعضها عن بعض. وعندها قال الخان: يا أبنائي، هذا تماماً ما يحدث لكم. كلما كنتم مترابطين مع بعضكم في مواضع ثلاثة، وهي الحب والصّدق والائتلاف الجيد، لن يملك أحد القوة ليتغلب عليكم. ولكن إذا تفرقتم من هذه المواضع الثّلاثة، ولم يساعد الواحد

(1) يروي لنا المملوك صارم الدّين أوزبك الأشرفي، أحد مماليك الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص، تفاصيل ممتعة عن مثوله بين يدي قان التّتار هلاون (هولاگو) حفيد جنگيز خان أثناء نزوله على حلب، ويذكر تقدمة «الطقزات»، أي أصناف الهدايا التسعة من مأكول ومشروب ومشموم وملبوس ومركوب.. إلخ. وعبارة طُقُز dokuz في التركية تعني الرقم تسعة. انظر كتاب: «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى» في هذه السّلسلة.

منكم الآخر، ستدمرون ويقضى عليكم. وإذا أحبّ كل منكم الآخر وساعده، ستسودون وتحكمون الآخرين. ومات بعدما أنهى نصائحه[1].

وحكم من بعده جوتشي[2] Ecchecha Cane، ابنه الأكبر. ومضى إخوته لضمّ الكثير من البلاد والممالك، حتى وصلوا إلى أراضي پروسيا وروسيا، وأطلقوا على أنفسهم اسم خان Chane؛ وكانوا كلهم طاعة لأخيهم الأكبر، ولذلك سمّي الخان الأعظم.

وبعد جوتشي Ecchecha حكم گويوك[3] خان Guyo Chan.

وبعده مُنگو[4] خان وكان مسيحياً صالحاً وتمّ تعميده، وأصدر أوامر بالأمان الدائم لكل المسيحيين، وأرسل أخاه هلاوون[5] Halaon مع عدد كبير من النّاس لضم الأراضي المقدّسة ولوضعها تحت يد المسيحيين، وللقضاء على تشريع مغاير، وليهزم الخليفة في بغداد الذي كان إمبراطوراً وسيداً على كل المسلمين. وهكذا هزم هذا الخليفة[6]، الذي كان النّاس يقدرونه كثيراً، في كل أنحاء العالم، ولا يمكن أن يجدّ المرء شخصاً أكثر وقاراً منه، ولا أعلى شأناً. وعندما جعله هلاوون Halaon يمثل أمامه، سأله: لماذا لم تتّخذ جنوداً أكثر وعدداً كافياً من الرّجال، لقاء بعض المال، ليقوموا بالدفاع عنك وعن بلادك، الغنيّة بالثروات وذات المقام الرّفيع؟ فأجابه الخليفة، بأنه كان يعرف تماماً أن لديه ما يكفي من الرّجال الأكفياء. وعندها قال هلاوون: لقد كنتَ كإله للمسلمين، ومن الجدير بالإله ألا يأكل طعام البشر. لذلك فإنك لن تأكل إلا

---

(1) القصّة ترد بحذافيرها في تراثنا العربي منسوبة إلى أكثم بن صيفي.

(2) الاسم في التترية: Jochi.

(3) الاسم في التترية: Güyük.

(4) الاسم في التترية: Möngke.

(5) المقصود به هولاگو خان التّتار الشهير، الذي اجتاح المشرق الإسلامي في عام 1258 م ودمّر بغداد دار الخلافة العبّاسيّة. وهذا الاسم هلاوون كان يسمّى به حقاً باللهجة التّتريّة، وهكذا يرد في قصة المملوك صارم الدّين أوزبك.

(6) كان الخليفة العبّاسي آنذاك المستعصم بالله ابن المستنصر بالله، حكم بين 1242-1258 م وبمقتله انتهت الخلافة العبّاسيّة، غير أنّ التّتار لقوا بعدها هزيمة نكراء على أيدي المماليك في معركة عين جالوت الفاصلة عام 1260 م بقيادة المظفّر قُطُز.

الأحجار الكريمة، والآلئ النّفيسة والكنوز، التي تحبّها كثيراً. ثم أمر به إلى السّجن، وكل ثرواته التي له. وهكذا مات جوعاً وعطشاً. وبعد ذلك، ظفر هلاوون بكل أراضي الميعاد، ووضعها تحت يد المسيحيين. ولكن الخان الأعظم، أخاه، مات؛ وكان ذلك حزناً عظيماً وخسارة كبيرة لكل المسيحيين.

وبعد منگو خان حكم قُبلاي[1] Cobyla وكان أيضاً مسيحياً. وحكم مدة اثنتين وأربعين سنة. وأنشأ مدينة إيزونغ Izongc العظيمة في كاثاي، التي كانت أكثر عظمة بكثير من روما.

والخان الأعظم التالي الذي جاء بعده أصبح وثنياً Paynim وكل الذين جاؤوا بعده.

ومملكة كاثاي هي أعظم مملكة في العالم. وأيضاً الخان الأعظم هو الإمبراطور الأكثر قوة في العالم، والحاكم الأعظم تحت هذه السّماء. وهذه هي الصّفات التي يطلقها على نفسه في رسائله:

Chan! Filius Dei excelsi, omnium universam terram colentium summus imperator, & dominus omnium dominantium!

والكلمات المكتوبة على ختمه الكبير:

Deus in coelo, Chan super terram, ejus fortitudo. Omnium hominum imperatoris sigillum.

وهذا ما كُتب على ختمه الصّغير:

Dei fortitudo, omnium hominum imperatoris sigillum.

ومع أنّهم ليسوا مسيحيين، فإن الإمبراطور وكل التّتار مؤمنون بالله الحيّ. وإذا أرادوا القسم لأحدهم قالوا له: إن الله يعرف تماماً أنني سأقوم بفعل هذا لك، ويقولون قسمهم.

وهذا ما قد سمعتموه سبب تسمية الخان الأعظم.

---

(1) الاسم في التربية: Kubilai.

الفصل الخامس والعشرون

عن الحراسة في قصر الخان الأعظم، وعندما يقومون باحتفال مهيب وعن حكمائه، وعن حاشيته عندما يجوب في البلاد

سأخبركم الآن عن الحراسة في قصر الخان الأعظم، عندما يقوم باحتفال مهيب؛ وهذا أساساً يقام أربع مرات في السّنة.

الاحتفال الأول بمولده، والثّاني بحضوره إلى المعبد الذي يسمّونه «المسجد» Moseache، حيث يقومون بشيء كالختان، واحتفالين آخرين لأوثانه. أول احتفال لوثنه عندما يوضع أول مرة في معبدهم ويتوّج؛ والاحتفال الثّاني عندما يبدأ بالكلام، أو يقوم بمعجزة ما. ولا يوجد احتفالات أخرى مهيبة، إلا إذا قام بتزويج أيّ من أبنائه.

والآن من الواضح أنه في كل هذه الاحتفالات يكون لديه عدد كبير من النّاس، منظمين ومكتسين بشكل جيد، بالآلاف والمئات والعشرات. وكل شخص يعرف تماماً ما الذي سيقوم بفعله، وكل شخص يعطي انتباهاً جماً وحضوراً جيداً لما يقوم به من عمل حتى لا يجد أحد أي خلل. ويكون أول المصطفين 4000 سيّد، ذوي شأن وجاه، ليقوموا بالتنظيم والسّيطرة على الحفل، ولخدمة الإمبراطور. وهذه الاحتفالات المهيبة تقام في الخارج في قاعات وخيم مصنوعة من القماش المنسوج من الذهب ومن القماش التتري، بفخامة متناهية. وعلى رؤوس هؤلاء السّادة تيجان من الذهب، فخمة وباذخة، وعليها أحجار كريمة ولآلئ متألقة. ويلبسون جميعهم ثياباً من الذهب والقماش التتري (الطرطان) tartarins والكمخة camakas، مترفة جداً

ولائقة جداً، بحيث ليس بإمكان أحد في العالم أن يعدّلها أو يصنع أفضل منها. وكل هذه الأثواب مزركشة الأهداب، ومرصّعة بالأحجار الكريمة واللؤلؤ الشّرقي، بفخامة بالغة. ومن الممكن أنهم يقومون بذلك، لأن الملابس المصنوعة من الذهب والحرير هي هناك أرخص بكثير من الملابس المصنوعة من الصّوف. وهؤلاء الأربعة آلاف سيّد مقسمون إلى أربع فرق، كل ألف منهم يرتدون ثياباً بلون واحد، بمنتهى التنظيم والفخامة، وذلك المنظر شديد الرّوعة.

الألف الأول، يتألف من الدوقات والنّبلاء والماركيزات[1] والأمراء، جميعهم يلبسون ثياباً من الذهب فيها نسيج حريري أخضر اللون، ويحيط بأهدابها الذهب والأحجار الكريمة كما ذكرت مسبقاً. الألف الثّاني يرتدون ثياباً مزينة بالحرير الأحمر، مزخرفة بالذهب، ووضعت على الزّركشات لآلئ كبيرة وأحجار كريمة، مزينة بشكل فخم تماماً. والألف الثّالث يرتدون ملابس حريرية ذات لون أرجواني أو هندي. والألف الرّابع يلبسون ثياباً بلون أصفر. وثيابهم كلهم فخمة جداً ومرصعة بترف بالذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ، ولو أن رجلاً من هذه البلاد كان يملك ثوباً واحداً من ثيابهم، لأمكنه القول إنه لن يكون فقيراً أبداً؛ لأن الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ الشّرقي الكبير أثمن بكثير في هذا النّصف من البحر من النّصف الثّاني من البحر في تلك البلاد.

وبعدما يلبسون بهذا الشّكل، يسيرون اثنين اثنين، بنظام كامل، من أمام الإمبراطور، دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة، فقط ينحنون له. وكل منهم يحمل طبقاً من اليشب أو العاج أو الكريستال، ويسير العازفون قبلهم، يعزفون بآلاتهم أنغاماً متنوعة. وعندما يمرّ الأف الأول بهذا الشّكل حتى آخرهم ويتمّون عرضهم، ويخرجون من ذلك الجانب؛ يدخل الألف الثّاني، ويقومون بالشيء ذاته، بنفس التنظيم الهدوء، كما فعل الذين قبلهم؛ وبعد ذلك، الألف الثّالث، فالرابع؛ ولا أحد منهم يتلفوّه بأيّة كلمة.

وعلى أحد جوانب طاولة الإمبراطور يجلس الكثير من الفلاسفة المشهود لهم

---

(1) طبعاً هذه الألقاب أوروبيّة، ولا علاقة لها ببلاط خان التّتار.

بالحكمة بمختلف العلوم، مثل الفلك والسّحر والهندسة والكهانة بالنّار pyromancy والكهانـة بالمـاء hydromancy والتنبـؤ، وغيرها مـن العلوم. وكل منهـم يضع أمامه أسـطرلاباً مـن الذهـب، والبعـض مجسّمات كرويـة، والبعـض جماجـم لأمـوات، والبعـض أوانٍ ذهبية مملـوءة بالحصى أو الرّمـل، والبعض أوانٍ ذهبيـة مملوءة بفحم محتـرق، والبعـض أوانٍ ذهبيـة مملـوءة بالمـاء والخمـر والزّيـت، والبعض سـاعات ذهبيـة horologes، فخمـة الصّنع ومرصّعة بترف، وأدوات أخرى مختلفة كل حسـب اختصاصه.

وفي موعد محدد، عندما يعتقدون أنه الوقت المناسـب، يطلبون إلى بعض الضباط الذين يقفون إلى جانبهم، بانتظار أوامرهم: افرضوا الصّمت!

وهنا يقول الضباط؛ صمتاً الآن، اسمعوا!

وبعـد ذلك يقـول أحد الفلاسـفة؛ ليقم الجميـع بالإجلال والانحنـاء للإمبراطور، ابـن اللـه والحاكم المسيطر على كل العالم! حـان الوقت الآن! فيقـوم الجميع بحني رؤوسهم باتجاه الأرض.

ثم يأمرهم الفيلسوف نفسه ثانية: وقوف! فيقومون بذلك.

وفي سـاعة أخرى، يقول فيلسـوف آخر: ضعوا إصبعكم الصّغير في آذانكم، وفوراً يقومون بذلك.

وفي ساعة أخرى يقول فيلسوف آخر: ضعوا أيديكم على أفواهكم! فيقومون بذلك حالاً.

وفي سـاعة أخرى يقول فيلسـوف آخر: ضعوا أيديكم على رؤوسـكم! وبعد ذلك يطلب منهم إبعاد أيديهم. فيفعلون ذلك.

وهكذا، من سـاعة لأخرى، يأمرونهم بفعل أشياء محدّدة؛ ويقولون إن هذه الأشياء ذات دلالات مختلفـة. وسـألتهم على انفـراد ما هي دلالة هذه الأشـياء. فأجابني أحد السّـادة بـأن إحناء الرّأس في تلك السّـاعة يـدل على الآتي: أن كل أولئـك الذين حنوا

رؤوسهم يجب أن يكونوا للأبد خاضعين ومخلصين للإمبراطور، وألا يتواطؤوا أبداً مع أيّ كان ليغدروا أو يخونوا الإمبراطور في السّرّاء والضرّاء. ووضع الإصبع الصّغير في الأذن يدل، كما يقولون، أن أحداً منهم لن يسمع كلاماً أو أشياء سيئة تقال بحق الإمبراطور، وأنه سيقوم فوراً بنقلها إلى مستشاره أو يطلع عليها شخصاً سيقوم بإيصالها إلى الإمبراطور، حتى ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه. وهكذا دواليك، حول كل الأشياء الأخرى التي يقوم بها الفلاسفة، أخبروني عن أسباب أشياء كثيرة مختلفة. وأنا واثق تماماً من أن كل شخص يقوم بشيء للإمبراطور حتى فيما يخصّه، سواء في ملبسه أو طعامه أو شرابه أو استحمامه أو أي شي آخر يتعلق به، يقوم به في موعد محدّد وضعه له حكماؤه.

وإن نشبت حرب في أي بقاع الإمبراطور، يأتي الفلاسفة فوراً ليدلوا بنصائحهم بعد حساباتهم، وينصحوا الإمبراطور حسب علومهم؛ ولذلك لا يقوم الإمبراطور بأي شيء دون مشورتهم.

وبعد أن ينتهي الفلاسفة من إصدار جميع أوامرهم، يقوم الموسيقيون بتقديم معزوفاتهم، كلٌّ على آلته، واحد تلو الآخر، من كل المعزوفات التي يعرفونها. وبعد أن يعزفوا لفترة لا بأس بها، يقوم أحد ضباط الإمبراطور بالصعود على منصة عالية مزخرفة بدقة، ويصرخ قائلاً بصوت عال: هدوء! وعندها يصمت الجميع.

بعد ذلك، يكون كل السّادة الذين من ذرّية الإمبراطور، مرتدين ثياباً مُترفة من الذهب ومكتسين بملكية كاملة، على جياد بيضاء، بكامل العدد الذي لديه في ذلك الوقت، ويستعدّون ليقدموا هديتهم للإمبراطور. ثم يقول وكيل القصر للسادة، بالاسم، فلان ابن فلان! ويسمي أولاً الأكثر نبلاً والأعلى شأناً باسمه، ويقول: استعدّ بهذا العدد من الخيول البيضاء، لخدمة الإمبراطور، سيّدكم الحاكم! ولسيد آخر يقول: فلان ابن فلان، استعدّ بهذا العدد من الخيول البيضاء، لخدمة الإمبراطور، سيّدكم الحاكم! والآخر كذلك أيضاً، ولكل السّادة من ذرّية الإمبراطور، واحداً تلو الآخر، حسب مرتبتهم.

وبعد أن ينادى عليهم كلهم، يدخلون الواحد تلو الآخر، ويقدّمون الخيول البيضاء للإمبراطور، ويمضون في طريقهم. ثم من بعدهم، يأتي كل البارونات، ويقدّمون الهدايا أو المجوهرات أو أشياء أخرى، حسب مكانتهم. ويليهم بعد ذلك، أساقفة دياناتهم، ورجال الدّين وغيرهم؛ وكلٌّ منهم يقدّم له شيئاً. وبعد أن يقدّم الجميع هداياهم للإمبراطور، يقوم أعظم الأساقفة مكانة بمباركته ويتلو بعض الصّلوات الخاصة بديانتهم.

وبعدها يقدّم الموسيقيون معزوفاتهم على مختلف الآلات الموسيقية بكل الألحان التي يعرفونها. وعندما ينهون تقديم حرفتهم، يحضرون بين يدي الإمبراطور أسوداً وفهوداً وحيوانات أخرى مختلفة، ونسوراً وصقوراً وطيوراً مختلفة، وأسماكاً وأفاعيَ، لتقدّم تبجيلها له. ثم يأتي المشعوذون والسّحرة، ويقدّمون أشياء كثيرة مذهلة؛ فمثلاً يأتون بالرّيح، وتبدو، الشّمس والقمر بادية لعيان الجميع. وبعد أن يحضروا ليلاً دامساً بحيث لا يمكن لأي أحد أن يرى شيئاً، يجعلون النّهار يطلع من جديد، نهاراً جميلاً ومشرقاً بأشعة الشّمس، ويبدو ذلك في نظر الجميع.

ثم يعرضون رقصات من قبل أجمل الفتيات في العالم، بأبهى حللهن. ويُظهرون آنسات أخريات يحضرن أكواباً ذهبية معبأة بحليب حيوانات مختلفة، ويقدّمنها للسادة والسّيدات. وبعد ذلك يجعلون فرساناً يقدّمون مبارزات بالأسلحة مشوقة جداً؛ ويتراكضون عشوائياً، ويتعاركون بعنف، ويكسرون رماحهم بعنف شديد وتتطاير شظايا الهراوات في أرجاء القاعة. ثم يقدّمون مشاهد صيد لأيائل وخنازير برّية، وتظهر كلاب الصّيد تركض فاغرة أفواهها. ومشاهد أخرى كثيرة يقدّمونها بفضل براعة سحرهم، والتي من الشائق جدّاً رؤيتها. وتستمرّ مشاهد اللهو تلك حتى تنعقد المجالس.

والخان الأعظم هذا لديه عدد كبير من النّاس لخدمته، كما أخبرتكم من قبل. ولديه من العازفين حوالي الثّلاثة عشرة مجموعة curnants، ولكنهم لا يتواجدون دائماً معه. لأن كل العازفين الذين يمثلون أمامه، ومهما كان أصلهم، يقيمون لديه كما أفراد

أسـرته، ويُدرجون في سـجلاته كما لو كانوا من أفراد عائلته. وبعد ذلك، أينما ذهبوا، يبقـى لقبهم موسـيقيي الخان الأعظم؛ وتحت ذلـك اللقب، يؤثرهم الملـوك والنّبلاء بالهدايا وبكل شيء. ولذلك لديه منهم عدد كبير.

ولديـه أشـخاص محددون بمثابـة الموظفين، وهـم يعتنون بالطيور مثـل النّعامات والصّقـور الكبيرة والصّغيرة والبواشـق والبُزاة والشّـواهين، والببغاوات التي تحسـن الـكلام، والطّيور المغردة، وأيضـاً الحيوانات البرّية، مثل الفيلة المروضة والسّـعادين والقرود والقرود الصّغيرة وحيوانات أخرى متنوعة؛ ويصل عددهم إلى خمسـة عشرة موظفاً.

ولديه من الأطباء المسـيحيين 200 طبيب، ومن الجرّاحين المسـيحيين 210، ومن الأطبـاء والجرّاحين المسـلمين عشـرون، ولكنه يثـق بالجراحين المسـحيين أكثر من المسـلمين. وعـدد أفراد منزله الآخريـن لا يمكن تقديره، ولوجودهـم جميعاً ضرورة والإمبراطـور بحاجـة إليهم في قصره. ولديـه في قصره الكثير مـن البارونات[1] بصفة مرافقين، وهم مسيحيون إيمانهم عميق نظراً لعظات رجال الدين المسيحيين القاطنين معه؛ ولكن يوجد آخرون كثر، لا يعرف النّاس أنهم مسيحيون.

وينفـق هـذا الإمبراطور بالقدر الذي يشـاء دونما أيّ تقييم؛ لأنـه لا ينفق ولا يصك نقـوداً، فقـط يستخدم الجلود المطبوعـة أو الأوراق. ولبعـض تلك النّقـود قيمة أكثر من غيرها أو أقل، حسـب اختلاف تشريعاته. وعندما تتداول هـذه النّقود لفترة طويلة وتبـدأ بالاهتـراء، يحملونها إلى خزينـة الإمبراطور ويأخذون نقـوداً جديدة بدلاً منها. وتتـداول هـذه الأموال في كل أنحاء البلاد وكل مقاطعاته، لأنه في البلاد المحيطة بهم لا يصكّـون النّقـود ولا حتى من الذهب أو الفضـة؛ وبذلك ينفق كفايـة وبإفراط. ومن الذهـب والفضة التي يملكها النّاس في بلاده يقوم بعمل الأروقة والأعمدة والممرّات في قصره، وأشياء أخرى حسب رغبته.

---

(1) هذا لقب أوروبي، لا علاقة له ببلاط خان التّتار.

وتوجد في غرفة هذا الإمبراطور، على أحد الأعمدة الذهبية، ياقوتة وعقيقة بطول نصف قدم، تصدر في الليل وهجاً وألقاً شديداً، كضوء النّهار. ولديه العديد من الأحجار الكريمة الأخرى والكثير من الياقوت والعقيق؛ لكن هاتين الأكبر والأثمن بينها.

يقيم الإمبراطور في الصّيف في مدينة باتجاه الشّمال تسمّى سادوز Saduz؛ وهي باردة بشكل لطيف. وفي الشّتاء يقيم في مدينة تسمى كاماليتشي Camaaleche، وهي بلاد دافئة. ولكنه غالباً مايقيم في بلاد غايدو Gaydo أو جونغ Jong، وهي بلاد خصبة ومعتدلة، بالنسبة إلى البلاد التي هناك، ولكن بالنسبة لأهل بلدنا تعتبر هذه البلاد حارّة جداً.

وعندما ينتقل الإمبراطور من بلد إلى آخر يعيّن أربع فرق من جيوشه لمرافقته، حيث تغادر الفرقة الأولى قبله بيوم. وتقيم هذه الفرقة الليلة في المكان الذي سيصله الإمبراطور في الغد. ويحمل كل شخص منهم المؤونة اللازمة وكل احتياجاته معه، من مستودعات الإمبراطور. وتتألف هذه الفرقة الأولى من خمسين مجموعة، منهم على الخيول ومنهم على الأقدام، والمجموعة cumant تتكون من 10000 كما أخبرتكم من قبل. والفرقة الثّانية تسير على يمين الإمبراطور، على مقربة مسير نصف يوم منه. والفرقة الأخرى تسير على الجانب الأيسر للإمبراطور، كما سابقتها. وعدد الأفراد في هاتين الفرقتين يساوي عددهم في الفرقة الأولى. وبعدها تأتي الفرقة الرّابعة، وعددها أكبر من كل الفرق السّابقة، وهي تسير خلفه على مسافة غلوة سهم. وكل فرقة تمضي في رحلتها وفق مواقعها المحددة، حيث ستقيم في الليل، ويكون معهم كل ما يمكن أن يحتاجوه. وإن حدث ومات أحد أفراد الفرقة، يضعون أحداً في مكانه فوراً، بحيث يكون العدد كاملاً دائماً.

ولعلمكم، إن الإمبراطور، بنفسه شخصياً، لا يقود جواده كما يفعل كبار السّادة خلفه، إلا إذا رغب في القيام برحلة خاصة مع مجموعة صغيرة، حتى لا يُعرف. وفيما عدا ذلك فهو ينطلق في عربة ذات أربع عجلات، تتوضع فوقها حجرة جميلة، وهي

مصنوعة من خشب محدّد، يأتي من الجنّة الأرضيّة paradise terrestrial، ويطلق النّاس عليها اسم الصَّبر lignum aloes، التي تحملها الفيضانات من الجنّة في مختلف الفصول، كما أخبرتكم من قبل. وهذه الحجرة ذات رائحة جميلة جداً بسبب الخشب الذي صُنعت منه. وهي مغطاة كلياً بطبقة من الذهب الخالص المرصع بالأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة. وتجرها أربعة فيلة وأربعة destriers ضخمة، كلها بيضاء ويكسوها غطاء ثمين. ويسير بمحاذاة العربة أربعة أو خمسة أو ستة من كبار السّادة، يلبسون ثياباً مترفة وفخمة، ولا يسمح لأحد أن يقترب من هذه العربة باستثناء هؤلاء السّادة، أو إذا طلب الإمبراطور أن يتحدّث لأحد الأشخاص.

وفوق حجرة هذه العربة حيث يجلس الإمبراطور وضعت أربعة أو خمسة أو ستة صقور، والهدف من ذلك، أن الإمبراطور إذا رأى أيّ طائر بري فمن الممكن أن يضمّه إلى ممتلكاته، ويلهو ويستمتع بتحليقها، أولاً واحد، ثم اثنان؛ وهكذا يسلّي نفسه خلال رحلته في البلاد. ولا أحد من مرافقيه يسير أمامه، كلهم يسيرون خلفه. ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من العربة على مسافة غلوة سهم، ما عدا هؤلاء السّادة الذين يسيرون حوله. ثم يأتي كل الجيش بعده بأعداد كبيرة.

وثمّة عربة كهذه وفرق كهذه بنفس الترتيب تسير مع الإمبراطورة بالجهة الأخرى، كل على حدة، مع أربعة فرق، كما الإمبراطور تماماً؛ ولكن ليس بعدد كبير من النّاس. وابنه يسلك طريقاً آخر مستخدماً عربة أخرى، وبنفس التفاصيل. وبذلك يكون معهم عدد كبير من النّاس ذكره مدهش حقاً. ولا يمكن لأحد أن يدرك ذلك العدد، حتى يكون قد رآه. وأحياناً يحدث ألا يريد الذهاب إلى مكان بعيد، فعندها يمكن أن يصطحب الإمبراطورة وأبناءه معه، ويمضون معاً، ويجمعون النّاس كلهم سوية، ويقسمونهم إلى أربعة فرق فقط.

ولعلمكم، إمبراطورية الخان الأعظم مقسّمة إلى اثنتي عشرة مقاطعة؛ وكل مقاطعة تضمّ أكثر من ألفي مدينة، وعدد لا يحصى من القرى. إنها بلاد كبيرة جداً، وفيها اثنا عشر ملكاً أساسياً في المقاطعات الاثنتي عشرة، وكل واحد من هؤلاء الملوك يوجد

تحته عدد كبير من الملوك، وكلهم يخضعون للخان الأعظم. وأرضه وهيمنته تمتدّ على مساحات شاسعة، ولا يمكن لامرئ أن يصل من أحد أطرافها إلى الآخر، ولا حتى بالبحر ولا البرّ، فالمسافة تصل إلى السّبع سنوات. وعبر الصّحارى في أراضيه، قد لا يجد النّاس أيّة قرية، ولكن توجد خانات تقع بالترتيب بمسافة مسير يوم، لاستقبال النّاس والخيول، حيث يجدون فيها الكثير من المؤن، وكل ما يحتاجونه في سفرهم.

وتوجد عادة غريبة في تلك البلاد (لكنها مفيدة)، إذا حدثت أيّة معارضة يمكن أن تسيء إلى الإمبراطور أو تضر به بأي شكل من الأشكال، ففوراً تصل هذه الأنباء إلى علم الإمبراطور في غضون يوم واحد، حتى وإن كانت على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام منه أو أكثر من ذلك. لأن سفراءه يأخذون جمالهم العربية أو خيولهم، ويسرعون بها إلى أول خان موجود. وعندما يصلون ينفخون بالبوق، وفوراً يعرف الذين في الخان أن هناك أنباءً لتحذير الإمبراطور من وجود بعض الثّائرين ضده. وبالحال يجهّزون رجالاً، بالسرعة الممكنة، لحمل الرّسائل، وينطلقون بالسرعة القصوى، حتى يصلون إلى الخان التالي مع الرّسائل. ويقوم رجال آخرون بالاستعداد لينطلقوا فوراً إلى الإمبراطور، والحامل الأخير للرسالة يرتاح عنده هو وجمله أو خيله. وهكذا، فمن خان إلى خان، حتى تصل إلى الإمبراطور.

وبهذه الطّريقة فإن أيّة أنباء مستعجلة لدى أحد عن أيّ شيء ذي أهمية، بواسطة سعاته، تعبر بسرعة فائقة في جميع أنحاء البلاد. وأيضاً عندما يرسل الإمبراطور مراسليه على جناح السّرعة في كل أرجاء أرضه، يحمل كلٌّ منهم معه عدداً كبيراً من الأجراس الصّغيرة، وعندما يقتربون من الخان حيث يوجد سعاةٌ آخرون مكلفون برحلات، يقرعون أجراسهم، وفوراً يستعد السُّعاة الآخرون للمضيّ نحو خان آخر. وهكذا من خان إلى آخر، بسرعة فائقة وخفة، حتى ينفّذ أمر الإمبراطور، بالسرعة القصوى. ويسمّى هؤلاء السّعاة *Chydydo*، حسب لغتهم والتي تعني الرّسول[1].

---

(1) كان التّتار في القرون الوسطى أفضل من اعتنى بتسيير البريد في الأقاليم، ولا ريب أنّه لعب دوراً أساسياً في انتصاراتهم العسكريّة الواسعة. حتى أنّ المشرق العربي في عصر الأيوبيين

وأيضاً عندما يذهب الإمبراطور من بلد لآخر، كما أخبرتكم آنفاً، عندما يمرّ من المدن والقرى، يقوم كل شخص بإضرام نار أمام بابه، ويضع فيها مسحوق أصماغ جيدة لتعطي رائحة عطرة، لتكون مميّزة للإمبراطور. وكل النّاس يركعون مقابله، ويقدّرونه بشدة. وهناك، حيث يقيم رجال الدين المسيحيون، كما يفعلون في مدن كثيرة في البلاد، يسيرون أمامه في موكب يحملون معهم صليباً وماء مقدّساً، وينشدون: *Veni creator spiritus!* بصوت عال، ويتجهون نحوه. وعندما يسمعهم، يأمر السّادة مرافقيه بالسير بمحاذاته، فمن الممكن أن يأتي رجال الدين إليه. وعندما يصبحون على مقربة منه، يدني قبعته galiot الموضوعة على رأسه بشكل إكليل، ومصنوعة من الذهب والحجارة الكريمة واللآلئ الكبيرة، وهي فخمة جداً، ويثمّنها النّاس بقيمة مملكة في تلك البلاد. ويركع للصليب. ثم يقوم أسقف رجال الدين بتلاوة صلوات معيّنة أمامه، ويمنحه المباركة بالصّليب؛ وينحني لتلك المباركة بخشوع تام. ثم يقدّم له الأسقف نوعاً من الفاكهة، يصل عددها إلى تسعة، على طبق من فضة، من الأجاص والتفاح، وفاكهة غيرها. ويأخذ واحدة منها. ثم يقدّمون للسادة الذين حوله. حيث أن العادة هي كذلك، لا يمكن لأي غريب أن يدنو منه، إلا إذا قدّم له شيئاً، حسبما ورد في الدّين القديم[1]:

Nemo accedat in conspectu meo vacuus.

وبعدها يقول الإمبراطور لرجال الدين، الذين يتراجعون للخلف، إنه لن يصيبهم أذى من عدد الخيول الكبير التي وراءه. وأيضاً، يقوم رجال الدين الذين يقطنون هناك بعمل الشّيء ذاته مع الإمبراطورة حين تمرّ بينهم، وكذلك لابنه الأكبر. ولكل منهما يقدمون الفاكهة.

ولعلمكم، أن النّاس الذين يتخذ منهم جيوشاً لجبة، ويحيطون به وبزوجاته وأبنائه،

والمماليك كان يصطلح على تسمية ساعي البريد بالططري. وانظر ما يرويه الرّحالة الأميركي أ. لوكر في كتابه «مع الهلال والنجم» في هذه السلسلة.

(1) يقصد بالدّين القديم اليهوديّة.

لا يقيمون معه بشـكل دائم. ولكنه عندما يرغب، يرسـل في طلبهم. وبعد أن ينتهوا من واجبهم، يعودون إلى بيوتهم. باسـتثناء أولئك الذين يقيمون في قصره لخدمته وخدمة أزواجه وأولاده ولحراسـة بيته. وإن يكن غادر البعض بعد تنفيذهم مهمتهم، فلا يزال معـه باسـتمرار في القصر 50,000 شـخص مـن الخيالـة و200,000 من المشـاة، غير الموسيقيين والذين يعتنون بالحيوانات والطّيور، الذين أخبرتكم عن عددهم من قبل.

لا يوجد تحت قبّة السّـماء حاكم بهذه العظمة، ولا القوة، ولا الغنى كما هو الخان الأعظم؛ ولا حتى يوحنّا الكاهن Prester John إمبراطور الهند العليا، ولا سلطان بابل، ولا إمبراطـور الفـرس. كل هؤلاء لا يمكـن مقارنتهم بالخان الأعظـم، ولا بالقوة ولا بالفخامة ولا الملكية ولا الترف؛ لأنه في كل تلك الأشـياء تفوّق على كل الأمراء على الأرض. لكن الأذى الكبير كان عدم إيمانه العميق بالله. ومع ذلك فهو يسـتمع بسرور للكلام عن الله. ويوجد الكثيرون من المسيحيين المقيمين في بلاده، والأشخاص من أتباع ديانته يمكن أن يصبحوا مسيحيين إن رغبوا في ذلك، في كل أنحاء بلاده؛ فهو لا يمنع أحد من اتباع الدّين الذي يريد.

فـي تلك البلاد بعـض الرّجال لديهـم مئة زوجـة، وبعضهم سـتون، وبعضهم أكثر وبعضهـم أقـل. وهم يتّخـذون من قريباتهـم أزواجـاً لهم، باسـتثناء أمهاتهـم وبناتهم وأخواتهـم مـن أمهاتهم، أما أخواتهم مـن آبائهم من امرأة أخرى غيـر أمهم فيمكن أن يتزوجوا منها، وأيضاً نساء إخوانهم بعد موتهم، وأمهات زوجاتهم أيضاً.

* * *

الفصل السّادس والعشرون

عن أديان وعادات التّتار القاطنين في كاثاي
وما الذي يقومون بفعله عند وفاة الإمبراطور، وكيف يتم اختياره

يرتدي الناس في تلك البلاد ثياباً طويلة بلا وبر. ويرتدون ملابس مصنوعة من القماش التتري النّفيس، وأقمشة من الذهب. ولثيابهم شق طولي على الجانب، وتزرّر بواسطة أشرطة حريرية. ويلبسون أيضاً pilches[1]، وبلا جلد؛ ولا يرتدون لا أغطية للرأس ولا قلنسوات. ولباس النّساء شبيه بلباس الرّجال، فلا يمكن التمييز بين الرّجل والمرأة، فقط النّسوة المتزوجات يحملن إشارة قدم الرّجل على رؤوسهن، كدلالة على أنهن تحت قدم رجل ويخضعن له.

ولا تسكن الزّوجات مع بعضهن، بل كل واحدة بمفردها؛ ويمكن للرجل أن يضطجع مع التي تروق له منهن. ولكل منهم بيته الخاص به، الرّجال والنّساء، وبيوتهم تُعمل دائرية بالعوارض، ولها نافذة علوية تزودها بالضوء، وتساعد في تصاعد الدخان. وغماء بيوتهم والجدران والأبواب كلها من الخشب. وعندما يذهبون إلى الحروب، يحملون بيوتهم معهم على العربات، كما يحمل النّاس الخيام أو الصّيوانات. ويضرمون النّار في وسط بيوتهم.

ولديهم عدد كبير من الحيوانات المختلفة، ما عدا الخنازير، فليس لديهم منها. ويؤمنون أن إلهاً واحداً خلق كل شيء. ومع ذلك لديهم فأصنام من الذهب والفضة،

(1) عبارة غامضة غير مفهومة.

ومن الشّجر ومن القماش. ويقدّمون لهذه الأصنام أول حليب تنتجه حيواناتهم، وأيضاً يقدّمون لها من طعامهم وشرابهم قبل أن يتناولوه. وغالباً ما يقدمون الخيول والحيوانات. ويطلقون على الإله اسم يروغا *Yroga*.

وإمبراطورهم أيضاً، مهما كان الاسم الذي يحمله، يضيفون إليه دائماً لقب الخان. وعندما كنتُ هناك[1]، كان اسم إمبراطورهم تياوت Thiaut، وكانوا يسمّونه تياوت خان. وكان اسم ابنه الأكبر توسو Tossue؛ وعندما يصبح إمبراطوراً سيسمّونه توسو خان. وفي ذلك الوقت كان لدى الإمبراطور اثنا عشر ابناً غيره، وأسماؤهم:
Cuncy, Ordii, Chadahay, Buryn, Negu, Nocab, Cadu, [Siban], Cuten, Balacy, Babylan, Garegan.

وكانت زوجاته الثّلاث: الأولى والأساسية، ابنة بريستر جون (يوحنّا الكاهن)[2]، وكانت تدعى سبريوتشِه خان Serioche-Chan، والثّانية بوراك خان Borak-Chan والثّالثة كرانكه خان Karanke-Chan.

والناس في تلك البلاد يبدأون أمورهم كافة مع ظهور القمر الجديد، وكانوا يعبدون الشّمس والقمر وغالباً يسجدون لهما. والنّاس في تلك البلاد بشكل عام يقودون الجياد بدون مهاميز، ولكنهم يحملون سوطاً صغيراً في يدهم لجعل خيولهم تسرع.

وهم يولون انتباهاً شديداً ويعتبرون رمي سكين في النّار إثماً عظيماً، أو إخراج قطعة لحم من قِدر بواسطة سكين، وأيضاً ضرب الحصان بمقبض السّوط، أو ضربه باللجام، وكسر عظمة بأخرى، ورمي الحليب أو أي سائل ممكن أن يشربه النّاس على الأرض، وأخذ أو قتل الأطفال الصّغار. والإثم الأعظم الذي يمكن أن يقترفه إنسان هو أن يتبوّل في البيت الذي يسكنه أحدهم، ومن يقترف هذا الإثم عمداً يقومون بقتله.

---

(1) ملاحظة مهمّة من المؤلف تتضمّن إشارة تعيّن وجوده في بلاط التّار بمدّة محددة، وبالرجوع إلى الدّراسات الحديثة التي قام بها الباحث الياباني وادا سيه Wada Sei وعدّلها الباحثان هوندا مينوبو وأوكادا هيديهيرو، نجد اسم الخان طوغون تيمور الملقب: أوقاغاتو خان (قاغان)، حكم بين 1333-1370 م فهل هو المذكور؟

(2) الملك المسيحي الأسطوري في شمال الهند، تقدّم ذكره مراراً أعلاه.

وكل من يقترف هذه الآثام فعليه أن يعترف لكهنتهم، وأن يدفع قدراً كبيراً من الفضة بمثابة كفارة. ومن يقوم بهذا أيضاً، فهذا المكان الذي بال فيه أحدهم يغدو محرماً، ولا يجرؤ أحد على الدخول إليه. وبعد أن يكونوا قد دفعوا كفارتهم، يجعلونهم يمرّون من خلال نار أو اثنتين، لتطهيرهم من دنسهم. وأيضاً عندما يأتي رسول حاملاً رسالة أو هدية للإمبراطور، يجعلونه، والشّيء الذي يحمله، يمرّ من خلال نارين مضرمتين لتطهيرهما، وللتأكد من أنه لا يحمل سمّاً أو مادة سمية، أو أي شيء خطير ممكن أن يسبب أذى للحاكم. وأيضاً أيّ شخص رجل أو امرأة وُجد في حالة فجور أو زنى، يقتلونه فوراً. ومن يقوم بسرقة شيء، يقتلونه فوراً.

والناس في تلك البلاد رماة ويصوّبون ببراعة، رجالاً ونساء، وأيضاً وهم يعتلون صهوات جيادهم، وهم منطلقون بها، كما على الأرض، وهو يركضون. وتقوم النّساء بكل شيء وكل أشكال المهارات والحرف، كخياطة الثّياب والأحذية والأشياء الأخرى؛ ويقدن العربات وعربات الحراثة والحقول والمركبات، ويبنين البيوت ويقمن بكل الحرف، باستثناء الأقواس والسّهام التي يقوم الرّجال بصنعها. وكل النّساء يرتدين السّراويل مثل الرّجال.

وكل النّاس في تلك البلاد يخضعون كلياً لأسيادهم؛ فلا يتشاجرون، ولا يعنّف أحدهم الآخر. ولا يوجد هناك سارقون ولا لصوص. وكل شخص يبجّل الآخرين، ولكنهم لا يظهرون احتراماً للغرباء، إلا إذا كانوا كبار الأمراء.

وهم يأكلون الكلاب والأسود والفهود والخيول والمهور والحمير والجرذان والفئران وكل أنواع الحيوانات، الكبيرة والصّغيرة، باستثناء الخنازير والحيوانات المحرّمة حسب الدين القديم. ويأكلون الحيوانات بكاملها، من الخارج والداخل، ولا يرمون منها شيئاً، ما عدا أقذارها. ويأكلون الخبز بكميات قليلة، إلا في قصور كبار السّادة. ولا يوجد في الكثير من الأماكن، ولا البازلاء ولا الفول ولا الخضار الأخرى، فقط حساء اللحم. ويأكلون القليل من أي شيء عدا اللحم والحساء. وعندما ينتهون من الطّعام يمسحون أيديهم بأثوابهم؛ لأنهم لا يستخدمون لا أغطية الطّاولات

ولا المناشف، إلا عند كبار السّادة؛ أما النّاس العاديون فلا يستخدمونها. وبعد أن ينتهوا من تناول الطّعام، يضعون أطباقهم بدون غسيل في قدر أو مرجل مع بقية اللحم والمرق حتى يتناولوا الطّعام ثانية.

والأثرياء يشربون حليب إناث الخيل والجمال والحمير والحيوانات الأخرى. ويشربون أحياناً الحليب ومشروباً آخر مصنوعاً من العسل والماء الممزوجين معاً؛ لأنه في تلك البلاد لا يوجد لا خمر ولا مزر ale. وهم يعيشون ببؤس، ولا يتناولون الطّعام إلا مرة واحدة في اليوم، وبكميات هزيلة، لا في القصور ولا في الأماكن الأخرى. وبالمقارنة، فإن شخصاً واحداً في هذه البلاد يأكل في اليوم أكثر ممّا يأكله الواحد منهم في ثلاثة أيام[1]. وإذا قدم أيّ رسول غريب إلى أحد السّادة، يجعلونه يأكل مرة واحد في اليوم، وبكمية صغيرة جداً.

وعندما يكونون في الحروب، يحاربون بحكمة شديدة ويقومون بعملهم دائماً، لتدمير أعدائهم. وكل شخص منهم يحمل قوسين أو ثلاثة، والكثير من السّهام، وفأساً كبيراً. والسّادة يحملون رماحاً قصيرة وطويلة وحادة جداً على جنبهم. ويحملون معهم الدروع والخوذ المصنوعة من الجلد المقسّى[2] quyrboylle. وخيولهم مغطاة بها أيضاً. والذي يفرّ من المعركة يقتلونه. وعندما يحاصرون قلعة أو حصناً ويكون مسوراً ومنيعاً، ويتعهّدون للموجودين بداخله بأن يبقوا عليهم وعلى ممتلكاتهم، ومن الجميل سماع ذلك؛ فيمنحونهم كل ما يريدونه. وبعد ذلك يستسلمون، فيقومون بقتلهم جميعهم؛ ويقطعون آذانهم وينقعونها في الخل، وبذلك يقومون بخدمة جليلة لأسيادهم. وكل ما يرغبون فيه ويتوقون إليه هو أن يضعوا كل الأراضي تحت سطوتهم. ويقولون إنهم يعرفون تماماً وفقاً لنبوءاتهم، أنهم سيغلبهم رُماة سهام ويتغلبون عليهم

(1) يشبه هذا الكلام تماماً ما رواه المملوك الصّارم أوزبك عندما قابل هولاكو خان عند حلب، فوصف زراية حياة التّتار وبساطته، لكنه يرى في ذلك السبب في انتصارهم على جيوش المسلمين في العراق والشام. راجع نصّه في كتاب «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى» في هذه السلسلة.

(2) تُكتب العبارة اليوم في الإنكليزية: curboille.

بفضل قوتهم؛ ولكنهم لا يعرفون من أي أمة ولا ما هي ديانته أولئك الذين سيغلبونهم. ولذلك فهم يسمحون للناس من كل الأديان أن يعيشوا بسلام بينهم.

وأيضاً عندما يريدون أن يصنعوا تمثالاً أو صورة لبعض أصدقائهم ليتذكروهم، فهم يصوّرونهم عُراة تماماً دون أي ثياب. لأنهم يقولون إنه مع الحب الخالص يجب ألا يكون هناك أيّ غطاء، وأن الإنسان لا يُحَبّ بسبب حسن الهندام ولا ثراء الملبس، لكن فقط لجسده، كما خلقه الله، وللفضائل الحسنة التي وهبها الجسد من قبل الطّبيعة، وليس فقط للملابس الجميلة التي ليست من صنع الطّبيعة.

ولعلمكم، إنه من المروّع مطاردة التّتار إذا فرّوا من المعركة. لأنهم عندما يفرّون يطلقون خلفهم ويقتلون البشر والجياد كليهما. وعندما يقاتلون يضربونهم مع بعضهم بضربة واحدة؛ فإذا كان هناك 20,000 رجل، فالناس لا يعتقدون أنه سيكون هناك خسارة بمقدار 10,000. ويمكنهم كسب أراض الغرباء، لكنهم ليس بإمكانهم المحافظة عليها؛ لأنهم يحبون المكوث في الخيام أكثر من الإقامة في القلاع وفي المدن. ولا يقيمون قدراً لدهاء الأمم الأخرى.

وللزيت والزّيتون مكانة خاصة عندهم، فهم يحتفظون به لأجل الأدوية الفاخرة. وكل التّتار لديهم عيون صغيرة ولحى خفيفة، وشعرهم ليس كثيفاً لكنه مقصوص. وهم مخادعون وخونة؛ ولا يحافظون على عهودهم. وهم قوم شديدو التحمّل، كالألم الشّديد والبلاء والأمراض، أكثر من غيرهم، لأنهم تعلموا ذلك في بلادهم التي نشأوا فيها.. ولذلك، فهم لا ينفقون - كما يقال - شروى نقير.

وعندما يحتضر أحدهم، يضع النّاس رمحاً إلى جانبه. وعندما يسقط على الأرض، يهرب الجميع من منزله حتى يموت. ثم يقومون بدفنه في الحقول.

وعندما يموت الإمبراطور، يضعونه على كرسي في وسط خيمته. ويضعون طاولة نظيفة أمامه، مغطاة بقماش، وعليها اللحوم وأطعمة مختلفة وكوباً مليئاً بحليب الفرس. ويحضرون الفرس مع مهرها إلى جانبه، وحصاناً عليه سرج ولجام.

ويضعون على الحصان الذهب والفضة، وبكميات كبيرة. ويضعون حوله الكثير من القش. ويحفرون حفرة كبيرة وواسعة، ويضعونه مع الخيمة وكل الأشياء الأخرى في تلك الحفرة. ويقولون إنه عندما يعود للعالم الآخر، لن يكون بلا مأوى، ولا دون حصان أو ذهب وفضة؛ والفرس ستعطيه الحليب، وتلد له مزيداً من الجياد وبذلك يكون لديه مؤونة جيدة في العالم الآخر. لأنهم يعتقدون أنهم بعد موتهم سيأكلون ويشربون في ذلك العالم الآخر، ويتسلّون مع زوجاتهم كما في حياتهم هذه.

وبعد أن يُدفن الإمبراطور على هذه الشّاكلة، من النّادر جداً أن يذكره أحدهم أمام أصدقائه. ومع ذلك، يحدث أحياناً أن يقوموا بدفنه بصورة خاصة ليلاً في مكان بعيد، ويضعون العشب على الحفرة لينمو من جديد؛ أو يقومون بتغطيتها بالحصى والرّمل، ولا يمكن لأحد أن يعرف مكان الحفرة، بهدف ألا يتذكره أحد من أصدقائه. ويقولون إنه سُلب إلى العالم الآخر حيث هو هناك سيّد أعظم ممّا كان عليه في هذه الحياة.

وبعد وفاة الإمبراطور، تجتمع ذرّيته السّبعة مع بعضهم، ويختارون ابنه الأكبر، أو الشّخص التالي بعده الذي يحمل الدّم ذاته. ويقولون له:

إننا نرغب ونناشدك ونعينك لتكون حاكماً علينا وعلى إمبراطوريتنا.

فيجيبهم: إذا رغبتم في ذلك فإنني سأسود عليكم كحاكم لكم، وسيقوم كل منكم بما آمره به، سواء كان بالبقاء أو الرّحيل؛ وأيّما أحد أمرتُ بقتله فسيقتل حالاً.

فيجيبون جميعهم وبصوت واحد: كل ما تأمر به سينفذ فوراً.

عندها يقول الإمبراطور: فاعلموا جيداً، أنه من الآن فصاعداً ستكون كلمتي حادّة وماضية كحدّ السّيف.

بعد ذلك، يُجلسه النّاس على جواد أسود ويمضون به إلى كرسي مزيّن بترف بالغ، حيث يتوّجونه هناك. ثم ترسل له كل المدن والقرى الهدايا الثّمينة. وفي يوم واحد

يكـون لديه أكثر من سـتين عربة مشـبعة بالذهب والفضة، عدا عـن الجواهر من ذهب وأحجار كريمة، التي يرسـلها السّـادة، والتي لا يمكن تقديرها، وأيضاً هذا غير الخيول والأقمشـة الذهبية الكمخة camakas والقماش التتـري (الطرطان) tartarins التي لا تحصى.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

عن مملكة Tharse والبلاد والممالك
حوالي أجزاء الشمال نزولاً من بلاد كاثاي

بـلاد كاثـاي هذه تقع في آسـيا القصـوى the deep؛ وتليها، في هذا النّصف، آسـيا الكبرى the morc. وبالتوجّه غرباً من مملكة كاثاي تقع مملكة[1] Tharse، والتي منها كان أحد الملوك الذين أتوا ليقدّموا الهدايا لسيّدنا المسيح في بيت لحم. وكان من ذرية ذلك الملك بعض المسيحيين. وفي Tharse لا يأكلون اللحوم، ولا يشربون الخمر.

وفـي هذا النّصف، باتجاه الغرب، تقع مملكة تركسـتان، الممتدّة غرباً حتى مملكة فـارس، وباتجاه الشّـمال إلى مملكة خراسـان. ولا يوجد في بلاد تركسـتان إلا بعض المـدن الخصبة، ولكن أفضل مدينة في تلك البلاد تسـمّى أوكتـورار Octorar. وفيها مـراعٍ واسـعة، والقليـل من الحبـوب؛ لذلـك، فمعظمهم رعـاة، ويقيمون فـي الخيام ويشربون شراب المزر ale المصنوع من العسل.

وتليهـا في هذا النّصف مملكة خُراسـان، وهي بلاد جميلة ووافـرة، ولا يوجد فيها

(1) التسمية غريبة، ولكنني أعتقد أنه يعني بها مملكة تتارستان قازان، التي قطنها بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر عشائر تترية عديدة في ما يتبع الآن أراضي روسيا وكازاخستان. وكان يقطن تلك المناطق قوم بلغار الڤولغا الذين نزلوا بضفاف نهر الڤولغا في القرن الثامن ودخلوا في الإسلام عام 922 م خلال بعثة الرّحّالة العربي أحمد بن فضلان موفد الخليفة المقتدر بالله العبّاسي. وبعد الغزو المغولي لأوروبا بدءاً من عام 1241 م انهارت دولة بلغار الڤولغا الإسلامية وألحقت أراضيها بإمبراطوريّة القبيلة الذهبيّة (مغول الشمال).

الخمور. وفيها صحراء باتجاه الشّرق تمتدّ على مسافة مسير أكثر من مئة يوم. وأفضل مدينة في تلك المملكة تسمى خُراسان، وتحمل البلاد اسم هذه المدينة. وسكان تلك البلاد محاربون أشداء.

وفي هذا النّصف تقع مملكة كومانيا Comania، ومنها الكومانيون[1] الذي كانوا يقطنون في اليونان في زمن ما وتم طردهم منها. وهي من أعظم الممالك في العالم، ولكنها ليست مأهولة بشكل كامل. حيث يوجد في جزء منها برد قارس ولا يمكن لأحد أن يعيش هناك؛ وفي جزء آخر يوجد حرّ شديد لا يمكن لأحد تحمله، ويوجد أيضاً الكثير من الذباب، ولا يعرف المرء على أي جنب يستدير. وفيها عرائش صغيرة ولا توجد أشجار تحمل الفاكهة والأشياء الأخرى. ويعيشون في الخيام؛ ويشعلون روث الحيوانات بدلاً من الحطب. وتمتد هذه المملكة باتجاهنا وباتجاه پروسيا وروسيا.

ويجري في تلك البلاد نهر يسمّى إتيل[2] Ethille وهو من أكبر الأنهار في العالم. وتجمّد بشدة على مر السّنين وحدث أن وقع قتال على الجليد وبجيوش كبيرة، وكان الطّرفان على الأقدام، وأقصيت جيادهم لبعض الوقت، ومجموع المقاتلين على الجياد وعلى الأقدام يناهز 200,000 شخص في كل طرف.

وتقع في المنطقة الممتدة بين هذا النّهر والبحر الكبير، الذي يسمّونه بحر مورِه[3] Maure، كل هذه الممالك. وباتجاه الرّأس، الأدنى، في تلك المنطقة يوجد جبل تشوتاز Chotaz، الجبل الأعلى في العالم، ويقع بين بحر مورِه وبحر قزوين Caspian. ويوجد ممرّ ضيق وخطير يؤدي إلى الهند. وهناك أقام الملك الإسكندر مدينة قوية، تسمّى الإسكندرية، وذلك حتى لا يعبر أحد من تلك البلاد دون إذنه. والآن يطلقون

(1) شعب الكومان قوم رُحّل من الأرومة التركيّة في سهوب آسيا الوسطى يؤلفون الفرع الغربي من حلف الكومان والقبچاق. بعد الغزو التّتري عام 1237 م التجأوا إلى هنغاريا ثم بلغاريا.

(2) إتيل أو إتل هو الاسم التركي القديم لنهر الڤولغا. وفي التّترية يسمّى إديل.

(3) العبارة في اللغات السّلافيّة تعني البحر، والمقصود: البحر الأسود، الذي يسمّى في اللغات السّلافيّة: تشورنِيه مورِه Чёрное Море.

على هذه المدينة اسم بوّابة جهنم Gate of Hell.

والمدينة الرّئيسـية في كومانيا تسمى ساراك Sarak. وهي واحدة من الطّرق الثّلاثة المؤدية إلـى الهند. ولكن من هذا الطّريـق، لا يمكن العبور لعدد كبيـر من النّاس، إلا في الشّتاء. ويسمّون هذا المعبر ديربنت Derbent. والطّريق الثّاني يكون بالذهاب من مدينة تركستان عبـر فارس، وفي هذا الطّريق مسير عدة أيام عبر الصّحـراء. والطّريق الثّالث هو ذاك القادم من كومانيا ذهاباً إلى البحر الكبير وعبر مملكة الأبخاز Abchaz.

ولعلمكم، فإن كل هذه الممالك وهذه البلاد المذكورة أعلاه حتى پروسيا وروسيا جميعهـا تحـت سـيطرة خان كاثـاي الأعظـم[1]، بالإضافة إلـى الكثير مـن البلاد على السّواحل الأخرى. حيث نفوذه وسيادته عظيمة جداً وقوية.

* * *

(1) يشير ماندڤيل إلى سلالة مملكة التّتار في الصّين، ونصوصه كما أراها تدلّ على أصالة ورؤية ثاقبة في الجمع إن لم نقل في الاطلاع ورؤية العين كرحّالة صادق أصيل. ولا ريب أنني سأعود إن شاءالله إلى دراسة كتابه هذا بتوسع أكبر، بالإضافة إلى بحث يتصل به، وهو رسالة رحّالتنا الكبير أحمد بن فضلان في الرّحلة إلى بلاد البلغار والتّرك والرّوس والصّقالبة.

الفصل الثامن والعشرون

إمبراطور فارس، وعن أرض الظلام والممالك الأخرى التابعة لخان كاثاي الأعظم وأراضيه الأخرى، حتى بحر اليونان

الآن، وبعد أن أخبرتكم عن البلاد والممالك الواقعة باتجاه الشمال Septentrionals نزولاً من أرض كاثاي حتى بلاد المسيحيين، باتجاه پروسيا وروسيا، سأخبركم الآن عن بلاد أخرى وعن الممالك الوقعة نزولاً على السّواحل الأخرى، باتجاه اليمين، حتى بحر اليونان، باتجاه أرض المسيحيين. فبعد الهند وكاثاي فإن إمبراطور الفرس أكبر حاكم، ولذلك سأخبركم عن مملكة فارس.

أولاً، لديه مملكتان، الأولى تبدأ من الشّرق باتجاه مملكة تركستان، وتمتد غرباً حتى نهر پيسون[1] Pison، وهو واحد من أربعة أنهار تنبع من الجنة. وعلى جانب آخر تمتدّ باتجاه الشمال Septentrion حتى بحر قزوين Caspian؛ وأيضاً باتجاه الجنوب حتى صحراء الهند. وهذه البلاد خصبة وسهلية وفيها الكثير من النّاس. وفيها الكثير من المدن الخصبة. ولكن المدينتين الرّئيسيتين فيها مدينة بويتورا Boyturra ومدينة سيورنيرغانت Seornergant، والبعض يسمّونها سورماغانت Sormagnat.

---

(1) هكذا في الأصل، والمقصود: نهر سيحون، وكان يسمّى قديماً نهر بلخ، واسمه حالياً نهر أموداريا ويوجد في جمهوريّة أوزبكستان. وهو النهر الذي تُنسب إليه تسمية: بلدان ما وراء النّهر، التي شاعت لدى مؤرخينا وجغرافيينا العرب إبّان الفتوحات الإسلاميّة.

والمملكة الثّانية في فارس تمتد باتجاه نهر پيسون وأجزاء من الغرب حتى مملكة ميديا Media، ومـن أرمينيا الكبـرى باتجاه الشـمال Septentrion وبحـر قزوين Caspian وباتجـاه الجنـوب إلى أرض الهند. وهي أيضاً أرض خصبـة ووفيرة، وفيها ثلاث مدن رئيسية: ميسابور[1] Messabor وصافون[2] Saphon وسارماسان[3] Sarmassan.

ثم تأتي أرمينيا، وكان فيها أربع ممالك؛ وهي بلاد فخمة وفيها كل شيء. وهي تبدأ فـي فـارس وتمتدّ طولاً باتجـاه الغرب حتى تركيـة. وعرضاً تصـل Dureth إلى مدينة الإسـكندرية، والتي تسـمى الآن بوابة جهنـم، التي تحدثت عنها سـابقاً، تحت مملكة ميديا. وفي أرمينيا هذه الكثير من المدن الخصبة، ولكن مدينة توريز (تبريز) Taurizo هي الأكثر شهرة.

وبعدهـا مملكـة ميديا، وهـي طويلة جداً ولكن ليسـت عريضة، وتبدأ شـرق أرض فـارس إلـى الهند الصّغـرى the less؛ وتمتدّ غربـاً، باتجاه مملكـة الكلدانيين وباتجاه الشمال Septentrion، نزولاً إلى أرمينيا الصّغرى. وفي مملكة ميديا تلك يوجد الكثير مـن التـلال والقليل مـن الأراضي السّـهلية. وهناك يعيش المسـلمون وأقـوام أخرى، يُطلق عليهم اسـم الأكراد Cordynes. وأهمّ مدينتين في تلك المملكة هما ساراس[4] Sarras وقرمان Karemen.

وبعد ذلك مملكة جورجيا، التي تبدأ شرقي جبل عظيم يسمّى أبزور Abzor، حيث يعيـش أقوام مـن أمم مختلفة. ويطلق على هذه البلاد اسـم ألامو Alamo. وتمتدّ هذه المملكـة باتجـاه تركية والبحـر الكبير، وجنوباً حتـى أرمينيا الكبرى. وفـي هذه البلاد توجـد مملكتـان: الأولى مملكة جورجيـا، والثّانية مملكة الأبخـاز Abchaz. ويوجد دائمـاً في تلك البلاد ملكان؛ وكلاهما مسـيحيان. ولكن ملـك جورجيا يخضع للخان

(1) من الواضح أن المقصود: نيسابور.
(2) من الواضح أن المقصود: أصفهان.
(3) لا أدري ما المقصود، ولعله يعني: كرمان؟
(4) هل يقصد سيواس مثلاً؟ لكنها تقع بعيداً إلى الشرق.

الأعظم. وملك الأبخاز لديه دولة أقوى، وهو يدافع عن بلاده بقوة ضد أولئك الذين يغيرون عليه، ولذلك لا يمكن لأحد أن يجعله خاضعاً له.

وفي مملكة الأبخاز أمر مدهش جداً. يوجد مقاطعة تقع في البلاد ويبلغ محيطها مسير ثلاثة أيام، وتسمى هانيسون Hanyson، يغطيها الظلام، دونما أي سطوع أو ضوء؛ ولا يمكن لأحد أن يرى أو يسمع، ولا يجرؤ أحد على دخولها. ومع ذلك، يقول النّاس في تلك البلاد، إنّ أناساً في زمن ما سمعوا أصوات بشر، وصهيل خيول، وصياح ديكة. وهم يعتقدون بشدة أن أناساً يعيشون هناك، ولكنهم لا يعرفون أي نوع من النّاس هم. ويقولون، إن هذا الظلام حدث بمعجزة من الله، لأن إمبراطوراً ملعوناً من فارس، وكان يدعى قورش Saures، طارد كل المسيحيين ليهلكهم وليجبرهم على تقديم القرابين لأوثانه، وانطلق بجيش كبير، بأقصى ما أمكنه، ليدحض المسيحيين.

وفي تلك البلاد كان يقطن الكثير من المسيحيين الصّالحين، الذين تركوا أشياءهم وفروا إلى اليونان. وعندما وصلوا إلى سهل يدعى ماغون Magon، لاقاهم هذا الإمبراطور الملعون مع جيشه ليقتلهم ويقطعهم إرباً. وفوراً ركع المسيحيون على الأرض، وصلوا لله ليساعدهم. وحالاً جاءت غيمة كبيرة وكثيفة وغطت الإمبراطور وجيشه كله. واحتُجزوا بتلك الطّريقة ولم يتمكنوا من الخروج منها ولا بأي اتجاه؛ وسيبقون محتجزين في تلك الظلمة إلى يوم القيامة، بمعجزة من الله. وبعدها ذهب المسيحيون إلى حيث رغبوا، إلى حيث يحلو لهم، دون أي عائق من أي مخلوق، وبقي أعداؤهم محتجزين وملعونين في الظلمة، دون أي مساعدة.

وعن هذا يمكن القول مع داود:

A Domino factum est istud; & est mirabile in oculis nostris.

وكانت تلك معجزة كبيرة من الله لأجلهم. لذلك أعتقد أنه يتوجب على المسيحيين أن يكونوا أكثر إخلاصاً في عبادة إلهنا الرّب أكثر من أيّة طائفة أخرى. لأنه بدون أي مبالغة، لو لم يكن هناك لعن وإثم على المسيحيين، لكانوا أسياد العالم بأسره. لأن راية يسوع المسيح مرفوعة دوماً، وعلى أهبة الاستعداد وبكل الاتجاهات لنصرة أتباعه

المخلصين. لدرجة أن مسيحياً واحداً صالحاً لديه عقيدة راسخة يمكن أن يتغلب ويطارد ألفاً من الكفار الملعونين، كما قال داود في الزّبور:

Quoniam persequebatur unus mills, & duo fugarent decem milia; et cadent a latere tuo mille, & decem milia a dextris tuis.

وكيف يمكن لواحد أن يطارد ألفاً، فإن داود بنفسه قال التالي:

Quia manus Domini fecit haec omnia.

وإلهنا بنفسه قال، على لسان نبيه:

Si in viis meis ambulaveritis, super tribulantes vos misissem manum meam

وبذلك يمكننا أن نرى بوضوح أنه عندما نكون صالحين لا يمكن لأي عدوّ أن يقف في وجهنا.

وأيضاً لعلمكم، أنه في إمبراطوريتي جورجيا، والأبخاز وأرمينيا الصّغرى يوجد مسيحيون صالحون ومخلصون. لأنهم يعترفون بخطاياهم ويتطهرون دائماً مرة أو مرتين أسبوعياً. والكثير منهم يتطهّر يومياً؛ وهذا ما لا نقوم به في هذا النّصف، وبالرغم من أن القدّيس بولس أمر بذلك، قائلاً:

Omnibus diebus dominicis ad communicandum hortor

وهم يحافظون على ذلك الأمر، بينما نحن لا نقوم بذلك.

ومن ثم، في هذا النّصف، توجد تركية، التي تصل إلى أرمينيا الكبرى. وفيها الكثير من المقاطعات، مثل كاپادوقيا Cappadocia، ساور Saure، بريك Brique، كيسيتون Quesiton، پيتان Pytan، وغيميتِه Gemeteh. وفي كل منها يوجد الكثير من المدن الخصبة. وتمتد تركية هذه إلى مدينة ساخالا Sachala الواقعة على بحر اليونان، وتصل إلى سوريا. وسوريا بلد كبير وخصب، كما أخبرتكم من قبل. وفيها أيضاً، في أعلاها باتجاه الهند، مملكة كلدانية، والتي تمتد من جبال كلدان باتجاه الشّرق حتى مدينة نينوى Ninevch، الواقعة على نهر دجلة؛ وعرضياً فهي تبدأ باتجاه الشّمال

من مدينة ماراغا[1] Maraga؛ وتمتدّ جنوباً إلى المحيط. وهي بلاد سـهلية، فيها بعض الهضاب وبعض الأنهار.

وبعدهـا مملكة الرّافدين Mesopotamia، التي تمتدّ شـرقاً من منبع نهر دجلة، إلى مدينـة تدعى الموصل؛ وغرباً من منبع نهر الفرات إلـى مدينة رويانز Roianz؛ وطولياً من جبال أرمينيا إلى صحراء الهند الصّغرى. وهي بلاد خصبة وسهلية، لكن فيها بعض الأنهار. ويوجد جبلان فقط في تلك البلاد، ويسـمى أحدهما سـيمار Symar والثّاني ليسون Lyson. وتحاذي هذه البلد مملكة كلدان.

ولكـن يوجد باتجـاه أجزاء مـن الجنـوب Meridionals بلاد ومناطـق كثيرة، مثل إثيوبيا، الممتدة شـرقاً من الصّحراء الكبـرى إلى مملكة نوبيا Nubia غرباً، وجنوباً من مملكة موريتانيا حتى البحر الأحمر شمالاً.

وبعـد ذلـك موريتانيا، الممتدة من جبال إثيوبيا وحتى ليبيـا العليا. وتقع تلك البلاد علـى طـول البحر المحيط جنوباً؛ وشـمالاً تحاذي نوبيا وليبيا العليـا. (الناس في نوبيا مسـيحيون). وتمتدّ من الأراضي المذكورة أعلاه حتى صحراء مصر، وهذه مصر التي تحدثت عنها من قبل.

وبعدها ليبيا العليا وليبيا الدنيا، نزولاً باتجاه بحر إسپانيا الكبير، حيث يوجد ممالك كثيرة في تلك البلاد والكثير من الأمم المختلفة.

وهكـذا أكون قد أخبرتكم عن الكثير من البـلاد في هذا النّصف من مملكة كاثاي، والكثير منها تابع للخان الأعظم.

* * *

(1) أظن المقصود بها: مرعش.

الفصل التاسع والعشرون

عن البلاد والجزر الواقعة خلف أرض كاثاي
وعن الثّمار الموجودة هناك
وعن الاثنين وعشرين ملكاً المحبوسين في الجبال

والآن سأخبركم، بإيجاز، عن البلاد والجزر الواقعة خلف البلاد التي حدّثتكم عنها.

وأخبركم أنه مروراً ببلاد كاثاي باتجاه الهند العليا وباتجاه بخاريا[1] Bacharia، يمرّ الرّجال بمملكة تسمى Caldilhe، وهي بلاد رائعة.

وفيها تنمو ثمار تشبه ثمار القرع. وعندما تنضج يقسمها النّاس نصفين، ويجدون فيها حيواناً صغيراً، من لحم وعظم ودم، كأنه حَمَل صغير بلا صوف[2]. وهم يأكلون الثّمرة والحيوان كليهما. وهو أمر مدهش جداً، فكل الثّمار التي أكلتها، بالرغم من كونها رائعة جداً، فمن هذه عرفتُ كم أنّ الله مدهش بخلقه. ومع ذلك، فقد أخبرتهم عن معجزة كتلك التي عندهم، موجودة عندنا هي Bernakes. وأخبرتهم أنه في بلادنا يوجد أشجار تحمل ثماراً تتحوّل إلى عصافير وتطير، والتي تسقط في الماء تعيش، والتي تقع على الأرض تموت فوراً، وتكون صالحة كطعام للإنسان. وبالرغم من وجود معجزة عظيمة لديهم، فإنّ بعضهم أعتقد أن ذلك أمر من المستحيل أن يحدث.

(1) هل يعني بُخاري في أوزبكستان؟

(2) أما هذه فكذبة ثقيلة جداً.

وفي تلك البلاد تفاح طويل ذو مذاق طيب[1]، ويوجد منه أكثر من مئة في العنقود، ومثلها في الآخر؛ وله أوراق طويلة وكبيرة، بطول قدمين أو أكثر. وفي تلك البلاد، وفي بلاد أخرى في جوارها، ينمو الكثير من الأشجار التي تحمل كبش القرنفل clove-gylofres وجوزة الطّيب، وجوز الهند الكبير، والقرفة والكثير من التوابل الأخرى. ويوجد كروم تحمل عنباً كبيراً، حيث يتطلب من الرّجل القوي أن يبذل جهداً لا بأس به لحمل عنقود واحد من العنب.

وفي تلك المنطقة تقع جبال قزوين Caspian التي تسمى في تلك البلاد Uber. وبين هذه الجبال حُبس اليهود من الأسباط العشرة، الذين يسمّيهم النّاس يأجوج ومأجوج Goth and Magoth ولا يُسمح لهم بالخروج من أي جهة. حُبس هناك اثنا عشر ملكاً مع شعوبهم، الذين كانوا يقيمون بين جبال سكيثيا Scythia. وطاردهم الملك الإسكندر حتى هذه الجبال، وفكر أن يحبسهم هناك بواسطة عمل رجاله. وعندما رأى أنه من الممكن ألا يتمكن من فعل ذلك، ولا أن يصل إلى نهاية، صلّى إلى رب الطّبيعة لأن ينجز ما بدأ بفعله. وكان ذلك، وبالرغم من كونه وثنياً paynim ولا يستحق أن يستجاب له، ولكن بفضل رحمة الله أطبق الجبال سوية، وبذلك كل من كان هناك احتُجز وحبس بالجبال العالية التي تحيط بهم، فقط من جهة واحدة، حيث يقع بحر قزوين Caspian.

والآن من الممكن أن يتساءل البعض، بما أن البحر في تلك الجهة المفتوحة، لماذا لم يخرجوا من جهة البحر تلك، ويذهبوا إلى حيث أرادوا؟

رداً على هذا السّؤال، أجيبكم أن بحر قزوين Caspian يمتد من اليابسة تحت الجبال، ويجري في الصّحراء في إحدى جهات البلاد، وبعد أن يمتدّ إلى نهايات فارس، وبالرغم من أنه يسمّى بحراً، فهو ليس ببحر، ولا يتصل بأيّة بحور أخرى، فهو بحيرة، أكبر بحيرة في العالم؛ وبالرغم من أنهم سيبحرون في ذلك البحر، لن يعرفوا أبداً أين سيصلون؛ وأيضاً ليس لديهم لغة سوى لغتهم الخاصة بهم، التي لا يعرفها

(1) من الواضح أنه يعني الموز، وكان رحّالو أوروبا في القرون الوسطى يسمّونه: تين آدم.

أحد غيرهم؛ لذلك فهم لن يغادروا.

ولعلمكم، فإن اليهود ليس لديهم أرض خاصة بهم ليعيشوا فيها، في كل العالم، إلا تلك الأرض الواقعة بين الجبال. وقد تنازلوا عن تلك الأرض إلى ملكة الأمازون احتراماً لها، التي جعلتهم يبقون محتجزين بإتقان شديد، فلن يغادروا بأي اتجاه إلا إلى ساحل أرضهم؛ لأن بلادهم بمحاذاة هذه الجبال.

وغالباً ما كان يحدث، أن يتسلق بعض اليهود الجبال ويهوون إلى الأودية. ولكن الكثير منهم لا يقومون بهذا، لأن الجبال عالية جداً وشديدة الانحدار، لذلك عليهم البقاء هناك رغماً عنهم. لأنهم من الممكن ألا يخرجوا، ولكن ثمّة منفذً صغيراً تم عمله بفضل قوة الرّجال، وهو بطول أربعة أميال.

وكل الأراضي التي تليها هي صحراء، ولا يمكن أن يجد النّاس الماء، لا بالحفر ولا بأيّة وسيلة أخرى. لذلك لا يعيش النّاس في تلك المناطق، ولهذا فهي مليئة بالتنانين، والأفاعي والحيوانات الأخرى السّامة، ولا يجرؤ أحد على المرور بها، إلا في الشّتاء القارس. ويطلق النّاس على ذلك الممرّ الضيق اسم كليرون Clyron. وهذا الممر الذي تحتفظ به ملكة الأمازون. وبالرغم من أنه أحياناً ما يحدث ويحالف الحظ أحداً منهم بالخروج، فليس لديهم أيّة لغة سوى العبرية، ولذلك لا يمكنهم الكلام مع النّاس.

ومع ذلك، يقول النّاس إنهم سوف يخرجون في زمن المسيح الدّجّال anti-Christ، وسيقومون بمذابح كبيرة في حق المسيحيين. لذلك فإن اليهود حيثما وُجدوا يتعلّمون اللغة العبرية، على أمل، أن يخرج اليهود الآخرون، وبذلك يفهمون كلامهم، ويدلّونهم على النّصارى ليقوموا بإهلاك المسيحيين. لأن اليهود يقولون إنهم يعرفون تماماً بفضل نبوءتهم، أن أولئك الموجودون في قزوين Caspia سيخرجون، وينتشرون بكل العالم، وسيكون المسيحيون تحت سيطرتهم، بقدر المدّة التي كانوا هم فيها خاضعين لسيطرتهم.

وستعرفون كيف سيجدون طريقهم، وبعد أن تسمعوا ما سأخبركم به.

ففي زمن المسيح الدَّجّال anti-Christ سيجد ثعلب طريقه، ويقوم بحفر جحر حيث جعل الملك الإسكندر البوابات؛ وسيحفر ويخترق عميقاً في الأرض، حتى يصل إلى هؤلاء القوم. وعندما يرون الثّعلب، سيكون مصدر دهشة كبيرة بالنسبة لهم، لأنهم لم يروا من قبل هذا الحيوان. حيث أن كل الحيوانات الأخرى حُبست معهم باستثناء الثّعلب. ثم سيقومون بملاحقته وتعقّبه بدقة، حتى يرجع من المكان الذي جاء منه. فيقومون بالحفر بقوة، حتى يجدوا البوابات التي قام الملك الإسكندر ببنائها بالحجارة الكبيرة، ومدخل ضخم، وهي مثبتة بإحكام ومصنوعة بمتانة ببراعة. وستتكسّر هذه البوابات، ويخرجون بإيجادهم ذلك الشّيء.

ومن تلك البلاد اتجه الرّجال إلى أرض بخاريا Bacharia، حيث يقطنها أناس أشرار جداً ومتوحشون. وفي تلك البلد يوجد أشجار تنتج الصّوف، كما لو كان من الخراف[1]، ويصنع منها النّاس الثّياب وكل ما يمكن صنعه من الصّوف.

ويوجد في تلك البلد الكثير من أفراس النّهر hippotaynes التي تعيش أحياناً في الماء وأحياناً على اليابسة. ونصفها إنسان ونصفها حصان، كما قلت من قبل. وهي تأكل البشر عندما تمسك بهم[2].

وهناك أنهار الماء فيها مرّ جداً، ثلاثة أضعاف مياه البحر.

وفيها الكثير من حيوان الغرفين[3] griffins، أكثر بكثير من أي بلد آخر. بعضهم يقول إن جسده في القسم العلوي جسم نسر والقسم السّفلي جسم أسد؛ ويقولون ذلك

---

(1) لا أظنه يعني القطن هنا، ففي الفصل 31 يذكره بصراحة.

(2) ليس هذا بصحيح، ففرس النهر ليس من آكلات اللحوم carnivori بل هو حيوان عاشب، لكنه يهاجم من يتعدّى منطقته ويقطعه نصفين بفكه القوي وأضراسه الضخمة، وخاصة التّماسيح التي يخشى منها على صغاره.

(3) عدنا إلى الأساطير العجيبة من نسج الخيال، ويبدو أنه وجدها ضرورية لزيادة تشويق القارئ ودفعه إلى متابعة القراءة.

حقيقة، وأن شكله كذلك. ولكن غرفيناً واحداً له جسد وقوة أكثر من ثمانية أسود، في القسم الذي يشبه الأسد، وأيضاً له جسم أضخم وأقوى من مئة نسر من هذه النّسور التي نعرفها. وغرفين واحد يمكنه أن يحمل، ويطير إلى عشه، حصاناً كبيراً إن وجده مناسباً، أو ثورين مربوطين مع بعضهما كما في وضعها أثناء الحراثة. حيث أنّ له مخالب طويلة وكبيرة في قدميه، كما لو كانت قرون ثور ضخم أو أبواقاً من قرون البقر، والنّاس يصنعون منها أكواباً ويشربون بها. ومن أضلاعها وأجنحتها يصنعون أقواساً، متينة جداً، لرمي السّهام والسّهام مربعة الرّأس quarrels.

ومن هناك ينطلق الرّجال عبر أرض يوحنّا الكاهن (بريستر جون) Prester John، إمبراطور الهند العظيم. ويطلقون على مملكته اسم جزيرة Pentexoire.

* * *

الفصل الثّلاثون

عن الممتلكات الملكية للكاهن يوحنّا
وعن الرّجل الثّري الذي أقام قلعة رائعة سمّاها الجنة؛ وعن دهائه

هـذا الإمبراطـور، يوحنّا الكاهن[1] (پريسـتر جـون) Prester John، يملك أراضيَ واسـعة جداً، ولديه الكثير من المدن الجليلة والقرى الخصبة في مملكته، والكثير من الجـزر الكبيرة والمتنوعة. لأن بلاد الهند بكاملها تجزأت إلى جزر بسـبب الفيضانات الهائلـة التي جاءت من الجنة، وتركت البلاد مقسـمة إلى أجـزاء كثيرة. وأفضل المدن في جزيرة Pentexoire هي نيسِه Nyse، وهي مدينة ملكية وفخمة، ومترفة جداً.

ويوحنّا الكاهن هذا لديه تحت سطوته الكثير من الملوك والجزر والكثير من الأقوام المختلفـة من أصول متنوعة. وهذه الأرض خصبة جداً وغنية، ولكن ليس بغنى أرض الخان الأعظم. لأن التجار لا يأتون بشكل دائم إليها لشراء البضائع، كما هو الحال في

---

(1) يوحنّا الكاهن ملك مسيحي أسطوري، يُزعم أنه كان يحكم آسيا الوسطى أو إثيوپيا في القرون الوسطى. ترجع هذه الحكاية الأسطوريّة إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ويُعتقد أنها وضعت من قبل الصليبيين المعزولين عن بلادهم في المشرق، وكانوا يرتقبون أي دعم من تلك الأراضي الغامضة في آسيا. وظلّ رحّالو الغرب، وأولهم ماركو پولو، يبحثون عن بلاد هذا الملك الأسطوري دون جدوى. ويُعتقد أنّ أصل نسبة هذا الملك تعود غالباً إلى بعض الغزاة المغول الذين أفاد الصليبيّون من غزواتهم في المشرق الإسلامي، فربما حرّف بعض النّساطرة الحكاية على هذا النحو. لكن التفاصيل المغرقة التي يقدّمها عنه ماندڤيل هنا، تدلّ على أنه لا يتوانى عن اللجوء إلى الخيال والنقل لوصف شيء لا وجود له أصلاً.

بلاد الخان الأعظم، كونها بعيدة جداً للسفر إليها. وفي ذلك الجزء الآخر، في جزيرة كاثاي، يجد النّاس كل ما يطلبونه: أقمشة من الذهب ومن الحرير، والتوابل وكل أنواع الأوزان. لذلك، إن لم يجدوا الأسعار أرخص بكثير في جزيرة يوحنّا الكاهن، فلن يجازفوا بالطريق الطّويل والأخطار الهائلة في البحار في هذه الأجزاء.

لأنه في أماكن كثيرة في البحر يوجد صخور كبيرة من الأدَمنت adamant، التي لها خاصية جذب المعادن إليها. لذلك فلا يعبرون بأيّة سفينة فيها عقد ومسامير معدنية. وإن فعلوا ذلك، فإن صخور الأدَمنت adamant ستجذبهم إليها فوراً، ولن يتمكنوا من التحرر منها. أنا بنفسي رأيت من البعيد في ذلك البحر، وكأن جزيرة كبيرة مليئة بالأشجار، والأدغال المليئة بالأشواك والأغصان الشّائكة، بكميات كبيرة. وأخبرنا البحارة أن كل ذلك كان سفناً جُذبت إلى هناك من قبل صخور الأدَمنت adamant، لوجود الحديد فيها. وبسبب العفونة والأشياء الأخرى التي حدثت داخل السّفينة، نشأت هذه الدّغلة، والأشواك والأغصان الشّوكية والأعشاب الخضراء، وأشياء كهذه؛ ومن الصّواري والأشرعة؛ فتبدو وكأنها غابة كبيرة أو أيكة. وتنتشر مثل هذه الصّخور كثيراً في ذلك الجوار. لذلك لا يجرؤ التجّار على العبور إلا إذا كانوا على معرفة كاملة بالممرّات، أو إذا كان معهم مرشدون أكفياء.

وأيضاً فهم يخشون الطّريق الطّويل. لذلك يذهبون إلى كاثاي، لكونها أقرب. ومع ذلك فهي ليست قريبة جداً، وعليهم السّفر بالبرّ وبالبحر، لمدة أحد عشر شهراً أو اثني عشر، من جنوة Genoa أو من البندقية. أو قدوماً إلى كاثاي. ولكن أرض يوحنّا الكاهن هي أكثر بعداً بأيام سفر مرعبة كثيرة.

ويمرّ التجار عبر بلاد فارس، ويذهبون إلى مدينة تسمى هُرمُز Hermes، لأن هرمز هو الفيلسوف الذي أسسها. وبعد ذلك يعبرون لساناً بحرياً، ويصلون إلى مدينة أخرى تدعى Golbache. وهناك يجدون البضائع، طيور الأخيل، بأعداد كثيرة كما توجد هنا طيور الإوز. وإن أبحروا أبعد، فمن الممكن أن يمضوا بأمان كافٍ. وفي تلك البلاد يوجد القليل من القمح والشّعير، لذلك فهم يأكلون الأرزّ والعسل والحليب والجبن والفاكهة.

وهـذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن دائماً يتزوّج مـن ابنة الخان الأعظم؛ وأيضاً كذلك الأمر بالنسبة للخان الأعظم، فيتخذ ابنة يوحنّا الكاهن زوجة. لأن هذين الاثنين أعظم الحكام تحت السّماء.

وفـي أرض يوحنّـا الكاهن يوجد الكثير من الأشـياء المتنوعـة والأحجار الكريمة، نفيسـة وكبيـرة، ويصنع منها النّاس الأواني، كالأطبـاق والصّحون والكؤوس. ويوجد الكثير من العجائب، وإنه من المرهق والمطول جداً سردها في الكتب؛ فقط سأخبركم عن جزء فيما يتعلق بالجزر الرّئيسية وممتلكاته وديانته.

والإمبراطور يوحنّا الكاهن مسـيحي، وجزء كبير من بلاده أيضاً. لكن، ليس لديهم كل حذافيـر ديننا كما هي عندنا. وهم يؤمنـون يقيناً بالأب والابن وروح القدس، وهم مخلصون وصادقون مع بعضهم. ولا يرتكبون أيّة موبقات ولا يبادرون إلى المراوغة، ولا إلى الخداع.

ويقـع تحـت سـلطته اثنان وسـبعون مقاطعة، ويوجـد ملك لكل مقاطعـة. وهؤلاء الملـوك يوجـد تحتهـم ملـوك، وجميعهم يدفعـون جزية للكاهـن يوحنّـا. ويوجد في مملكته الكثير من الأشياء المدهشة.

ففـي بلاده يوجد بحر يطلق عليه اسـم بحر الحصـى Grave ly Sea، لأنه كله رمل وحصـى، دون أيّة قطرة ماء، وهو ينحسـر ويتدفق بأمواج عظيمـة مثل كل البحار، ولا يسكن أبداً، ولا بأي فصل. ولا يمكن لأحد أن يعبر هذا البحر إبحاراً، ولا بأيّة وسيلة، ولذلـك يمكـن أنه لا يعـرف أحد ماذا يقع خلـف هذا البحر. وبالرّغـم من عدم وجود الماء، فهم يجدون فيه وعلى ضفافه الكثير من السّمك الجيد وبأنواع وأشكال مختلفة عمـا يجده النّاس في البحار الأخرى، وهي ذات طعم طيب ومذاق لذيذ لتكون طعاماً للإنسان.

وعلـى مسير ثلاثة أيام من البحر يوجـد جبل عظيم، يخرج منه سـيل كبير يأتي من الجنـة. وهـو ممتلئ بالأحجـار الكريمة دون أية قطـرة ماء، وهو يجري فـي الصّحراء

الواقعة في تلك الجهة، حيث يقع بحر الحصى، ويصل إلى البحر وينتهي هناك. وذلك السّيل يجري ثلاثة أيام أسبوعياً ويحمل معه الحجارة الكبيرة والصّخور، وبكميات كبيرة. وحال وصوله إلى بحر الحصى، لا تمكن رؤيته، ويضيع نهائياً. وفي هذه الأيام الثّلاثة التي يجري فيها النّهر لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ ولكن في باقي الأيام يقتربون دون مشكلة.

وخلف ذلك السّيل، باتجاه الأعلى نحو الصّحراء، يوجد سهل واسع كله مفروش بالحصى، بين الجبال. وفي ذلك السّهل، في كل يوم مع طلوع الشّمس، تبدأ أشجار صغيرة بالنمو، وتستمرّ بالنمو حتى منتصف النّهار، وتحمل الثّمار؛ ولا يجرؤ أحد على أخذ شيء من تلك الثّمار، لأنها شيء من الجنّ. وبعد منتصف النّهار، تتناقص وتعود مرة أخرى إلى التراب، ولا تظهر بعد غروب الشّمس. وهكذا كل يوم. وهو أمر مدهش حقاً.

وفي تلك الصّحراء يوجد الكثير من النّاس المتوحشين، منظرهم بشع جداً؛ لأنهم مقرنون، ولا يتكلمون، فقط يصدرون صوتاً كصوت الخنازير. ويوجد الكثير من الكلاب البرية. وأيضاً من طيور الأخيل، التي تسمى بلغتهم Psittakes. ويتكلمون حسب طبيعتهم، ويحيون النّاس المارّين في الصّحراء، ويتكلمون معهم كما لو كانوا بشراً. وهذه التي تتكلم بشكل جيد لها لسان طويل وخمسة أصابع في القدم. ويوجد أيضاً نوع آخر، لديها ثلاثة أصابع فقط في القدم، ولا تتكلم أبداً أو قليلاً جداً ولا يمكنها سوى الصّراخ.

وهذه الإمبراطور يوحنّا الكاهن عندما يذهب في معركة ضد أي حاكم، لا يوجد أية رايات تُحمل في المقدمة؛ بل ثلاثة صلبان من الذهب، جميلة وكبيرة ومرتفعة، ومرصّعة بالأحجار الكريمة، وكل صليب محمول على عربة فخمة جداً. وللمحافظة على كل صليب، يعيّن 10,000 رجل من المسلّحين وأكثر من 100,000 من المشاة، كما يقوم النّاس بالمحافظة على الرّاية في بلادنا، عندما نكون في بلاد حرب. وهذا العدد من النّاس عدا عن الجيش الرّئيسي وغير الأجنحة المعينة للمعركة. وعندما لا

يكـون في حرب، ينطلـق مع مجموعة خاصـة، ويحمل في المقدمة صليبـاً واحداً من الخشـب، دون ألوان ولا ذهب ولا فضة ولا أحجار كريمة، كتذكرة أن يسـوع المسيح عانى ومات على صليب خشـبي. ويحمل أمامه أيضاً طبقاً كبيراً من الذهب فيه تراب، كإشـارة إلى أن عزّه وقوّته وجسـده سـيتحول إلى تـراب. ويحمل أمامه أيضـاً إناءً من الفضـة فيه جواهر ثمينة من الذهب الثّمين والأحجـار الكريمة، كدلالة على ممتلكاته وعزّه وقوته.

ويقيم عادة في مدينة سوسـا Susa. وهناك قصره الرّئيسي، وهو مُترف وفخم جداً، ولا يمكن لأحد أن يتصوّر ذلك ما لم يكن رآه. وعلى البرج الكبير للقصر يوجد دائرتان من الذهب، وفي كل واحدة منهما قطعتان من العقيق الأحمر كبيرة وضخمة، وتضيء بسطوع شديد في الليل. والبوابة الرّئيسية لقصره مصنوعة من حجر ثمين يطلقون عليه اسـم العقيق اليماني الملون sardonyx، وحواف القضبان من العاج. ونوافذ القاعات والغرف من الكريسـتال. وطاولات الطّعام بعضها من الزّمرد وبعضها من الجمشـت، والبعـض مـن الذهـب المرصع بالأحجـار الكريمـة، وقوائم الطّاولات مـن الأحجار الكريمة ذاتها.

والدرجات المؤدية إلى عرشه، حيث يجلس إلى الطّعام، الأولى من العقيق اليماني والثّانية من الكريسـتال والتالية من اليشـب الأخضر والتالية من الجمشـت والتالية من العقيق الملون sardine والتالية من الكوارتز الأحمر cornelian والسّابعة، حيث يضع قدميـه، من الكريسـولايت chrysolite. ويحيط بكل هذه الدرجـات إطار من الذهب الخالص، والأحجار الكريمة الأخرى، واللآلئ الكبيرة المتلألئة. وجوانب سور عرشه من الزّمرد، عليها إطار من الذهب النّفيس، ومزيّنة بالأحجار الكريمة الأخرى واللآلئ الكبيـرة. وكل الأعمـدة فـي غرفته من الذهـب الخالص والأحجار الكريمـة، والكثير من العقيق الأحمر، التي تشـع بضوء سـاطع في الليل للجميع. وبالرغم من أنها تعطي ضـوءاً كافياً، فهم يقومون دائماً بإشـعال آنية من الكريسـتال فيها بلسـم، لتعطي رائحة عطرة وأريجاً للإمبراطور، وللتخلص من الرّوائح الكريهة والسّيئة. وهيكل سريره من

الصّفير، المثبت بالذهب، ليجعله ينام بهناء ويمنعه من الفسق، لأنه لا يضطجع مع أزواجه إلا أربع مرات في السّنة، بعد الفصول الأربعة، وذلك فقط لإنجاب الأولاد.

ولديه أيضاً قصر جميل وفخم في مدينة نيسه Nyse، حيث يقيم، كلما رغب في ذلك؛ ولكن الجو ليس معتدلاً تماماً كما هو في مدينة سوسة.

ولعلمكم، في بلاده وفي البلاد المحيطة به، يأكل النّاس مرة واحدة في اليوم، كما هو الحال في قصر الخان الأعظم. ويأكل يومياً في قصره، أكثر من 30,000 شخص، عدا عن الرّائح والغادي. لكن 30,000 شخص من بلده، ومن بلاد الخان الأعظم، لا يستهلكون طعاماً كما يستهلك 12,000 شخص من بلادنا.

هذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن لديه دائماً سبعة ملوك معه لخدمته، ويغادرون خدمتهم في أشهر محدّدة. ومع هؤلاء الملوك يعمل دائماً اثنان وسبعون دوقاً وثلاثمئة وستون نبيلاً. وعلى مدار العام، يأكل في منزله وقصره، اثنا عشر أسقفاً وعشرون مطراناً. وبطريرك القدّيس توما هناك يعادل البابا هنا. والأساقفة والمطارنة ورؤوساء الأديرة في تلك البلاد كلهم ملوك. وكل واحد من هؤلاء كبار السّادة يعرف تماماً المهمّة الموكلة إليه. فالأول هو المسؤول عن منزله، الآخر مسؤول بلاطه، والآخر يقدّم أطباق، وآخر يقدّم الأكواب، وآخر هو المشرف، وآخر هو القيّم، وآخر هو أمير جيوشه، وبهذا الشّكل تقدّم له الخدمات بمنتهى الفخامة والملكية. وتقع بلاده على مساحة تمتدّ أربعة أشهر عرضاً، ولا يمكن قياس طولها، أيّ كل الجزر الواقعة تحت الأرض والتي نفترض أنها تحتنا.

وبمحاذاة جزيرة Pentexoire، حيث تقع أرض يوحنّا الكاهن، يوجد جزيرة جميلة، طويلة وعريضة، ويطلق علها اسم Mistorak؛ وهي من ممتلكات يوحنّا الكاهن. وفي هذه الجزيرة الكثير الوافر من المحاصيل.

* * *

وهنـاك، فـي زمن مـا، كان يقيم رجلٌ ثريّ؛ ليـس منذ زمن بعيد[1]؛ وكانوا يسـمّونه Gatholonabes. وكان طافحـاً بالمراوغـة وماكراً مخادعـاً. وكان له قصر جميل جداً ومنيـع فـي أحد الجبال، متيـن وفخم، ولا يمكن لأحد أن يتخيّـل أجمل ولا أكثر منعة منه. وقد قام بتسوير محيط الجبل بسور منيع وجميل. وضمن هذا السّور توجد أجمل حديقة ممكن أن يقتنيها إنســان. ويوجد فيها أشـجار تثمر كل أنـواع الثّمار التي يمكن أن يعرفها الإنســان. ويوجد فيها أيضاً كل أنواع الأعشـاب الفعالة ذات الرّوائح الطّيبة، وكل الأعشاب الأخرى أيضاً ذات الزّهور الجميلة. وفي هذه الحديقة لديه أيضاً الكثير مـن الينابيع الجميلة؛ وبالقرب من هذه الينابيع عمل على إقامة قاعات وغرف جميلة، مطليـة بالذهـب والـلازورد؛ وفي ذلـك المـكان يوجد الكثير مـن الأشـياء المتنوعة، والكثيـر من الأسـاطير؛ من الحيوانات، ومـن الطّيور التي تغرّد ببهجـة متناهية وتتنقل بخفة، وتظهر رشاقتها. ويوجد في حديقته كل أنواع الطّيور والحيوانات التي يمكن أن تخطر ببال، والتي يربيها بهدف التسلية واللهو.

ولديه أيضاً في ذلك القصر أجمل الفتيات الممكن أن يوجدن، تحت سـن خمسـة عشـر عاماً، وأجمل غلمـان ممكن أن يوجدوا، وفي نفـس ذاك العمر. وكلهم يرتدون ملابس منسوجة من الذهب، كثيرة الترف. ويقول إن هؤلاء كانوا ملائكة.

وأيضـاً عمل على تنفيـذ ثلاثة ينابيع، جميلة وفخمة وكلها محاطة بأحجار اليشـب والكريسـتال ومزينة بالذهـب، والأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة المتلألئة. وحفر قناة تحـت الأرض، بحيث تكون الينابيع الثّلاثة، حسـب الترتيب، واحد يفيض بالحليب، والآخر بالخمر والثالث بالعسل. وأطلق على هذا القصر اسم الجنّة.

---

(1) هذه إشارة مهمّة، فحسب ما يرويه ماندڤيل هنا، يتضح أنه يشير إلى قلعة ألموت التي كانت موئلاً للطائفة الإسماعيليّة النّزاريّة، التي اتسمت بالباطنيّة وغلبت عليها آنذاك تسمية الحشيشيّة. وقد أسّس هذا الحصن حسن الصبّاح الحِميَري في عام 1090 م، وبقي موئلاً لطائفته حتى خرابه كما سأذكر أدناه في عام 1256. ولكن كلام ماندڤيل عن هذا الشخص لا يمكن أن يكون المقصود به الصبّاح نفسه لوجود فارق قرن ونصف من الزمان، بل الذي قتل كان ركن الدّين خورشاه آخر أمراء الحصن.

وعندما يأتي أي فارس، مقدام ونبيل، لرؤية هذه الملكية، يقوم بأخذه إلى جنته، ويريه هذه الأشياء الرّائعة لتسليته، والأنغام الرّائعة والعذبة من مختلف الطّيور، والفتيات الحسان، وينابيع الحليب والخمر والعسل الجميلة، التي تتدفق بغزارة. ويجعل العديد من الآلات الموسيقية تعزف في البرج العالي، بمرح، والتي من المبهج سماعها؛ ولا يمكن لأي إنسان أن يرى براعتها. ويقول إن هؤلاء كانوا ملائكة الله، وهذا المكان هو الجنة، وقد خاطب الرّب أصدقاءه قائلاً:

Dabo vobis terram fluentem lacte et melle

ثم يجعلهم يشربون شراباً محدداً، فيسكرون منه فوراً. ثم يعتقدون أنهم أكثر سروراً ممّا كانوا عليه من قبل. ثم يقول لهم، إذا ماتوا لأجله ولأجل حبه، فبعد موتهم سيأتون إلى هذه الجنة؛ وسيكونون بعمر هؤلاء الفتيات، وسيلهون معهن، ويبقين عذراوات. وبعد ذلك سيضعهم في جنة أجمل، حيث يرون الله رأي العين، بجلاله وعزّته. ثم يريهم غرضه، ويقول لهم، إذهبوا واقتلوا الحاكم الفلاني، أو شخصاً ما كان عدواً له أو خصماً ضده، ويجب أن لا يخافوا من القيام بذلك وأن يقوموا بقتل أنفسهم. لأنه بعد موتهم، سيضعهم في جنّة أخرى، هي أجمل من هذه بمئة مرة؛ وهناك سيعيشون مع أجمل الفتيات، ويلهون معهنّ إلى الأبد[1].

وهكذا يذهب الكثير من الشّبان الأقوياء لقتل كبار السّادة في بلاد مختلفة، الذين كانوا أعداء له، ويقتلون أنفسهم، أملاً في تلك الجنة. وعلى هذا النّحو كان غالباً ما ينتقم من أعدائه بسبب حيله الماكرة وادعاءاته الكاذبة.

---

(1) هذا الوصف هنا ينطبق بحذافيره على زعيم الحشيشيّة في قلعة ألموت حسن الصبّاح، وهذه القلعة تقع في جبال البرز أو جبال الدّيلم جنوبي بحر قزوين على بُعد حوالي 100 كم عن طهران. تملّكها حسن بن علي الصبّاح (شيخ الجبل) في عام 1090 م فكانت موئل طائفته الإسماعيليّة النّزاريّة، وبقوا فيها حتى دمّرها هولاكو في طريقه إلى بغداد عام 1256 م وأعدم مَن فيها ما عدا الخواجا نصير الدّين الطوسي الذي انضمّ لهولاكو. ويُلاحظ أن تاريخ الحادثة غير بعيد عن زمن رحلات ماندڤيل.

وعندما علم الرّجال الأفاضل في البلد بمكر وخداع الرّجل[1] Gatholonabes، جمعوا قوتهم، وهاجموا قصره، وقتلوه، ودمّروا كل الأماكن الجميلة وكل الفخامة في تلك الجنة. هذا وموضع الينابيع والأسوار وأشياء أخرى كثيرة لا تزال بعض بقاياها ماثلة للعيان، ولكن تم إزالة كل الترف. ولم يمض وقت طويل على تدمير ذلك المكان.

* * *

(1) الغريب أنّ اسم هذا الرّجل الغامض يشبه عبارة: قاتل النّفس، مما قد يقوّي فكرة أنه يشير إلى جماعة الصبّاح بالفعل؟ لكن هل يعني ذلك أنّ أسطورة يوحنّا الكاهن ترتبط جغرافياً بالموقع الجغرافي ذاته؟ حقاً لقد أثار ماندڤيل الكثير من التساؤلات بنصوصه العجيبة، فهل اكتفى بالنقل ونسج الخيال، أم أنه سافر فعلاً وسمع كل هذه الأقاويل والأوصاف في تسفاره؟ أظنه جمع بين الثلاثة: السّفر، والنقل، والخيال الجامح.

الفصل الحادي والثّلاثون

عن رأس الشّيطان في وادي المخاطر
وعن عادات الأقوام في الجزر المختلفة التي تحيط بمملكة يوحنّا الكاهن

بالقرب من جزيرة ميستوراك Mistorak على الجانب الأيسر قرب نهر پيسون[1] Pison يوجد أمر مدهش. يوجد واد بين الجبال، ويمتد حوالي الأربعة أميال. وبعضهم يسميه وادي السّحر، والبعض يسميه وادي الشّياطين، وبعضهم يطلق عليه اسم وادي الأخطار. ويسمع النّاس غالباً في ذلك الوادي أصوات عواصف ورعود، وهمسات وضوضاء، طوال الليل والنّهار، وضجيجاً شديد، كما لو كانت قرع دفوف أو نفير nakers أبواق، كما لو كان احتفالاً كبيراً. وهذا الوادي مليء بالشياطين، وكان دائماً كذلك. ويقول النّاس هناك، إنه أحد المداخل إلى جهنم. وفي ذلك الوادي الكثير من الذهب والفضة. حيث كثيراً ما يذهب الكثير من الملحدين والكثير من المسيحيين أيضاً لأجلها للحصول على الكنوز الموجودة هناك؛ والبعض فقط يعود ثانية، وتحديداً من الملحدين، أمّا المسيحيون فلا، لأنهم يُخنقون مباشرة من قبل الشّياطين.

وفي مكان في منتصف هذاالوادي، تحت صخرة، يوجد رأس ووجه شيطان حقيقي، ومن المرعب والمفزع جداً رؤيته، ولا يظهر سوى الرّأس فقط، حتى الأكتاف. ولا

(1) هكذا في الأصل، والمقصود: نهر سيحون، وكان يسمّى قديماً نهر بلخ، واسمه حالياً نهر أموداريا ويوجد في جمهوريّة أوزبكستان. وهو النهر الذي تُنسب إليه تسمية: بلدان ما وراء النّهر، التي شاعت لدى مؤرخينا وجغرافيينا العرب إبّان الفتوحات الإسلاميّة.

يوجد رجل في العالم مهما بلغت جرأته، مسيحي أو لا، إلا وسيكون خائفاً من أن ينظر إليه، وعلى ما يبدو فإنه سيموت من الفزع، لأنه شنيع للغاية للنظر. لأنه ينظر بحدة إلى كل شخص بعيون مرعبة، وهي تتحرّك وتتألق باستمرار كالنار، وتتغير وتحدّق دائماً بطرق مختلفة، بسيماء مرعبة، حيث لا يجرؤ أحد على التوجه نحوه. ويتصاعد منه دخان ونار كريهة وأشياء بغيضة كثيرة، لا يمكن لأحد أن يتحمّلها.

ولكن المسيحيين الصّالحين، الذين لديهم عقيدة ثابتة، يدخلون بسهولة دون خطر. لأنهم أولا يتحللون من خطاياهم ويشيرون على أنفسهم بإشارة الصّليب المقدّس، وبذلك لن يكون لأيّ شيطان تأثير عليهم. ، لكنهم مع ذلك وإن كانوا لا خطر عليهم، فلن يكونوا بلا خوف، عندما يرون الشّياطين بشكلهم وجسدهم أمامهم تماماً، ويقومون باعتداءات وتهديدات مختلفة، في الهواء وعلى الأرض، ويفزعونهم بضربات من الصّواعق والعواصف. والأمر الأكثر فزعاً هو، أن الله سينتقم من كون النّاس خالفوا إرادته.

ولعلمكم، أنه عندما كنا أنا وصحبي في ذلك الوادي[1]، كنا قلقين جداً، فيما إذا كنا قد أقحمنا أنفسنا في مغامرة، وهل نتابع أم لا، في حماية الله. ورغب البعض من صحبنا بالدخول والبعض لا. وكان معنا رجلان قديران، راهبان مبتدئان، كانا من لومبارديّا Lombardy، وقالا إذا أراد أيّ منا الدخول فسيأتيان معه، وبالثقة برحمة الله وبهما، أنشدنا قداساً، وتحلل الجميع من الخطايا وتطهّر. ثم دخلنا أربعة عشر رجلاً؛ بينما عندما خرجنا كنا تسعة فقط. ولا نعرف أبداً فيما إذا تاه أصحابنا أو حدث لهم شيء آخر من الفزع. لكن لم نرهم أبداً بعد ذلك؛ وكانوا رجلين من اليونان وثلاثة من إسپانيا[2]. وأصحابنا الآخرون الذين لم يدخلوا معنا، ذهبوا إلى ساحل آخر ليصلوا قبلنا؛ وهناك كانوا.

---

(1) هذه جرأة من ماندڤيل أن يعلن في كل فقرات الكتاب أنه زار جميع البلدان والجزر والمجاهل بنفسه، حتى الخطير منها والمرعب كهذا!

(2) بـ[illegible] تكذب والوقاحة، في هذه الرّواية بالذات نجزم أن ماندڤيل كان يبادر إلى التلفيق بين الفينة والأخرى. والمضحك أنه يرويها بكل بساطة وأن بعض أصحابهم فقدوا وماتوا على الأغلب، [illegible] يرفّ له جفن ويتابع روايته الشائقة.

وهكذا عبرنا وادي الأخطار، ووجدنا فيه الذهب والفضة، والأحجار الكريمة والجواهر الثّمينة، بكميات كبيرة، هنا وهناك، كما بدت لنا. وفيما إذا كانت، كما بدت لنا، فهذا ما لا أعرفه. لأنني لم أمسّ أياً منها، لأن الشّياطين ماكرون جداً بجعل الأشياء تبدو خلاف ما هي عليه، لخداع البشر. لذلك لم ألمس أياً منها، وأيضاً لأنني لم أريد أن أتخلى عن إخلاصي؛ لأنني كنت أكثر إخلاصاً عندها، أكثر من أي وقت مضى أو تلا، وكله بسبب الرّعب من الشّياطين التي رأيتُها بهيئات مختلفة، وأيضاً بسبب العدد الكبير الذي رأيته من الجثث، التي رأيتها ملقاة على الطّريق، على طول الوادي، وكأنما كانت هناك معركة بين ملكين، والأقوى في البلاد، ولذلك فعدد كبير قد هُزم وقُتل. وأعرف، أنه لا يوجد أي بلد فيه هذا العدد من النّاس، كعدد القتلى الممدّدين في الوادي كما اعتقدنا، الذي كان منظراً شائناً جداً. ودُهشت أكثر، لأن عددهم كان كبيراً جداً، والجثث كلها غير متفسخة. لكنني عرفت، أن الشّياطين جعلوهم يظهرون كجثث كاملة لم تتفسخ. لكن ذلك لم يبد لي لأن عدداً كبيراً من النّاس يجب أن يكون دخل مؤخراً، والكثيرين قتلوا مؤخراً، دون تعفن وتفسخ. ومعظمهم كانوا على هيئة رجال مسيحيين، ولكنني أعرف جيداً، أنّ ذلك قد حدث بسبب الشّهوة للكنز الموجود هناك، وبسبب ضعف إيمانهم؛ لذلك لم تصمد قلوبهم على إيمانها أمام الرّعب. ولذلك كنا نحن الأكثر إخلاصاً. ومع ذلك فقد وقعنا، وارتطمنا عدة مرات بالأرض الصّلبة بسبب الرّياح والصّواعق والعواصف. لكن الله ساعدنا برحمته. وبذلك اجتزنا وادي الأخطار دون خطر ولا عائق، حمداً لله العظيم.

* * *

بعد ذلك، خلف الوادي، توجد جزيرة كبيرة، النّاس فيها عمالقة بطول ثمانية وعشرين قدماً، أو ثلاثين. وهم لا يرتدون الملابس، بل يشتملون فقط بجلود الحيوانات. ولا يأكلون الخبز، بل اللحوم النّيئة فحسب؛ ويشربون حليب الحيوانات، حيث لديهم الكثير من جميع أنواع الحيوانات. وليس لديهم بيوت يقيمون فيها. ويأكلون لحوم البشر بشهية أكثر من أي لحوم أخرى. ولا يجرؤ النّاس على دخول تلك الجزيرة. وإذا

رأوا سفينة وعليها بشر، فوراً خاضوا في البحر ليأخذوهم.

وأخبرنا النّاس، أنه في جزيرة أخرى خلف تلك الجزيرة يوجد عمالقة ذوو بنية أكبر، بعضهم بطول خمسة وأربعين قدماً، أو خمسين، وكما يقول البعض، بعضهم بطول خمسين ذراعاً. لكنني لم أر أيّاً منهم، حيث لم يكن لدي رغبة بالذهاب إلى تلك الأجزاء، لأنه لم يذهب أحد إلى تلك الجزيرة أو غيرها إلا وقد تم التهامه فوراً. وبين أولئك العمالقة توجد أغنام بحجم الثّيران عندنا، ويكسوها صوف كثيف وخشن. وكثيراً ما رأيتُ هذه الأغنام. ورأى النّاس، عدّة مرات، أولئك العمالقة وهم يخرجون الرّجال من سفنهم في البحر، ويأخذونهم إلى أرضهم، يحملون اثنين في يد واثنين في الأخرى، ويلتهمونهم نيئين وبسرعة.

وفي جزيرة أخرى باتجاه الشّمال، في المحيط، يوجد نساء ذوات طبيعة متوحشة وشريرة جداً. ولديهن أحجار كريمة في أعينهن. وهن من هذا النّوع، إذا رمقن أيما رجل بنظرة حنق، يقتلنه فوراً بنظرتهن[1]، كما تفعل ملكة العظاءات basilisk.

* * *

وفي جزيرة أخرى هناك، جميلة جداً وخصبة وكبيرة، ومليئة بالناس، لديهم هذه العادة، في الليلة الأولى للمتزوجين، بأن يجعلوا رجلاً آخر يضطجع مع زوجاتهم لفض بكارتهن، ولأجل ذلك يقدّمون له أجراً كبيراً مع الكثير من الشّكر. ويوجد رجال في كل قرية ليس لهم عمل آخر غير هذا؛ ويسمّونهم cadeberiz أو بعبارة أخرى fools of wanhope. لأنهم في تلك البلاد يعتبرون افتضاض امرأة عملاً عظيماً وخطيراً، ويُخيّل لهم أن مَن يغشى بكراً إنما يعرّض حياته للخطر. وإذا وجد رجل في الليلة التالية أن زوجته لا تزال بكراً بعد أن يكون من المفروض أنها اضطجعت مع ذلك الرّجل الذي أُوكلت إليه هذه المهمة، ربما بسبب السُّكر الشّديد أو لسبب آخر، فإن

---

(1) يبدو أن كتاب رحلات ماندفيل هنا سيتحول في فصوله الأخيرة إلى ما يشبه الإلياذة. لكنه مع ذلك يبقى ممتعاً وشائقاً، وعلينا أن نذكّر أنه ليس بأكمله من نسج الخيال، بل فيه فوائد جغرافيّة وصفيّة مهمّة، عدا عن أسلوبه الرّوائي الممتع.

الزّوج يقرّعه لعدم القيام بواجبه، بطريقة متوحشة جداً وكأنما الشّرطة كانت لتقتله.

ولكن بعد الليلة الأولى التي تتمّ فيها المواقعة، يحرصون بشدة على عدم التحدّث مع أي شخص. وسألتهم عن سبب هذه العادة لديهم، فأجابوني، أنه في الماضي كان الرّجال يموتون من فضّ بكارة العذراوات، لأن لديهن أفاعيَ في أجسادهن تلدغ الرّجال في ذكورهم، فيموتون فوراً. لذلك فهم يتبعون هذه العادة بتعيين رجال آخرين يغشون نسائهم، خشية الموت، ولتفحص الطّريق من قبل الغير [بدلاً من] أن يخاطروا بحياتهم.

* * *

وتليها جزيرة أخرى تقيم النّساء فيها حزناً كبيراً عند ولادة أبنائهن. وعند موتهم، يقمن احتفالاً كبيراً بالفرح والمرح، ثم يلقين به إلى نار مضرمة كبيرة. وهؤلاء اللواتي يحببن أزواجهن كثيراً، إذا مات أزواجهن، يلقين بأنفسهن مع أبنائهن في النّار، ويحترقن. ويقلن إن النّار ستطهّرهن من كل دنس ورذيلة، وأنهن سيذهبن نقيات وطاهرات إلى العالم الآخر ليلحقن بأزواجهن، وسيأخذن أبنائهن معهن. وعن سبب بكاؤهن عند ولادة الأطفال فهو؛ لأنهم عندما يأتون إلى هذا العالم، يأتون إلى الكدح والحزن والبلايا. وعن سبب فرحهن وحبورهن عندما يموت أبنائهن، كما يقلن، فلأنهم سيذهبون إلى الجنّة حيث توجد أنهار جارية من الحليب والعسل، وحيث يراهم النّاس في سعادة ووفرة كثيرة، دونما أحزان أو شقاء.

في تلك الجزيرة يعيّن النّاس ملكهم دائماً بالانتخاب، ولا يختارونه بسبب أصله ولا غناه، ولكن بسبب فضائله وحُسن سيرته، وحكمته، ويجب أن يكون بسنّ متقدم، وليس له أولاد. والنّاس في تلك الجزيرة عادلون جداً، يحكمون بالعدل في أيّة قضية سواء لغني أم فقير، صغير أم كبير، بالنظر إلى حجم الجناية المُرتكبة. ولا يحكم الملك على أحد بالموت إلا بعد استشارة باروناته والحكماء الآخرين، واتفاق كل المحكمة على ذلك. وإذا اقترف الملك شخصياً أيّة جريمة قتل أو جريمة أخرى، كأن يقتل شخصاً ما أو ما شابه، فسيلقى حتفه على تلك الجريمة. لكن لن يتم قتله كأي

رجل آخر؛ بل يتعهد النّاس تحت عقوبة الموت، ألا يقوم أيّ كان بصحبته أو التحدث إليه، ولا إعطائه شيء، ولا بيعه، ولا خدمته، لا بطعام ولاشراب؛ وبذلك يموت من التأذي. وهم لا يستثنون أحداً أقدم على أي انتهاك، لا يمنعهم من ذلك محبّتهم له، ولا حظوة ولا غنى، ولا أصل أو نسب؛ فإنه سيعاقب حتماً على فعلته.

وخلف تلك الجزيرة توجد جزيرة أخرى، ويوجد فيها عدد كبير من السّكان. وهم، دونما أي سبب، لا يأكلون لحوم الأرانب ولا الدّجاج ولا الإوز؛ ومع ذلك يربون الكثير منها، فقط ليروها ويحتفظوا بها؛ ولكنهم يأكلون لحوم الحيوانات الأخرى ويشربون لبنها. وفي تلك البلاد يأخذ الرّجال من بناتهم وأخواتهم زوجات لهم، وقريباتهم أيضاً. وإذا كان هناك عشرة رجال أو أثنا عشر رجلاً أو أكثر من ذلك يقيمون في بيت واحد، فإن زوجة كل منهم هي حِلٌ لجميع الذين يقطنون في ذلك البيت؛ ويمكن لأي رجل أن يعاشر أيّة واحدة يرغب بها هذه الليلة، وأخرى في الليلة التالية. وإذا أنجبت المرأة طفلاً فإنها تعطيه للرجل الذي تشاء، والذي كان في صحبتها، وهكذا لا يعرف أي رجل هناك فيما إذا كان الولد له أو لغيره. وإذا قال أيّ رجل لأحد، إنهم يربّون أولاد الآخرين، فيجيبون أن الآخرين يربّون أولادهم أيضاً.

في تلك البلاد وفي كل بلاد الهند يوجد الكثير من حيوان الكوكودريل[1] cockodrills، وهو نوع من الأفاعي الطّويلة، كما ذكرت من قبل. وهو يعيش في الماء ليلاً، وعلى اليابسة نهاراً، في الصّخور والكهوف. وهذه الحيوانات لا تأكل أيّ طعام في الشّتاء، فهي تدخل في سبات، كما الأفاعي. وهذه النّوعية من الأفاعي تقتل الإنسان، وتأكله وهي تبكي؛ وعندما تأكل تحرّك فكها العلوي وليس السّفلي، وليس لديها لسان.

في تلك البلاد والكثير من البلاد خلفها، وأيضاً في الكثير بهذا النّصف، يعمل النّاس في زراعة بذور القطن، ويزرعونها في كل عام. وهي تنمو على شكل شجيرات

---

(1) تقدّم ذكره في الفصل 21، لكن الصّواب في اسمه: crocodile في الإنكليزية (كروكودايل)، وبالفرنسية (كروكوديل) وليس كوكودريل.

صغيـرة، تحمل القطـن. ويقومون بذك سـنوياً، لذلك عندهم الكثير مـن القطن دائماً. وفـي هذه الجزيرة وفي الكثير غيرها، توجد مادة تشـبه الخشـب، صلبـة ومتينة. وهي تغطـي فحم ذلك الخشـب تحت الرّماد، وبذلك يتحمّل الفحـم ويبقى طويلاً، لعام أو أكثـر. ولهـذه الشّـجرة أوراق كثيرة، مثل الصّنوبـر. ويوجد الكثير من الأشـجار، ذات طبيعة غير قابلة للاحتراق، ولا تبلى بأيّ حال. ويوجد أشجار جوز، وهي تحمل جوزاً كبيراً بحجم رأس إنسان.

ويوجـد الكثير من الحيوانات، والتي تسـمى orafles. وفـي جزيرة العرب يطلقون عليها اسم[1] gerfaunts. وهذا الحيوان pomely أو مرقط، وأعلى قليلاً من الحصان، وله رقبة بطول عشرين ذراعاً؛ وكفله وذيله يشبه الأيّل؛ ويمكنه النّظر من فوق بيت عال جـداً. ويوجد أيضاً في تلك البلاد الكثيـر من الجمال camles؛ وهي حيوانات صغيرة بحجم الماعز، وهي بريّة، وتعيش على الهواء ولا تأكل شيئاً، ولا تشرب أبداً، ولا بأي وقـت. ويتغيّر لونها باسـتمرار، وغالباً عندما يراها النّاس، تكـون بلون وبلون آخر بعد قليل، ويمكنها أن تتغير إلى أي لون ترغب به، باستثناء الأحمر والأبيض[2].

وأيضـاً توجـد هنـاك أفاعٍ كبيـرة جداً[3]، يصـل طول بعضها إلى سـتة أقـدام، وهي بألوان مختلفة، فمنها مخطّط، وأحمر، وأخضر، وأصفر، أزرق وأسود، وكلها مرقطة. وبعضهـا له عُرف على رأسـه، وتسـير على أقدامهـا، منتصبة، ويصل طولهـا إلى أربع قامـات[4] fathom، أو أكثـر، وتعيـش دائماً علـى الصّخور والجبـال، وحلقها مفتوح

---

(1) هل يقصد الزّراف أم ماذا؟ وأما عن ذكر اسمه الشائع لدى العرب فليس ذلك غريباً، ولا ننسى أنّ ماندفيل أمضى في بلاط المماليك بمصر مدّة، وكنا رأينا في نصوص رحلات الحجّاج الطليان فريسكوبالدي وسيغولي وغوتشي المعاصرين له (1384 م) كيف شاهدوا الزّرافة للمرة الأولى بمصر واستغربوا ذلك. وفي لوحات جنتيلِه بلّيني وتلميذه مانسويتي نرى الكثير من هذه الزّرافات كعنصر محبّب للدّلالة على أجواء قصور المشرق العربي.

(2) أما هذه الملاحظة فغريبة، متى كانت الجمال تغيّر ألوانها؟

(3) لعلّه يعني الأناكوندا؟

(4) مقياس القامة fathom يعادل 1,8288 متراً.

دائماً، حيث تفرز السّم باستمرار.

وتوجد أيضاً خنازير برّية ملونة، كبيرة بحجم الثّيران في بلادنا، وكلها مرقطة، مثل الظباء الصّغيرة. كما توجد قنافذ، كبيرة بحجم الخنزير عندنا؛ ونسميها[1] Porcz de Spine. وتوجد أُسودٌ ذات لون أبيض بالكامل، كبيرة وقوية. وتوجد حيوانات أخرى، بحجم أو أكبر من الحصان الكبير destrier، ويسمّونها Loerancs؛ والبعض يطلق عليها اسم odenthos؛ وهذا الحيوان له رأس أسود وثلاثة قرون طويلة وحادة في مقدّمته[2]، حادة كالسيف، وجسمه ضئيل؛ وهو حيوان عدواني جداً، وهو يطارد الفيلة ويقتلها. ويوجد الكثير من الحيوانات الأخرى، وهي شرسة ومتوحشة، أكثر من الدّببة، ولها رأس كالخنزير، ولها ستة أقدام، وفي كل قدم مخلبان كبيران، حادّان؛ وجسم مثل الدّب، وذيل مثل الأسد. وتوجد فئران بحجم الكلاب، وفئران صفراء بحجم الغربان. وإوز، لونه أحمر، حجمه ثلاثة أضعاف حجم الإوز لدينا، ورأسه وعنقه وصدره بلون أسود.

وحيوانات أخرى مختلفة في تلك البلاد، والأماكن الأخرى من حولها، وطيور متنوعة أيضاً، يطول الحديث عنها. لذلك سأهملها هذه المرة.

* * *

(1) من الواضح أنه يقصد النّبص أو الشَّيهَم porcupine، الذي تكسوه أشواك حادّة طويلة.
(2) يبدو أنه يقصد وحيد القرن (الخرتيت)، لكن جسمه ليس ضئيلاً.

الفصل الثاني والثلاثون

عن طيبة سكان جزيرة براغمان، وعن الملك الإسكندر وعن سبب تسمية إمبراطور الهند بيوحنّا الكاهن

وخلف تلك الجزيرة تقع جزيرة أخرى، كبيرة وخصبة ووافرة، حيث يوجد قوم طيبون ومخلصون، وصادقون باعتقادهم ومؤمنون. وإن لم يكونوا جميعهم مسيحيين، وليس لديهم عقيدة مثالية، ولكن بالرّغم من ذلك لديهم عقيدة ملائمة وفيها كل الفضائل، وهم يتجنبون كل الرّذائل وكل الخبائث وكل الآثام. فهم ليسوا متكبرين، ولا شهوانيين، ولا شديدي الغضب، ولا نهمين، ولا فاسقين. ويعاملون النّاس كما يحبّون أن يعاملوهم، وبهذا الشّكل فهم يطبقون وصايا الرّب العشر، ولا يقيمون بالاً للتملّك ولا للغنى. ولا يكذبون، ولا يقسمون بلا داعٍ، فيقولون ببساطة نعم أو لا؛ لأنهم يقولون إن الذي يقسم فهو يخدع جاره، لذلك أي شيء يريدون القيام به، يقومون به دون قسم.

ويطلق النّاس على هذه الجزيرة اسم براغمان Bragman، والبعض يسمّونها أرض الإخلاص Land of Faith. ويجري عبر تلك الأرض نهر عظيم يسمّى التيبه Thebe. وبشكل عام، فإن النّاس في هذه الجزر والجزر المحيطة بها أكثر عدلاً من غيرهم في كل شيء. ولا يوجد في تلك البلاد أي سارق أو مجرم أو نساء مبتذلات أو متسولون فقراء، ولم يتم أبداً قتل أي إنسان في تلك البلاد. وهم عفيفون ويعيشون حياة طيبة، وبالنسبة للمتدينين منهم، فهم يصومون كل يوم.

وكونهـم مخلصين جداً وعادلين، ويتمتعون بكل الصّفـات الجيدة، فلم يعانوا أبدا مـن العواصـف أو الصّواعـق أو البرق أو البَرَد أو الأوبئة أو الحـروب أو المجاعات، ولا مـن أي محنـة أخـرى، كمـا يحدث كثيـراً لنا بسـبب خطايانا. لذلـك، ويبدو ذلك جلياً، أن الله يحبهم وأنهم مباركون مع عقيدتهم بسـبب أفعالهم الحسنة. إنهم يؤمنون بالله، الذي خلق كل شـيء، ويعبدونه. ولا يقيمون وزنـاً للثراء الدنيوي؛ وهم عادلون جداً. ويعيشـون ببساطة كاملة، ويقتصدون جداً بالمأكل والمشرب، ويعيشون طويلاً. ومعظمهم يموت دون أمراض، عندما تضعفهم الطّبيعة، بسبب التقدّم في السّن.

وحـدث فـي زمن الملك الإسـكندر أنـه اعتزم غزو تلـك الجزيـرة ليجعلهم تحت إمرته. وعندما سمع سكان البلاد بذلك، أرسلوا رسولاً إليه يحمل رسالة، هذا فحواها:

«ما الذي يُعدّ كافياً لمَن يجد العالم بأسره غير كافٍ؟ لن تجد شيئاً لدينا، ليجعلك تشن حرباً ضدنا. فنحن لا نملك الثّراء، ولا نطلبه، وكل محاصيل بلادنا مشاع. طعامنا، الذي يقيم أجسادنا، هو كل ما نملك. وبدلاً من كنوز الذهب والفضة، فلدينا كنوزنا من الائتلاف والسّـلام، وأن يحب كل فرد الآخر. ولكساء أجسادنا نتخذ أثواباً بالية نغطي بهـا جيفنا. نسـاؤنا لا يتزين لإسـعاد الرّجال، فقط يكتسـين درءاً للحماقـات. وعندما يعاقبهنّ الرّجال بكسوة أجسادهن ليغدين أجمل ممّا خلقهن الله، فهم يقترفون بحقهن إثمـاً كبيراً. لأن الرّجل يجب ألا يبحث ولا يطلب جمالاً أكثر ممّا أعطاه الله للإنسـان عند ولادته. الأرض تمنحنا شـيئين اثنين: حياتنا، نشـأتنا التي خلقنا منها، ومأوانا بعد المـوت. لقد كنا في سـلام دائم حتـى الآن، وأنت تأتي الآن لتحرمنا منـه. وأيضاً لدينا ملـك علينـا، ليس فقط ليحقق العـدل للجميع، لأنه لن يجد خللاً بيننـا، وإنما ليحافظ عى شرفنا، وليظهر احترامنا، لذلك لدينا ملك. ليس لأن العدل لا مكان له بيننا، ولكن لأننا لا نعامل الآخرين بخلاف ما نرغب أن يعاملونا به. لذلك بسبب الاستقامة فليس للانتقام وجود بيننا. لذلك لا يوجد ما تأخذه منا، سوى أمننا، الذي كان يلازمنا دوماً».

وعندمـا قـرأ الملك الإسـكندر هذه الرّسـالة، أيقن أنه سـيقوم بإثـم كبيـر بإقلاقهم. وأرسـل لهـم ضمانـات، حتـى لا يخشـوه، وأنهـم يجـب أن يحافظوا علـى فضائلهم

وأمنهم، كما كانوا من قبل، كعادة لهم. وأنه سيتركهم وشأنهم.

وفي جزيرة تسمى أوكسيدريت Oxidrate، وجزيرة أخرى تسمى Gynosophe، يوجد أيضاً أناس طيّبون ومخلصون. وهم يلتزمون، معظمهم، بالفضائل الحسنة والتقاليد وحسن السّيرة، كما هو حال القوم الذين في الجزيرة المذكورة أعلاه؛ ولكنهم يتجولون عُراة بالكامل.

ولقد دخل الملك الإسكندر إلى تلك الجزيرة، ليستكشفها. وعندما رأى إيمانهم العميق وإخلاصهم فيما بينهم، قال إنه يتوجب عليه عدم إشقائهم، ودعاهم لأن يطلبوا منه ما يريدون، الثّراء أو أي شيء آخر، وسيلبي طلبهم بكل سرور. فأجابوه، أنه يُعدّ ثرياً بشكل كاف مَن كان لديه الطّعام والشّراب ليقيم بدنه، لأن الثّراء في هذا العالم زائل، ولا قيمة له؛ ولكن إذا كان في مقدوره أن يجعلهم خالدين، فيتوسّلون إليه ويشكرونه لذلك. فأجابهم الإسكندر أنه ليس في مقدوره القيام بذلك، لأنه هو فانٍ، كما هم.

فسألوه: «لماذا إذن أنت متغطرس وعنيف، ومتحرّق جداً لتجعل من كل العالم تحت سيطرتك، وكأنك الله، ولا ترتاح في الحياة، لا ليوم ولا لساعة، وتريد أن تجعل العالم كله تحت أمرك، والذي سيغادرك بكل تأكيد، أو أنك ستغادره. وكما كان لأناس غيرك من قبلك، فإنه سيكون لغيرك من بعدك. ومن هنا فإنك لن تأخذ شيئاً؛ فقط كما ولدت عارياً، وأيضاً كما سيتحوّل جسدك العاري إلى تراب كالذي منه خُلقت. لذلك عليك ألا تفكر وتعتقد في عقلك، لأنه ما من شيء خالد، إلا الله، الذي خلق كل شيء». فدُهش الإسكندر بشدة لذلك الجواب وارتبك، واضطرب وغادرهم.

وعلى الرّغم من أن هؤلاء القوم ليس لديهم نصوص عقيدتنا التي لدينا، فإنهم بسبب إيمانهم الفطري، وبسبب نواياهم الطّيبة، فإنني متأكد تماماً من أن الله يحبهم، ويقبل عبادتهم، كما فعل مع أيوب Job، الذي كان وثنياً، والذي قَبِله بسبب عبادته المخلصة. لذلك، وعلى الرّغم من وجود الكثير من الأديان المختلفة في العالم، فأنا مقتنع، أن الله يحب دائماً الذين يحبّونه، والذين يعبدونه بتواضع وبصدق، وتحديداً أولئك الذين يحتقرون البهرجة الفارغة لهذا العالم، كما يفعل هؤلاء النّاس وكما فعل

أيّوب Job.

ولذلك قال ربنا على لسان هوشع الرّسول Hosea:

Ponam eis multiplices leges meas.

وفي موضع آخر:

Qui totum orbem subdit suis legibus.

وقال الرّب أيضاً في الكتاب المقدّس:

Alias oves habeo, que non sunt ex hoc ovili.

بمـا معنـاه، أن لديه عبـاداً آخرين غيـر أولئك الذيـن يدينون بالمسيحية. وفي هذا السّـياق أذكـر الرّؤيـا التـي رأها القدّيـس بطرس في يافـا Jaffa، كيف نـزل الملك من السّـماء، ووضع أمامـه حيوانات مختلفة، مثل الأفاعـي وزواحف أخرى من الأرض، وغيرهـا أيضـاً، الكثير منها، وأمر أن يأخذ ويأكل. فأجـاب القدّيس بطرس: أنا لن آكل أبداً، وقال: من الحيوانات النّجسة. ثم قال الملَك:

Non dicas immunda, que Deus mundavit.

وكانت تلك دلالة على أنه لا يجوز لأي إنسـان أن يحتقر أيّ إنسـان دنيوي بسـبب اختـلاف دينه، لأننـا لا نعرف مَن الذي يحبّه الله، ومن الذي يكرهه. فمثال على ذلك، عندما قال النّاس: *De profundis*، قالوا ذلك جميعهم وبشكل عام، مع المسيحيين:

Pro animabus omnium defunctorum, pro quibus sit orandum.

لذلـك قلتُ عن هؤلاء القـوم، لأنهم مخلصون ومؤمنون، إن اللـه يحبهم. ويوجد بينهـم الكثير مـن الأنبياء، ودائمـاً كان لديهم. وفي تلـك الجزر، تنبؤوا بتجسّـد الرّب يسـوع المسيح، وكيف أنه سـتلده عذراء، قبل ثلاثة آلاف سنة أو أكثر من ولادة مريم العذراء لسـيّدنا المسيح. وهم يؤمنون حقاً بالتجسيد، وبشكل كامل، ولكن لا يعرفون كيف، كيف تحمّل آلامه ومات لأجلنا.

وخلف هذه الجزر تقع جزيرة أخرى تسمى پيتان Pytan. والنّاس في تلك البلاد لا يحرثون ولا يعملون بالأرض، لأنهم لا يأكلون شـيئاً. ولهم لون جميل وشكل حسن،

حسب ضخامتهم. والصّغار مثل الأقزام، ولكنهم ليسوا صغاراً جداً بحجم الأقزام. ويعيشون على تنشق رائحة التفاح البري. وإذا ذهبوا بعيداً لأي مكان، حملوا معهم التفاح؛ لأنهم إذا فقدوا رائحته فسيموتون فوراً. وهم ليسوا عقلاء تماماً، فهم بسطاء وبهيميون.

وبعدها يوجد جزيرة، القوم فيها يغطيهم شعر أهلب خشن، مثل الحيوانات الخشنة، باستثناء وجوههم وراحات أيديهم. وهؤلاء القوم يغوصون في ماء البحر بسهولة، كما يعيشون على اليابسة الجافة. ويأكلون اللحوم والأسماك نيئة. وفي هذه الجزيرة يوجد نهر كبير ويبلغ عرضه ميلين ونصف ويسمّى بومارِه Beaumare.

وعلى بعد خمسة عشر يوماً على طول هذا النّهر، مروراً بالصّحارى على الطّرف الثّاني من النّهر - لمَن ذهب إلى هناك، لأنني لم أذهب، لكن هذا ما أخبرنا به سكان ذلك البلد، أنه في تلك الصّحارى توجد أشجار الشّمس والقمر، التي تكلمت إلى الملك الإسكندر وحذّرته من موته. ويقول النّاس إن القوم هناك يعتنون بهذه الأشجار، ويأكلون من ثمرها ومن البلسم الذي ينمو فيها، فيعيشون أربعمئة سنة أو خمسمئة، بفضل هذه الثّمار وهذا البلسم. لأنهم يقولون إن البلسم ينمو هناك بكميات كبيرة وليس ينمو في أي مكان آخر، فقط في بابل، كما أخبرتكم من قبل.

كنا لنذهب باتجاه تلك الأشجار وبكل سرور لو كانت لدينا القوة. لكني أعرف أن 100,000 رجل من الجيش لن يتمكنوا من اجتياز تلك الصّحارى بسلام، بسبب كثرة الحيوانات البرية والتنانين الضخمة والأفاعي الضخمة الموجودة هناك، التي تقتل وتلتهم كل ما يقترب منها. وفي تلك البلاد يوجد الكثير من الفيلة البيضاء بأعداد كثيرة، ومن وحيد القرن(1) unicorn ومن الأسود بأشكال متنوعة، والكثير من

---

(1) لا يقصد هنا وحيد القرن (الخرتيت) المعروف، بل الحصان الأسطوري ذا القرن الوحيد في جبهته. ومن الطريف أن هذا الحيوان الأسطوري ثبت أنه ما هو إلا بقر الوحش، أي المها أو الوضيحي في تراثنا العربي. انظر كتاب: «مغامرة في جزيرة العرب بصحراء النّفود بحثاً عن الوضيحي» للمغامر دوغلاس كارُثرز في هذه السّلسلة.

الحيوانات التي ذكرتها من قبل، والكثير من الحيوانات المقززة وبأعداد هائلة.

* * *

هذا والكثير من الجزر الأخرى هناك تقع ضمن أراضي يوحنّا الكاهن (بريستر جون)، وثمّة الكثير من العجائب، التي يطول جداً الحديث عنها، لترفه وفخامته والعدد الكبير للأحجار الكريمة التي يملكها. أعلم أنكم تعرفون تماماً وسمعتم، عن سبب تسمية هذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن. لكن ومع ذلك للذين لا يعرفون، سأخبرهم عن السّبب.

كان فيما مضى يوجد هناك إمبراطور، وكان حاكماً ذا شأن وشرف. ولديه في صحبته فرسان مسيحيون، كما لديه الآن. وحدث أنه كان لديه عدد كبير لمتابعة الخدمة في الكنيسة بين المسيحيين. وانتشرت المسيحية خلف البحار، في كل تركية وسوريا وبلاد التّتار والقدس وفلسطين وجزيرة العرب وحلب وفي كل بقاع مصر. وحدث أن ذهب مع الفرسان المسيحيين إلى كنيسة في مصر، وكان يوم السّبت في أسبوع العنصرة. وقدّم الأسقف العظات، فشاهد القدّاس وسمعه باهتمام بالغ. ثم سأل الفرسان المسيحيين ما هي المرتبة التي يجب أن يكون عليها الأسقف الذي رآه. فأخبروه أنه يجب أن يكون كاهناً قسيساً priest. فقال الإمبراطور إنه من الآن فصاعداً لن يُطلق عليه اسم ملك ولا إمبراطور بل كاهن، وسيتّخذ اسم أول كاهن يخرج من الكنيسة، وكان اسمه يوحنّا. ومنذ ذلك الوقت فهو يسمّى يوحنّا الكاهن (بريستر جون).

ويوجد في بلاده الكثير من المسيحيين الصّالحين والملتزمين، وتحديداً من نفس بلاده، ولديهم رهبانهم، ويرتّلون القدّاس، ويقدّمون القرابين عند المذبح، من الخبز، كما يفعل الإغريق؛ ولكنهم لا يقولون أشياء كثيرة في قدّاسهم كما نفعل هنا. لأنهم لا يقولون إلا ما قاله الرّسل، كما علّمهم الرّب، تماماً كما أنشد القدّيس بطرس والقدّيس توما والرّسل الآخرون، قائلين: *Pater Noster* (أبانا) وعبارات السّرّ المقدّس. ولكن نحن لدينا إضافات كثيرة قام بها البابا، وهم لا يعرفونها.

الفصل الثّالث والثّلاثون

عن تلال الذهب التي تحرسها البيسمير
وعن الفيضانات الأربعة القادمة من أرض الجنة

بالاتجاه شرقاً من أرض يوحنّا الكاهن تقع جزيرة كبيرة وخصبة، تسمّى تاپروبان Taprobane. وهي فخمة جداً وفيها الكثير من الثّمار. وملكها غني جداً، ويقع تحت إمرة يوحنّا الكاهن. وهناك دائماً يختارون ملكهم بالانتخاب. وفي تلك الجزيرة يوجد صيفان وشتاءان، ويجني النّاس المحاصيل مرتين في السّنة. والحدائق مزدهرة على مرّ فصول السّنة. ويقطنها أناس طيبون وحكماء، ويوجد الكثير من المسيحيين بينهم، وهم أغنياء جداً لدرجة أنهم لا يعرفون ما يفعلون بممتلكاتهم. ومنذ القدم، عندما كان النّاس يمرّون من أرض يوحنّا الكاهن وصولاً إلى هذه الجزيرة، كانوا يرتبون أمورهم للإبحار في سفنهم لمدة اثنين وثلاثين يوماً أو أكثر؛ ولكن الآن فهم يبحرون لمدة سبعة أيام. ويمكنهم رؤية قاع البحر في أماكن عديدة، حيث أنه ليس عميقاً جداً.

وبجانب تلك الجزيرة، باتجاه الشّرق، توجد جزيرتان أخريان. يطلق على إحداهما اسم أوريل Orille والثّانية أرغايت Argyte، وجميع تلك الأرض عبارة عن مناجم ذهب وفضة. وتقع هذه الجزر تماماً عند ملتقى البحر الأحمر مع المحيط. وفي هذه الجزر لا يتمكن النّاس من رؤية النّجوم بوضوح كما في المناطق الأخرى، لأن النّجوم لا تظهر هناك، فيما عدا نجم ساطع واحد يسمّى كانابوس[1] Canapos. والقمر أيضاً

(1) الصّواب في الاسم: كانوبوس Canopus وهو أكثر نجم التماعاً في مجموعة كوكبة القاعدة الجنوبيّة، وثاني ألمع نجم في السّماء ليلاً بعد نجم الشّعرى اليمانيّة Sirius. وهو في تراثنا

لا يُرى خلال الدورة القمرية باستثناء الرّبع الثّاني.

وفي جزيرة Taprobane هذه توجد تلال عظيمة من الذهب، وتحرسها اليسمير pismires باجتهاد كامل. وهم يقتنون الذهب الخالص ويرمون سواه. وهذه اليسمير pismires عبارة عن كلاب ضخمة، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من تلك التلال لأنها ستقوم بقتله والتهامه فوراً. لذلك لا يتمكن أي شخص من الحصول على ذلك الذهب، إلا ببراعة متناهية. لذلك عندما يكون الحرّ شديداً، ترتاح اليسمير pismires داخل الأرض، من أول النّهار وحتى الظهيرة. فيأخذ سكان البلاد الإبل والجمال والخيول والحيوانات الأخرى ويمضون إلى هناك، وينطلقون بأسرع ما يمكنهم؛ ثم يفرّون بأقصى ما يمكن حيواناتهم من الإسراع وإلا فإن اليسمير ستغادر مخابئها.

وفي أحيان أخرى عندما لا يكون الحرّ شديداً، ولا تقوم اليسمير بالاختباء في الأرض، يحصلون على الذهب بواسطة هذه الحيلة. يأخذون إناث الخيل التي لديها أمهار صغيرة، ويضعون على ظهورها أوانٍ فارغة مصنوعة لهذه الغاية؛ وتكون كلها مفتوحة من أعلاها، ويجعلونها تتدلي إلى الأرض. ثم يرسلونها إلى المراعي المترامية حول هذه التلال، ويبقون الأمهار معهم في بيوتهم. وعندما ترى اليسمير هذه الأواني، تثب عليها مباشرة: وهم عادة لا يتركون شيئاً فارغاً، بل يقومون بملئه فوراً، مهما كان هذا الشّيء؛ فيقومون بملء هذه الأواني بالذهب. وعندما يعتقد النّاس أن الوقت قد حان لتكون هذه الأواني امتلأت ذهباً، يحضرون الأمهار ويجعلونها تصهل طلباً لأمهاتها. فتعود إناث الخيل إلى أمهارها فوراً محمّلة بالذهب. فيقوم النّاس بإفراغها، ويحصلون على الكثير من الذهب بهذه الحيلة. لأن اليسمير pismires تسمح للحيوانات بأن ترعى قربها، ولكن لا تسمح لأي إنسان بالاقتراب.

وخلف تلك الأراضي والجزر والصّحارى الواقعة ضمن أملاك يوحنّا الكاهن، بالذهاب بشكل مستقيم نحو الشّرق، لا يوجد سوى الصّخور والجبال، الضخمة جداً. وتقع هناك أرض الظلام، حيث لا يمكن لأحد رؤية شيء، لا ليلاً ولا نهاراً، كما يقول

العربي يُعرف بنجم سهيل.

أهل البلاد. وتمتدّ هذه الصّحراء وأرض الظلام من هذا السّاحل حتى الجنة الدنيوية، حيث كان آدم، أبونا الأول، وحوّاء قد تُركا، ومكثا لبعض الوقت. وهذه المنطقة تقع بالاتجاه شرقاً من بداية الأرض. ولكن هذا ليس الشّرق الذي نسميه شرقاً في هذا النّصف، حيث تشرق الشّمس. لأنه عندما تكون الشّمس في الشّرق في تلك البقاع باتجاه الجنة الدنيوية، يكون الوقت منتصف الليل عندنا في هذا النّصف، بسبب استدارة الأرض، الأمر الذي جعلتكم تلمسونه سابقاً. لأن الإله ربنا جعل الأرض دائرية عند منتصف قبة السّماء. وكل ما يوجد من الجبال والتلال والوديان ليس إلا نتاجاً لطوفان نوح، الذي أزال الأرض الرّقيقة الرّخوة، وخسفها لتشكل الوديان، والأجزاء الصّلبة والصّخرية شكلت الجبال، وعندما امتزجت التربة النّاعمة بالماء وأصبحت وديانا.

لا يمكنني الحديث عن الجنّة بدقة، لأنني لم أذهب إلى هناك. لأنها بعيدة جداً. وهذا أقلقني، وأيضاً لم أكن قادراً على الرّحلة. ولكنني سمعت عنها من رجال حكماء، وسأروي لكم ما قالوه بأمانة.

الجنة الدنيوية، كما قال الحكماء، أعلى مكان في الأرض، في كل العالم. وهي مرتفعة جداً بحيث تلامس تقريباً قرص القمر، هناك حيث يجعلها القمر تدور؛ وكونها مرتفعة جداً فلم يصل إليها طوفان نوح، الذي غطى وجه الأرض بأكملها، من حولها وفوقها وتحتها، باستثناء الجنّة وحدها. وهذه الجنة مُحاطة بالكامل بسور، ولا يعرف النّاس من أي شيء هو هذا السّور؛ لأن الطّحالب تغطيه بشكل كامل، كما يبدو. ولا يبدو أن السّور من حجر طبيعي، ولا من أي شيء آخر ممكن أن يبنى منه سور. ويمتدّ هذا السّور من الجنوب إلى الشّمال، وفيه مدخل واحد مغلق بنار، مستعرة؛ لذلك لا يجرؤ أيّ شخص من البشر على الولوج.

وفي أعلى مكان في هذه الجنة، ويقع في وسطها، يوجد نبع تتدفق منه أربعة سيول تجري في مختلف الأراضي. وهي، الأول ويسمّى پيسون[1] Pison، أو الغانج

(1) أو كما يسمّى في العربية: سيحون.

Ganges، وهـو النّهـر ذاته؛ ويجري عبر الهند أو «أمـلاك»[1] Emlak، حيث يوجد في ذلـك النّهر الأحجار الكريمـة، والكثير من عُصارة الصّبـر lignum aloes والكثير من الحصـى الذهبيـة. والنّهر الآخر يسـمّى النّيل Nilus أو جيسـون[2] Gison، وهو الذي يجري في إثيوپيا ومصر. والآخر يسمّى دجلة، وهو يجري في بلاد الآشوريين وأرمينيا الكبرى. والآخر يسمّى الفرات، الذي يجري بميديا Media وأرمينيا وفارس. والنّاس هنـاك فوق يقولـون إن كل المياه العذبة في العالم، من الأعلى للأسـفل، تنشـأ من نبع الجنة، ومن هذا النّبع جميعها تبدأ وتنتهي.

النهـر الأول المسـمّى پيسـون Pison، والـذي يعنـي حسـب لغتهـم المجمع؛ لأن الكثيـر مـن الأنهار الأخرى ترفد بعضهـا لتصبّ في هذا النّهـر. والبعض يطلقون عليه اسـم الغانج Ganges، بسـبب ملك كان في الهند وكانوا ينادونـه غانجير Gangeres، وهو يجري في أراضيه. وماؤه [يكون] في موضـع صافٍ، وفي موضع آخر عكر، وفي موضع حارّ، وفي موضع بارد.

والنهـر الثّاني يسـمّى النّيـل Nilus أو جيسـون Gison، لأنه عكر دائماً؛ وجيسـون Gison، في لغة إثيوپيا تعني العكر، وفي لغة مصر أيضاً.

والنهر الثّالث، يسـمّى دجلة Tigris، وهو يعني تقريباً، السّـريع؛ لأنه يجري بسرعة أكبر من أي نهر آخر؛ وأيضاً يوجد حيوان سريع العدو يسمّى Tigris.

والنهر الرّابع هو نهر الفُرات Euphrates، والذي يعني الوفير well-bearing؛ لأنه ينمـو عند ذلك النّهر الكثير من المحاصيل، مثل الحبـوب والفواكه وغيرها وبكميات كبيرة.

وسـأخبركم أنه لا يوجد أي شـخص بشـري فانٍ اقترب من تلك الجنة. لأنه براً لا يمكن لأحد الذهاب لوجود الكثير من الحيوانات البرّية الكائنة في الصّحارى، وبسبب

---

(1) وردت هذه التسمية أعلاه في الفصل 17 على أنها اسم الهند العليا.

(2) أو كما يسمّى في العربية: جيحون.

الجبال المرتفعة والصّخور الضخمة التي لا يمكن لأحد اجتيازها، وبسبب أرض الظلام الموجودة هناك، والكثير أيضاً. ولا يمكن لأحد الذهاب عن طريق الأنهار. لأن الماء يجري بعنف وحدّة، لأنه ينحدر بشدّة من الأعالي، ويوجد الكثير من الأمواج المرتفعة، ولا يمكن لأيّة سفينة أن تبحر بعكس اتجاهه. والماء يهدر بشدة، محدثاً ضجيجاً كبيراً مثل العواصف، ولا يمكن لأحد أن يسمع أصوات مَن في السّفينة، حتى ولو صرخوا بأعلى أصواتهم.

إنّ الكثير من السّادة قد حاولوا بإمكانيات كبيرة، ولعدة مرات، اجتياز هذه الأنهار وصولاً إلى الجنة، ترافقهم مجموعات كبيرة. ولكنهم لم ينجحوا في رحلاتهم، ومعظمهم مات في مواجهة هذه الأمواج العاتية. والكثير أصيبوا بالعمى، أو الصّمم، بسبب صخب المياه. وبعضهم هلك وفُقد في الموج. لذلك لا يمكن لأيّ إنسان فانٍ أن يقترب من ذلك المكان، إلا بفضل نعمة إلهية، وهذا كل ما يمكنني قوله عن ذلك المكان ولا شيء أكثر من ذلك؛ لذلك سأتوقف هنا وأعود للحديث عن الأماكن التي رأيتُها[1].

* * *

(1) من يقرأ كلام ماندفيل هذا يجده بالفعل ملتزماً لحدود الأمانة العلمية بالاقتصار في النقل على مختصر الكلام، وهو يصرّح مسبقاً في هذا الفصل: «لا يمكنني الحديث عن الجنّة بدقة، لأنني لم أذهب إلى هناك. لأنها بعيدة جداً. وهذا أقلقني، وأيضاً لم أكن قادراً على الرّحلة. ولكنني سمعت عنها من رجال حكماء، وسأروي لكم ما قالوه بأمانة».

الفصل الرّابع والثّلاثون

عن عادات الملوك والآخرين القاطنين في الجزر الواقعة على سواحل أراضي يوحنّا الكاهن وعن التبجيل الذي يقوم به الابن عند وفاة أبيه

ومن تلك الجزيرة التي تحدّثتُ عنها مسبقاً، الواقعة في أرض يوحنّا الكاهن، والتي تقع في القسم السّفلي للأرض بالنسبة لنا نحن في هذا النّصف، وبالنسبة للجزر الأخرى التي أبعد منها، ومن يتتبعها سيرجع إلى النّقطة التي انطلق منها، وبذلك يحيط بكل الأرض. وبسبب الجزر، والبحر، والأمواج العاتية، فقليل من النّاس يحاولون عبور هذا الممرّ؛ بالرغم أنه من الممكن النّجاح في ذلك، في حال وجود القوة لإيصالهم إلى هناك، كما أخبرتكم من قبل. لذلك فإن النّاس يرجعون من تلك الجزر المذكورة أعلاه عن طريق جزر أخرى، تواجه سواحل أرض يوحنّا الكاهن.

وفي طريق العودة، يمرّ الرّجال بجزيرة تسمى كاسون Casson. ويبلغ طول هذه الجزيرة مسير ستين يوماً، وعرضها أكثر من خمسين. وهذه أفضل جزيرة وأعظم مملكة في هذه الأجزاء، عدا عن كاثاي. وإذا قصد التجار هذه الجزيرة كما يقصدون كاثاي، لأصبحت أفضل من كاثاي في فترة وجيزة. وهذه البلاد مأهولة بشكل جيد، وفيها الكثير من المدن والقرى المأهولة بالسّكان، وعندما يغادر المرء من إحدى المدن فإنه يجد مدينة أخرى أمامه؛ وهذا ينطبق على كامل البلاد. وفيها الكثير من كل أنواع المحاصيل للاقتيات بها، وكل أصناف التوابل. وتوجد غابات كبيرة من الكستناء. وملك تلك الجزيرة ثري جداً

وقـوي، ومـع ذلك فإن بلاده تقع تحت إمرة الخان الأعظـم، ويخضع له. حيث أنها واحدة مـن المقاطعـات الاثنتي عشـرة التي تتبع للخـان الأعظم ما عـدا أرضه، وهـذا غير الجزر الصّغيرة الأخرى التي يملكها، فلديه الكثير منها.

ومـن تلـك المملكـة، يصـل الرّجـال فـي طريـق عودتهم إلـى جزيـرة تسـمى ريبوت Rybothe، وهـي أيضـاً تابعة للخـان الأعظم. وهي بلاد جيدة، فيهـا الكثير من المحاصيل والخمـور والثّمار وكل أنواع الرّفاهية. والنّاس فيها ليس لديهم بيوت، ولكنهم يقيمون في خيام مصنوعة من السّـرخس الأسـود، في كل البلاد. والمدينة الرّئيسية والأكثر ملكية فيها مسـورة بالكامل بحجارة سـوداء وبيضـاء. وشـوارعها كلها مرصوفة بالحجارة ذاتها. وفي تلـك المدينـة من النّـادر أن تجد شـخصاً يريق دم أي إنسـان أو حيوان توقيـراً للوثن الذي يعبده. ويقطن في تلك المدينة بابا ديانتهم، الذي يسمّونه لوباسي Lobassy. ولوباسي هذا هـو الذي يقوم بمنح المراتب والألقاب وكل ما يتعلق بالوثن. وكل أولئك الذين يشـغلون منصباً في كنائسهم، دينياً أو غيره، يطيعونه كما يفعل النّاس هنا اتجاه بابا روما.

ولديهم عادة في تلك الجزيرة متّبعة في كل أنحاء البلاد، فعندما يموت والد شخص ما، يتوجب على الابن القيام بتبجيل كبير اتجاه والده، فيرسل إلى كل أصدقائه وأقاربه، ولرجال الدين والقساوسة، والموسيقيين أيضاً، إلى عدد كبير. ويحمل النّاس جثمان الميت إلى تلة عالية بفرح وإجلال. وعندما يحملونه هناك، فإنّ الأسـقف الأكبر يقطع رأسـه، ويضعه في طبـق مـن الذهب والفضـة، إذا [كان] غنيـاً. ثم يقدم الـرّأس للابن. فيقوم الابـن مع أقاربه بتـلاوة الصّلـوات orisons. ثـم يقـوم الكهنة ورجال الدين بتقطيع جسـد الميـت. ويتلون صلوات معينة. والطّيور المفترسة في كل أنحاء البلاد تعرف تلك العادة منذ زمن بعيد، [و] تأتي وتحوم في الجو؛ مثل الصّقور والرّخمdes والغربان والطّيور المفترسة الأخرى، آكلة اللحـوم. ثـم يقوم الكهنة برمي قطـع اللحم، فيقوم كل طائر بأخذ القطعـة التي يريد ويبتعد قليلاً ويأكلها؛ وهكذا حتى لا يبقى من جسد الميت شيء.

وبعد ذلك، وكما يفعل الكهنة بيننا ويغنون للميت:

Subvenite Sancti Dei, etc.

فكذلك كهنتهم ينشدون بأصوات عالية بلغتهم؛ يشيدون بمكانة الرّجل وحسن سيرته، وأن ملائكة الله تأتي في طلبه لتأخذه إلى الجنة. ويبدو للابن، أنه مبجّل كثيراً، إذا أتت طيور كثيرة وغربان لتأكل والده، وكلما كان عدد الطّيور أكثر كلما كان مقامه أرفع.

ثم يصطحب الابن معه إلى البيت كل أقاربه وأصدقاءه والآخرين جميعهم، حيث يقيمون احتفالاً مهيباً. ويتبجّح أصدقاؤه ويتمازحون، كيف أتت الطّيور إلى هناك، فهنا خمسة، وهنا ستة، وهنا عشرة، وهناك عشرون، وهكذا؛ ويبتهجون كثيراً بهذا الحديث. وعندما يجلسون إلى الطّعام، يحضر الابن رأس والده، ويقدم لحمه لأصدقائه المقربين، بدلاً من *entre messe* أو *sukkarke*. ويجعل من جمجمته (قحف رأسه) كوباً، يشرب منه هو وأصحابه، بحبّ شديد، لذكرى الرّجل التقي، الذي قد أكلته ملائكة الله. ويحتفظ الابن بذلك الكوب ليشرب منه طوال حياته، كذكرى لأبيه.

ومن تلك الجزيرة، وعلى مسير عشرة أيام عبر أرض الخان الأعظم، توجد جزيرة أخرى جيدة ومملكة كبيرة، وملكها غني وقوي.

وبين الأغنياء في بلاده يوجد رجل ثري جداً، فلا يوجد حاكم ولا دوق ولا إيرل، إلا ويملك أكثر منه أراضيَ وممتلكات، فهو غني جداً. ولديه، في كل عام، مردود الأجر السّنوي لـ 300,000 حصان يستبدلها بالحبوب المختلفة والأرز. وهو يعيش حياة نُبل وترف، حسب العادات في بلاده. فلديه، يومياً، خمسون فتاة جميلة، كلهن عذراوات، لخدمته على طعامه، وليستلقين إلى جانبه ليلاً، وليستمتع بهن. وعندما يكون إلى مائدته، يحضرن له طعامه، خمسة وخمسة مع بعضهن؛ وبينما يحضرن الطّعام يشدون بالأغاني. ثم، يقطعن له طعامه، ويطعمنه؛ وهو لا يمسّ شيئاً، ولا يمسك بأي شيء، فقط يضع يديه أمامه على الطّاولة. لأن أظافره طويلة جداً، ولا يمكنه أن يأخذ شيئاً أو يمسكه. لأنه من سمات النّبالة في تلك البلاد، الأظافر الطّويلة جداً، التي تحيط بكامل اليد. وهو يدل على نبل شديد. ومن سمات النّبل عند المرأة أن تكون لديها أقدام صغيرة جداً ودقيقة. لذلك فور ولادتهن، يقومون بتقييد أقدامهن بشدة، وبذلك

لا تنمـو الأقدام بنصف المعدل الطّبيعـي للنمو[1]. وهذا يدل على نبل المرأة بامتلاكها أقداماً صغيرة جداً.

وأيضاً تلك الفتيات، اللواتي ذكرتهن آنفاً، يأخذن بالغناء طوال الوقت الذي يتناول فيـه هـذا الرّجـل الثّري طعامه. وعندمـا ينتهي من تنـاول الصّنف الأول، تقوم خمسـة وخمسـة فتيـات بإحضار الصّنـف الثّاني، وهـن يغنين مثـل سـابقاتهن. ويقمن بذلك باستمرار يومياً حتى ينتهي من طعامه. وبهذا الشّـكل يعيش حياته. وهذا ما فعله الذين من قبله، أسلافه. وهذا ما سيفعله الذين يأتون بعده، دون أن يقوموا بأيّة مآثر عسكريّة، بل يعيشون هكذا فقط براحة مثل خنزير يتم إطعامه في حظيرته بهدف تسمينه.

وهو يعيش في قصر جميل وباذخ، ومحيط سوره يبلغ ميلين. ويوجد فيه الكثير من الحدائق الجميلة، وقاعات وغرف جميلة؛ وممرات القاعات والغرف كلها من الذهب والفضـة. ويوجد في وسـط أحدى الحدائق جبل صغيـر، حيث يوجد مرج ناعم. وفي ذلـك المرج يوجد جوسـق أبراجه وقممـه الناتئة كلها من الذهـب. وفي هذا الجوسـق الصغير يمضي معظم أوقاته، ليستنشق الهواء وليلهو. لأن القصر لم يوجد إلا لتسليته.

* * *

ومن ثم يعبر الرّجال تلك البلاد من أرض الخان الأعظم التي تحدّثتُ عنها من قبل.

وسـأخبركم أيضاً، أنه فـي كل تلك البلاد وتلك الجزر، والأقـوام المختلفين، التي تحدّثـت عنهم، والديانات المتنوعة والعقائد المختلفة التي لديهم، فجميعهم مع ذلك لديهـم بعـض الحكمة والفهم، وإن كان أقل، ولديهم جوهر إيماننا والنّقاط الجيدة في عقيدتنا، ولديهم إيمانٌ بالله، الذي خلق كل شيء وخلق العالم، ويسمّونه ربّ الطّبيعة؛ وعن ذلك قال الرّسول:

Et metuent eum omnes fines terrae.

---

(1) كلام ماندڤيل هنا دقيق للغاية، وقد عرضت قناة ناشيونال جيوغرافيك المعرّبة في أبوظبي مرّة برنامجاً وثائقياً خاصاً حول هذه العادة الغريبة التي كانت شائعة حتى القرن العشرين في الصّين.

وفي موضع آخر:

Omnes gentes servient ei.

بما معناه أن «جميع الأمم ستتبعه».

ولكن ليس بإمكانهم الكلام بشكل جيّد (لأنه لا يوجد أحد يعلّمهم)، فقط يمكنهم التعبير حسب إدراكهم الفطري. لأنه ليس لديهم علم لا بالابن، ولا بالرّوح القدس. لكنهم جميعم يمكنهم الكلام عن الإنجيل، وتحديداً عن سفر التكوين، وعن أقوال الرّسول وكتب موسى. ويقولون إن المخلوقات التي يعبدونها ليست بآلهة؛ لكنهم يعبدونها بسبب فضائلها، والتي لا يمكن أن تكون إلا بنعمة إلهية. وعن الصّور والأوثان، يقولون إنه لا يوجد قوم ليس لديهم أوثان. ويقولون عنا نحن المسيحيين إنّ لدينا صوراً، كصورة سيدتنا والقدّيسين الآخرين الذين نجلهم؛ ليست صوراً لأشجار أو حجارة، ولكن لقدّيسين، حسب أسمائهم التي سُمّوا بها.

فصحيح أن كتبهم وكتاباتهم المقدّسة تعلم رجال الدين كيف يكون الإيمان، فكذلك الصّور والرّسومات تعلّم الجاهلين أن يجلّوا القدّيسين ويقتدوا بهم، حسب القدّيس الموجود في الصّورة. ويقولون أيضاً، أن ملائكة الرّب تحدثهم عن طريق هذه الأصنام، وأنهم يقومون بمعجزات كثيرة. ويقولون إنه يوجد ملك في داخلهم. لأنه يوجد نوعان من الملائكة، خير وشر، كما يقول الأغريق كاتشو Cacho وكالو Calo. وكاتشو هذا ملك شرير، وكالو ملك الخير. ولكن ذاك ليس ملك الخير، فالملك الذي يوجد في الأصنام هو ملك الشّر ليخدعهم ويجعلهم ينغمسون في خطاياهم.

* * *

كما يوجد الكثير من البلاد المختلفة والعجائب في ما وراء ذلك، ولكني لم أرها. لذلك لا يمكنني الحديث عنها بدقة. وأيضاً في البلاد التي زرتها، يوجد الكثير من الأشياء الرّائعة أكثر من تلك التي ذكرتُها؛ ولكن وصفها لكم يطول جداً. لذا، ولكوني قد قمت بوصف بلاد محدّدة لكم، وهي التي حدّثتكم عنها، ألتمس فضلكم ونُبلكم، لتكتفوا بهذا القدر هذه المرة. لأنني إذا تحدّثت عن كل ما وراء البحار، فلربما قام رجل آخر وتكبّد العناء

وأرهق نفسه بالذهاب إلى تلك الاتجاهات لاستكشاف تلك البلدان، متأثراً بكلامي في سرد الكثير من الغرائب؛ فمن الممكن ألا يضيف شيئاً، يكون فيه تسلية للمستمعين أو متعة أو تشويق ورغبة في سماعه. لأن النّاس يقولون دائماً، إنه من المبهج سماع الأشياء والأنباء الجديدة. لذلك سأكتفي الآن، دون أيّة إضافات أخرى عن التنوعات والعجائب الموجودة هناك، بذاك الهدف وأنتهي، ليجد الشّخص الذي سيذهب إلى تلك البلدان شيئاً ليتحدث عنه، ممّا لم أكن قد تطرّقتُ إليه.

وسأخبركم، إن رغبتم في ذلك، عن بلدي الأصلي، فقد أتيتُ من روما، وعرضتُ حياتي على أبينا المقدّس البابا، وقد تبرّأت من كل ما يعتري ذاتي، من آلام مختلفة؛ لأن الإنسان بحاجة لأن يكون مع صحبة، ويعيش بين مجموعة كبيرة من النّاس من طوائف وعقائد مختلفة، كما حدث معي.

وكل الأشياء التي أوردتها في بحثي هذا، سواءٌ المعلومات التي نقلتها عن أشخاص يعرفونها لكوني لم أرها بنفسي، أو الغرائب والتقاليد التي كنت قد شهدتها بنفسي، فبنعمة الله التي منحني إياها؛ وتضرّعت إلى قداسته الأبوية، أن يدقق كتابي هذا ويصحّح بفضل حكمة وعقلانية مجلسه. وأحال قداسة أبينا، بعطفه المميّز، كتابي هذا ليتم تدقيقه والموافقة عليه من قبل مجلسه ذاك. وقد أقرّ المجلس بصحة كتابي، بمعظمه، وأروني الكتاب الذي دقق كتابي على أساسه، الذي كان شاملاً أكثر بكثير، أكثر بمئة مرة، الذي كان كتاب *Mappa Mundi* قد استند إليه. ولذلك فكتابي هذا (بالرّغم من أن الكثيرين لم يؤمنوا بما جاء فيه، فإنه بالنسبة لأولئك الذي رأوا بأنفسهم، لا يمكن أن يكون كاتب ولا شخص أصدق من هذا) قد تم الإقرار به والمصادقة عليه من قبل قداسة أبينا، في المعلومات والصّياغة كما كنت قد قلت.

وأنا، جون ماندفيل الفارس، المذكور أعلاه (بالرغم من كوني غير جدير)، انطلقت من بلادنا وعبرتُ البحار، في السّنة المباركة ألف وثلاثمئة واثنتين وعشرين، وقد مررتُ بأراضٍ كثيرة وبالكثير من الجزر والبلدان، واستكشفتُ أماكن غريبة كثيرة، وقد كنت برفقة الكثير من الأصحاب الجديرين بالاحترام، والكثير من مواقف القتال

(مع أني لم أقم بذلك شخصياً، لكوني غير قادر على ذلك)، والآن قد عدتُ إلى بلادي مُرغماً، للراحة، بسبب داء النّقرس (إلتهاب المفاصل) الذي انتابني[1]، والذي وضع حدّاً نهائياً لمسار تجوالي؛ بخلاف ما أريد وأشتهي (والله يعلم ذلك).

وهكذا، اتخذتُ عزاءً لي في راحتي الطّويلة، بتسجيل الزّمن الذي مضى، وأنجزتُ هذه الأفكار، ووضعتها في هذا الكتاب حسبما وردت في ذهني، في السّنة المباركة ألف وثلاثمئة وست وخمسين[2]، في السّنة الرّابعة والثّلاثين لمغادرتي لبلادنا.

لذلك، أتوسّل إلى كل قارئي الكتاب والمستمعين إليه، إذا كان مصدر سرور لهم أن يصلّوا إلى الله لأجلي؛ وسأصلّي لهم أيضاً. وإلى كل الذين يتلون لأجلي صلاة «أبانا» *Pater Noster*، وصلوات مريم العذراء *Ave Maria*، أن يغفر الله لي خطاياي، ويجعلهم شركاء لي وأمنحهم جزءاً من رحلات الحج والأفعال الحسنة التي قمتُ بها، إذا تقبّلها مني؛ وليس ذلك فحسب وإنما كل ما سأقوم به إلى آخر حياتي.

وأسأل الله القدير، الرّحمن الرّحيم، أن ينعم عليهم بعظيم رحمته ووافر فضله، لترتقي أرواحهم إلى روحانية روح القدس، ويحميهم من الأرواح الشّريرة على الأرض، ويتحقق خلاصهم الرّوحي والجسدي؛ لنعبده ونشكره، الثّالوث، الأول والآخر؛ الخير المطلق والعظيم المطلق؛ الحاضر في كل مكان، والواسع؛ لا خير يوازيه، ولا شرّ يضعفه؛ في ثالوثه يحيا ويحكم الرّب، في كل مكان وزمان!

آمين! آمين! آمين!

[وهنا ينتهي كتاب جون ماندڤيل]

---

(1) يعبّر ماندڤيل عن ذلك بقوله: gouts artetykes that me distrain.

(2) في هذه السنة 1356 م قام ماندڤيل بتدوين وقائع رحلاته بعدما عاد، ولكن هل معنى ذلك أنها دامت حتى ذلك الحين؟ الجواب على هذا السؤال يبقى في علم الغيب.

المحتويات

سلسلة روّاد المشرق العربي........................ 5

هذا الكتاب 7

نقاط حول الترجمة 17

مقدمة المؤلف...................................... 41

الفصل الأول 45

الفصل الثّاني 47

الفصل الثّالث...................................... 53

الفصل الرّابع...................................... 59

الفصل الخامس.................................... 63

الفصل السّادس.................................... 69

الفصل السّابع..................................... 79

الفصل الثامن 87

الفصل التاسع..................................... 95

الفصل العاشر 103

الفصل الحادي عشر 111

الفصل الثّاني عشر 125

الفصل الثّالث عشر 133

الفصل الرّابع عشر 143

الفصل الخامس عشر 155

الفصل السّادس عشر.. 165
الفصل السّابع عشر 171
الفصل الثّامن عشر.. 179
الفصل التاسع عشر 187
الفصل العشرون 191
الفصل الحادي والعشرون 199
الفصل الثّاني والعشرون 207
الفصل الثّالث والعشرون.. 215
الفصل الرّابع والعشرون 221
الفصل الخامس والعشرون 229
الفصل السّادس والعشرون.. 241
الفصل السّابع والعشرون.. 249
الفصل الثامن والعشرون 253
الفصل التاسع والعشرون 259
الفصل الثّلاثون 265
الفصل الحادي والثّلاثون 275
الفصل الثاني والثلاثون 283
الفصل الثّالث والثّلاثون 289
الفصل الرّابع والثّلاثون 295

* * *